جمال الغيطاني

حكايات المؤسسة









حكايات المؤسسة



جمال الغيطاني

حكايات المؤسسة

السفر الأول





ص .ب :٥٧٥٢/ ١١٣ بيروت ـ لبنان

المحتويات

في أصل البناية

.. عندما شرع استخف البعض وانتقده آخرون سراً وعلانية، أكد بعضهم أنه مغامر يبدد ما جمع، لا يدرك الحقائق ولا يقدر الواقع.

تساءل أحدهم: من سيقصد هذا المكان النائي، وسط الغيطان، بعيداً عن المدينة، عن الطرق الرئيسية السالكة رغم قربه من النيل؟

كانت إمبابة وميت عقبة وبولاق الدكرور وأبو قتادة مناطق تعد من الريف وقتئذٍ، اعتبرها القاهريون أماكن نائية لا يقصدها إلاّ التجار الذين يجلبون منها الخضر والفاكهة، أو طلاب النزهات الخلوية.

لم يعبأ المؤسس بهذا كله، كان مقتنعاً تماماً، لذا أقدم، اشترى سبعة فدادين، منها ثلاثة مزروعة وأربعة بور، مهجورة منذ حوالى قرن، عندما انخسفت الأرض إثر زلزلة مهولة أظلمت بعدها السماء ثلاثة أيام متوالية وسقط ما يشبه البَرَد، ومكثت الأرض ترجف أربعين يوماً، بعد تلاشي الزلازل ظهرت حفرة مستديرة،

قطرها حوالى مترين، تشبه بئر الساقية ولكن قرارها غير باد، كما لا يلوح فيها ماء.

صاحب الأرض وقتئذٍ رجل محبوب، حتى وقت قريب كان يوجد من يذكره ويصفه كأنه قائم أمامه، كان مهيبا، راسخاً، عنده جلد وصبر ونبوءة، اتخذ احتياطات عدة لا شك أنها أنقذت كثيرين كان يمكن أن يختفوا إلى الأبد، بعد أحاط الفوهة بالجريد، كان عمقها مثار أقاويل وخيالات شتى، أحضر جذع نخلة ذكر. فلقه إلى نصفين، تعاون مع ولديه على حمل أحدهما ورماه في الفتحة حتى يتبين عمقها، وإلى أي حد تغور في الأرض؟

هوى الفلق، أصغى جيداً، لكنه لم يسمع صوت ينبيء بارتطامه، استقراره على قاع، كأنه تبخر. التفت إلى ابنه الأكبر، قال إنه لم يعد لهم مقام هنا، ثم التفت إلى ولده الأصغر، قال إنه لا مفر من مفارقة المكان.

إلى أين؟

عبثاً كل الجهود التي بذلها الجيران والأقارب معه، رفض أن ينبئهم بوجهته، لم يفض إلى أسرته بمقصده. بدا وهو يحثّهم على لملمة أغراضهم وحاجاتهم كأنه يتأهب للفرار من خطر قادم، محدق.

عندما ولّى وجهه صوب الجنوب كان يبكي، كذا امرأته وأولاده الذين لم يكن بوسعهم إلاّ طاعته. مع خروجهم من دائرة الرؤية، انقطعت أخبارهم. ذوى أثرهم، لم يبلغ أي من الجيران ولو قبساً من سيرتهم، كأن الأرض انشقت وبلعتهم، مع انقضاء السنوات على غيابهم لم يقرب إنسان الغيط. ولم يحاول زراعته.

أربعة فدادين ليست بالمساحة الضئيلة في ريف تقاس أرضه بالشبر والذراع. ويقتتل القوم من أجل بضعة سنتيمترات، ظلت

تلك الثغرة المفتوحة مصدر رهبة، ومع الزمن توارث القوم الخشية منها، ومن المؤكد أنها سبب رئيسي، وربما وحيد لعدم الاقتراب من الأرض، وامتناع أي إنسان من أهالي الناحية عن تقليب التربة.

تناقلت المخاوف من جيل إلى آخر، يتطلع الجميع ناحيتها بخشية، كأن قوة ما لا يدرون مصدرها أو كنهها سوف تنقضّ عليهم لتدفعهم إلى المجهول، لو زلت قدم أحدهم، لو ضلّ أحدهم طريقه إليها عند عودته ليلاً لابتلعه العدم!

نبتت حشائش غريبة، تحجّرت أجزاء من التربة، تشققت مساحات أخرى. حاد الناس عن الخطو فوقها حتى في ذروة النهار. عندما جاء المؤسس قصد شراء الأفدنة الثلاثة العامرة، دفع ثمنها نقداً. لم يتجاوز سعر الفدان الواحد مائة جنيه بمقاييس الوقت. ثمن جد بخس بمعدلات الأزمنة التالية.

لكن .. هل كان يعلم مسبقاً بأمر الثغرة؟

يؤكد المعمرون الذين شهدوا قدومه بنظرات حزينة وملامح كمدة أنه عند وصوله للمعاينة اتجه مباشرة رغم تحذيرات الجميع، أطلّ على الفتحة التي لم تفقد استدارتها. أصابع يديه تتلامس وراء ظهره. ثم أمسك حجراً مستديراً، ألقاه بقوة، أصغى، إعتدل واقفاً. هزّ رأسه مرتين. تراجع متمهلاً على مرأى من القوم الذين لم يخفوا دهشتهم، وإن كتموا ضيقهم، ذلك أن مجيء غريب لا يعرفون عنه شيئاً لامتلاك أرض في الناحية التي ولدوا فيها أباً عن جد، أمر لا يثير الاطمئنان أبداً، ألا يقال دائماً: الجار قبل الدار؟

ما البال إذن والقادم الجديد غريب تماماً. ثوبه ليس من ثوبهم وأمره مختلف عنهم، بل إنه ينتمي إلى سادة المدن الذين يتطلعون إليهم دائماً بريبة.

لم يمض إلاّ أسبوع واحد فقط، وبدأ توافد المهندسين والملاحظين والعمال، الغريب.. إنهم قصدوا الأرض البور، المهملة التي لم يشترها المؤسس، لسبب بسيط،أنه ما من مالك لها، بعد هجاج صاحبها صارت مشاعاً لكنها لا تطرق، مهجورة بسبب هذه الفوهة المؤدية إلى اللاقرار.

سرعان ما ظهر سوران من حجارة بيضاء مصقولة قيل إنها جلبت خصيصاً من محاجر تقع قرب العلمين في الصحراء الغربية، لها خصائص يعرفها البناؤون ورجال المقاولة.

السور الأول دائري يحيط تماماً بالفوهة، يرتفع إلى ما يوازي صدر رجل بالغ، متوسط القامة، ورغم ذلك سقط في البئر السحيق أول عامل من الغرباء، وأصله من الواحات البعيدة، الداخلة، وما زاال الورثة من أحفاده يتقاضون معاشاً شهرياً من أموال المؤسسة، رغم أنه كان يتبع مقاولاً صعيدياً مقيماً بالإسكندرية اقتصر عمله على بناء السورين وتمهيد الأرض والطرق المؤدية لاستقبال معدات بناء حديثة لم تستخدم من قبل في مصر حتى ذلك الوقت، منها خلاط الإسمنت الآلي، والونش الرافع ذاتي الحركة، ومولدات الكهرباء.

لم يتوقف صرف المعاش طبقاً لوصية المؤسس التي احترمها المسؤولون عن الإدارة حتى في زمن التأميم الذي يعتبره البعض بداية الحقبة الشيوعية أو كما يصفه آخرون بالعصر الشمولي.

السور الثاني أحاطَ الفدادين السبعة كلها. بدا واضحاً أن الرجل القوي القادم من المدينة وضع يده على المساحة كلها، ردّد خصومه فيما بعد أنه لم يدفع مليماً مقابل الأرض المهجورة، لكن المخلصين من القدامى يؤكدون أن هذا غير صحيح، وأن ما جرى في الواقع مختلف تماماً عما قيل وما حاطته الجهات المعادية ومنها أجهزة

معينة في الدولة، ويشيرون إلى اجتماع سيادته بكل المعمرين من أبناء الناحية، ملاك ومستأجري الأرض، وخلوته بهم، ثم إظهارهم الابتهاج، وإصرارهم على ذبح عجل بتلو تحيّة له وأوز وبط وحمام، كل بيت قدم ما يمكنه، قعد فوق الأرض وأكل معهم، وشرب الشاي، ثم أدى صلاة العصر. بعدها صحبوه حتى عربته السوداء التي انتظرت عند بداية الطريق الممهد، صحيح أنه ما من واحد يوجد منهم الآن للتأكد. أو الاستفسار. لا من أولئك الذين حضروا لقاء المؤسس ولا من ذريتهم، لا وجود للأراضي المزروعة نفسها، خلال عشرين عاماً فقط انتشر البناء، وبعد عشر سنوات أخرى قامت حول المكان أحياء جديدة عدّت من مناطق القاهرة الحديثة. ومنها المهندسون، والصحفيون، والدقي الذي لم يكن يوجد به إلاّ مبنى وزارة الزراعة، وهذا يثبت بُعد نظر المؤسس. ونفاذ رؤيته. وفساد ما تردد عنه في البداية.

عندما بدأت أعمال التمهيد والحفر، لم يتخيل إنسان، حتى من أولئك الذين خبروا التربة وعرفوها أن عمقها سيصل إلى هذا الحد، أكثر من أربعة عشر متراً والطين الأسود الرخو ينز خصوبة وثراء، تراكم طمي النهر القريب منذ آلاف السنين، أثناء الحفر عثروا على بقايا قارب عتيق كأن الصانع فرغ منه بالأمس، طرازه غير مألوف ولا يعرف مثله، أهداه المؤسس إلى مصلحة الآثار التي شكلت لجنة علمية ناقشت ودرست وصاغت تقريراً نشر ملخص له في الجريدة المحلية الناطقة بالإنكليزية. أكد أن وجود القارب يدل على مجرى النيل القديم، كما أن النقوش المحفورة عليه تلقي أضواء جديدة على العصر الصاوي، عُرض القارب في المتحف المصري داخل صوان زجاجي، أرضيته من مرآة مصقولة بلجيكية الصنع، ظل القارب سليماً حتى منتصف الستينات عندما وقعت المحنة الكبرى التي

أطاحت بالأسس، في الوقت نفسه بدأت الصحف تنشر أخباراً مقتضبة عن تلف حبال الليف المجدولة التي تشد أخشاب القارب، وتحللها السريع، مما دعا إدارة المتحف إلى مخاطبة وزير الثقافة لإصدار بيان عالمي يناشد الهيئات والعلماء المتخصصين المبادرة لإنقاذ هذا الأثر النفيس، يبدو أن الفطر الغامض الذي تم رصده نال من مقتنيات أخرى أهم بكثير منها مومياء رمسيس الثاني التي حار في علاجها العلماء حتى وقت تدوين هذه الصفحات.

شخص واحد ربط بين إقصاء سيادته عن المؤسسة وظهور هذا الفطر، إنه الجواهري أقدم وأخلص العاملين. بل إنه أرجع الكوارث والمحن كافة التي لحقت الخاص والعام إلى هذا السبب.

في المكتب المركزي الذي تعاقب عليه رؤساء عديدون بالطابق الأخير من البناية الأولى، يستقر جزء صغير من خشب الدفة داخل مثلث زجاجي شفاف جداً، يشبه ذلك المستطيل الذي يضم قطعة من صخور القمر، المعروضة في مدخل إحدى بنايات الأمم المتحدة بالمقر الأوروبي. يؤكد بعض خبراء التحف أن صانعها واحد، ولكن المثلث أعد قبل المستطيل بسنوات عديدة.

غير أن موضوع القارب أكثر غموضاً وتعقيداً مما هو مدوّن على تلك اللوحة الصغيرة المثبتة عند مدخل غرفة العرض. أو في المراجع الرسمية لهيئة الآثار، وما تحويه سطور دائرة المعارف الفرعونية المطبوعة بالتعاون مع المتحف البريطاني.

الأمر ليس بهذه السهولة إذا أخذنا في عين الاعتبارما يتردد في المؤسسة، بداية.. هل كان سيادته على علم بوجوده؟

هل وقف على دلائل أو إشارات؟

الحق .. ما من إجابة قاطعة، لكن ثمة أقاويل تتردد، طبعاً..

القارب ليس محورها تماماً، ولا أخشابه النادرة، ولا النقوش الدقيقة ذات القيمة العلمية، لكن الاهتمام كله بحمولته النادرة التي يبدو أنها غرقت معه في الماضي السحيق، البعض حددها بدقة، عشر أوانٍ فخارية تحوي عملات ذهبية عتيقة، يبدو أنها حوت خراج بلاد النوبة، أو الوجه القبلي، كانت مقدمة القارب متجهة إلى الشمال، ولكن يبدو أن بعض النقوش يوضح ذلك.

يقول آخرون إن سيادته إطلع على إشارات معينة في بردية كانت محفوظة في متحف المتروبوليتان أثناء دراسته في جامعة كولومبيا، عشق الآثار وعلم الحفريات رغم أن كلية الاقتصاد التي التحق بها كانت بعيدة عن ذلك تماماً.

بعد إقامة السور حول الأفدنة السبعة وإحاطتها، بدأت عملية تجريف استمرت سنة بأكملها، لم يتخللها يوم إجازة واحد. حتى بدت الصخور الأرضية الوعرة عند عمق كبير تفاوت من فدان إلى آخر، بيعت كميات طمي هائلة بعد أن تم نزحها إلى قمائن الطوب المنتشرة جنوب العاصمة وشمالها، ويؤكد العارفون أن معظم العمارات الحديثة التي شيّدت في الأربعينات وبداية الخمسينات كانت من هذا الطوب.

هل تمت عملية التجريف تلك بهدف بيع الطمى الكثيف الذي جنى منه أموالاً تجاوزت ما دفعه في الأرض عينها عدة مرات مما شجّع آخرين على ذلك، ولم يوقفهم صدور قوانين أو قرارات، أم للوصول إلى القارب الذي ظهر بعد حوالى ستة شهور من العمل، وحضر سيادته بنفسه استخراجه. وقام بفحصه ودخوله والانحناء على كل جزء فيه، ولم يبلغ مصلحة الآثار إلاّ بعد مرور ثلاثة أيام أمضاها كلها مقيماً على مقربة من الحفرة اللانهائية؟

رغم صدور عدة كتب عن تاريخ المؤسسة، يتردد أنه كتب

بعضها بنفسه وأصدرها بأسماء مؤرخ معروف، وباحث اجتماعي، وأستاذ جامعي، دفع لهم بسخاء، إلاّ أن هذه المؤلفات لم تمحُ إلاّ سطوراً معدودات عن القارب، ولكن ما من كلمة واحدة عن الذهب، عن الكنز.

أشار سيادته في كلماته التي ألقاها في المناسبات المختلفة إلى اكتشافه القارب، وحرصه على إخراجه سليماً وحضور رجال الآثار ومدير متحف الفن الإسلامي، كان فرنسياً في ذلك الوقت، رغب مشاهدة القارب رغم أنه أثر فرعوني.

يبدو أنه كان يردّ ضمناً على إشاعات أو أقاويل تناولت أواني الذهب، غير أن بعضاً من قدامى العاملين يؤكدون أنه لولا هذا الكنز لما ارتفع المقر عشرة طوابق في زمن كانت أعلى بناية في القاهرة كلها لا تتجاوز الستة أو السبعة. جاء تحفة هندسية، بتصميمه الذي يشبه هلالاً تتوسطه نجمة مخمسّة، هكذا يبدو لهواة الطيران الشراعي، ولطلبة مدرسة الطيران إذ يحلقون فوقه أو حوله بعد إنطلاقهم من مطار امبابة.

كل شيء أعدّ بدقة، حتى أن مصاعده الثلاثة لم تتوقف بسبب أي عطل فني لمدة أربعين سنة. أما النظام الخاص بالمياه والصرف الصحي قبل مد الشبكات العمومية إلى هذه الناحية فهو ممّا يعد إنجازاً علمياً بمقاييس الوقت، ومازال يدرّس في كلية هندسة القاهرة.

فاض الكنز عن حاجة المؤسسة، واستخدم جزءاً منه في دعم رأسمال الشركات التابعة بعد تأسيسها، وخلال الأزمة الاقتصادية الكبرى في الخمسينات.

عندما صدرت القرارات الاشتراكية وبادر إلى إشهار ولائه من

خلال إعلان مدفوع، وتصريحات صيغت فيها بعناية، وبرقيات مطوّلة، بدأ عملية تهريب الكنز إلى الخارج وتمكن من نقله وإيداعه في بنك يقع في مواجهة القاعة التي عقد فيها المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل.

إتفق مع إدارة البنك على ألا يتم التصرف في أي جزء إلاّ من خلال اتصال هاتفي يجريه هو شخصياً، ومن خلال بصمة صوته الخاصة.

هذه البصمة فقدها تماماً بعد إصابة حنجرته بالمرض الخبيث، هكذا أضاع الكنز، وبدّد ثروة كان يمكن أن تدفع اقتصاد البلد، وخطة التنمية الأولى.

يؤكد كارهوه أنه هرّب الذهب لحظة اكتشافه المرض، وأنه كان على علم بقرب محو معالم صوته، ولم يكن مثل ذلك معهوداً في البنوك، بل إنه أول من استخدم ذلك، كان هدفه الحقيقي حرمان النظام السياسي من الذهب، خشية اكتشافه بعد رحيله. لو ظل هذا الذهب لاعتبر سنداً متيناً للاقتصاد القومي، خاصة بعد نزيف حرب اليمن، وهزيمة حزيران/ يونيو، أما تأييده العلني المستمر فلم يكن إلاّ غطاء متقناً لكراهية النظام. بل.. للبلاد، ليس ذلك فقط، إنما لعب دوراً تخريبياً، وأنه ما زال مؤثراً، كما أنه أخفى قبل وفاته وثائق خطيرة، هامّة جداً، تتضمن خرائط دقيقة لمواقع حقول النفط في الصحراء الغربية، لو تمّ التوصل إليها لأصبحت مصر من أغنى دول المنطقة، لكن هناك قوى عالمية حريصة على إبقائها ضعيفة.

المؤسس يخفي هذه الوثائق، وربما ما تبقّى من الكنز، وليس ما يتردد حول البنك السويسري إلاّ تمويهاً متقناً، يخبىء هذا كله في تلك الحفرة الدائرية التي لا توجد جهة في مصر تعرف عمقها

الحقيقي. حتى أن العلماء الذين وفدوا بناء على طلب الدولة من بلاد مختلفة، عجزوا بخبرتهم وعلمهم، وأجهزتهم الحساسة تحديد المسافة، أكدوا أن العمق لا يقل عن أربعين كيلومتراً، وأنه يفضي مباشرة إلى الجزء المنصهر من جوف الأرض.

عندما تمّ تصميم البناء، طلب سيادته أن يكون المبنى محيطاً بالفتحة إلاّ من جهة واحدة، كان الهلال أنسب الأشكال الممكنة، الموفية بالغرض، لذلك يشير البعض إلى الفوهة قائلين إن رخاء مصر يكمن هنا، لكن.. كيف الوسيلة؟ غير أن أخلص المعاونين، ومعظم رجال المؤسسة، وقطاعاً عريضاً من المتعاملين، معها لهم رأي آخر.

أبرزهم وأهمهم الجواهري، يقول بحسم إن مثل هذه الأقاويل وجدت طريقاً إلى بعض الصحف والمجلات بعد انتهاء المرحلة الشيوعية.

حكاية زلع الذهب لا أساس لها، مجرد أوهام مريضة، هذه المؤسسة العريقة بنيت من عرق سيادته وكدّ العاملين الأوائل الذين قدّموا ما استطاعوا لنجاح العمل، لم يظهر هذا البناء كله بضربة حظ.

مع الزمن ثبت صفاء رؤيته وبعد نظره، عندما اشترى هذه الأرض لم يفكر أي إنسان في المجيء وشراء قيراط واحد لبناء منزل من طابق واحد. كان الغرباء يخشون المرور في دروب الناحية نهاراً، خاصة بعد العصر، إن لم يكن خوفاً من الكلاب المسعورة أو الثعالب والقطط البرية، فتحاشياً لقطاع الطرق وعتاة المجرمين الذين يتحركون عند الأطراف. سيادته.. قطع دابرهم وأراح أهل الناحية منهم، أقدم وشيّد بناية ارتفعت سنة بعد أخرى، ليست مجرد طوابق، إنما مقر ضخم، يحوي مطاعم ومطابع وكراجات وآلات تعبئة، وأخرى للتغليف، ومخازن عامة وأخرى متخصصة، ألم

تضم المؤسسة المخزن الوحيد في الشرق، وقارة أفريقيا كلها لبنج الأسنان، هل هناك أبعد نظراً من ذلك؟ هل هناك دولة تدرك قيمة العمل، والموهبة مثل اليابان؟ إذن.. لنصغ إلى ما جرى.

حدث أن شاعراً معروفاً كان يلقي محاضرات عن المتنبي في الجامعة الأميركية بداية الخمسينات، فوجيء بوجود شاب ياباني بين الطلبة، يقرأ العربية جيداً، لكنه يتحدّثها بصعوبة، دهش، لكنه رحّب به، بل دعاه إلى بيته، نشأت بينهما مودة، وفي ليلة بدا فيها الياباني رقيقاً، فياضاً بالحنين، قال للشاعر إنه بدأ دراسة العربية في أوزاكا. وجاء ليتقن شعر المتنبي ويفهم أسراره ويحفظ أجمله، من أجل شخص واحد، شخص يتمتع بذكاء وقّاد، وعلم غزير، اهتموا به في اليابان اهتماماً كبيراً، وعندما تأكدوا أن المدخل إليه حفظ أشعار المتنبي وترديدها، وتفسير رموزها وغوامضها، أوفدوه إلى مصر، وفّروا له منحة سخية.

لم يصرح الشاب الياباني باسم من جاء إلى مصر سعياً إليه، لكن الجواهري يبتسم عند هذا الحد، يبرز عدداً من الصور، بعضها منشور في المجلات الأسبوعية والصحف اليومية..

من هذا؟

من الذي يجلس في مواجهة سيادته؟

إنه الياباني، ها هو يقرأ من الذاكرة أشعار المتنبي.

ها هو يعرض عليه أول ترجمة إلى اليابانية.

هل تمّ ذلك بسبب اهتمام اليابانيين بالمتنبي؟

طبعاً لا ..

كانوا يريدون التوصل إلى معلومات معينة لديه تتعلق بشفرات

الكترونية قدم سيادته بحثاً عنها إلى أحد المؤتمرات العلمية التي عقدت بمقاطعة بافاريا الألمانية، لكن.. هل أعطاهم ما يريدون؟

لم يقدّم إليهم إلاّ ما سمح به، واعتبر ذلك تجاوباً كبيراً منه لأجل عيون أبي الطيب!

كان يلاعبهم. إذ يعرضون عليه آلة تصوير جديدة أو حاسباً أو مطبعة، أو آلات قياس، يُبدي بعض الملاحظات التي تلوح عابرة، لكنها تثير اهتمامهم، يسارعون بدراستها، بتطبيقها، اسمه يتردد في معاهدهم الفنية، ومراكز البحث من طوكيو إلى أوزاكا.

مثل هذا الرجل، هل ينسب جهده هذا إلى الصدفة؟

يقول الجواهري: انظروا إلى المقر ..

أول بناية في المنطقة، على الرغم من انتشار العمران وظهور أحياء كاملة حولها سرعان ما ظهرت المنشآت العمرانية والفنادق الشاهقة والمعارض والمقاهي والأندية، إلاّ أن المقر ظل أرسخها وأعرقها وأمتنها، هذا ما يلاحظه الغريب والقريب، بعد وقوع الزلزلة القوية التي رجّت مصر كلها رجّاً، خاصة القاهرة وما حولها، ترددت أقاويل حول البناية، خاصة بعد ظهور تصدعات غير هينة في بعض مباني المؤسسة الحديثة.

استدعى رئيس مجلس الإدارة الحالي لجنة من أساتذة الإنشاءات والخرسانة والتصميمات المعمارية، جاء معهم خبير هولندي مهتم، فوجئوا جميعاً..

المبنى مشيَّد على أساس مقاومة الزلازل بنوعيها، الرأسي، والأفقي، حتى عشر درجات من مقياس ريختر، علماً أن أقوى زلزلة عرفها الكوكب الأرضي لم تتجاوز الثمانية وسبعة من عشرة، وهذا معروف، مدوّن.

أي بعد نظر؟

أي مدى وصل إليه حسن تقديره؟

لم تعرف مصر مثل هذه الكوارث الطبيعية إلاّ نادراً، وعلى مسافات زمنية متباعدة، لم يفكر أحد في مقاومتها لندرتها لكنه لم يترك ثغرة إلاّ سدّها، ما من احتمال إلاّ درس جوانبه، أبدى الخبير الهولندي إعجابه برسوخ الأساس ومتانة البنيان، خاصة المأوى العميق، الذي يعتبر مخبئاً مثالياً بحق، إذ صمم بحيث يقاوم أعتى عبوات القنابل حتى العنقودية الحفّارة منها، كما يمكن سد منافذه عند استخدام القنابل الكيماوية.

أي بعد نظر؟

صحيح أنهم وقفوا حائرين أمام الفوهة، لماذا اختار هذه المساحة لإقامة المقر حولها، إلى أين تؤدي؟ كم يبلغ عمقها؟

ما من أجوبة شافية، وافية، يؤكد الجواهري أن يوماً ما سوف يأتي ويكتشف الناس حكمة سيادته، لا بد أن سبباً كامناً لم يفصح عنه جعله يقيم البناية حول الفوهة التي لا يقربها إلاّ كل ذي قلب شديد.

كتب أحدهم يقول: إن ظهور المقر أدى إلى خراب الناحية، وضياع أخصب أراضٍ زراعية تقع قرب القاهرة، وتمدها بأنواع الخضروات والفاكهة، وتنقي الجو، كان ذلك فاتحة دمار الرقعة الزراعية المحيطة بالمدينة.

لم يلزم الجواهري الصمت، أرسل مقالات إلى صفحات الرأي، يقول فيها إن دق أساسات البناية كان أول العمران، لماذا يقصرون اعتراضهم على تلك الناحية، ماذا عن شارع الهرم؟ ألم تحفه أراض خضراء خصبة، ألم يكن الواقف عند شاطىء النيل يمكنه رؤية

الأهرام بوضوح، بدون حاجز؟ حتى جاء محرم باشا وبنى قصراً على الطراز الفرعوني، بعده قامت القصور والعمارات، بل والمساكن العشوائية، اكتظ الخلاء بالبنايات المتنافرة القبيحة التي حجبت أعظم آثار العالم عن الرؤية، وتسببت المياه الجوفية التي ارتفع منسوبها في مشاكل عديدة يعاني منها بشكل واضح تمثال أبي الهول.

لماذا لا يذكرون محرم باشا أول من أقام بناية؟ لماذا يذكرون المؤسس بمناسبة وبدون مناسبة؟ يغمزون ويلمزون ويتباكون على الأراضي الزراعية التي راحت واختفت؟

ثم .. من قال إنه - رحمه الله - لم ينتبه إلى الأراضي الصحراوية؟ ألم يقدم على شراء مساحات كبيرة عند أطراف القاهرة، اشترى فدان الأرض بقرش صاغ شرق العباسية، سخر الناس منه، أكثر مما أبدوه عند اقتنائه أفدنة امبابة السبعة، قالوا إنه يهوى رمي نقوده في الخلاء، لم يفكر أحدهم قط في البارون أمبان الذي أنشأ ضاحية مصر الجديدة، رفض الناس الإقامة بها في البداية حتى أن الشركة الأجنبية لجأت إلى مغريات عدة، منها إقامة مدينة ملاهٍ كاملة، وركوب الترام الأبيض بالمجان، والإيجار الزهيد، أين ذلك من مصر الجديدة التي أوشكت على الاقتراب من مشارف الإسماعيلية، عندئذٍ كثرت الإشادة بالبارون امبان.

أواخر الخمسينات بدأ التخطيط لإقامة مدينة نصر بإيعاز منه، نعم.. من سيادته، هو من أوحى إلى الزعيم عبد الناصر بالفكرة، أهدى إلى الحكومة جزءاً من أراضيه المسجلة باسمه، لكنه باع ما تبقى بأموال طائلة أنقذت المؤسسة كلها من أزمة السيولة التي تعرضت لها قبل اعتقاله بعامين.

ألم يقدم في الثلاثينات على تنظيم رحلات إلى البحر الأسود،

عرض شراء بعض الجزر المهجورة، وإقامة فندق في سفاجة، لكن سلاح الحدود اعترض في ذلك الوقت.

انظروا إلى البحر الأحمر الآن. إنه مركز النهضة السياحية، تتجاور فنادقه، يقصدها الأجانب بالطائرات مباشرة، المؤسسة أول من تعاقد على إحضار أفواج الفرنسيين، والألمان، والطليان. وحتى الآن لم ينفذ مشروعه الخاص ببناء فنادق صحراوية في منطقة شرق العوينات، هو الذي لفت أنظار الشركات الباحثة عن البترول في الصحراء الغربية إلى وجود بحيرات جوفية هائلة من المياه العذبة، لا يعرف مداها إلاّ الله!

لولا إقدامه وذكائه لما تعددت الأنشطة وتنوّعت، بدءاً من صناعة أوراق التغليف التي أولاها عناية خاصة، لطالما ردد أن رقي الأمم وتقدمها مرتبطان بأساليب التغليف وأنواع الخامات المستخدمة، بدءاً من لف الأطعمة وحتى المجوهرات، هناك وحدات الانتاج الإذاعي والتلفزيوني ومن قبلها السينمائي واستيراد السيارات، ومصانع الرخام، ومحطات تحلية مياه البحر، وسلسلة المطاعم الشهيرة، والبنوك والإعلانات بمجالاتها المختلفة، وصيد الأسماك، وشراء مخلّفات السفن وحطام الطائرات، والسيارات القديمة، وتجفيف البلح وشباك الصيد ومضارب الأرز، وتصدير الفاكهة والزهور. المؤسسة تنافس هولنده الآن في أسواق العالم، إلى تصنيع قطع غيار القاطرات العاملة بالديزل، والسفن، مما يوفر أموالاً طائلة من العملة الصعبة.. وغير ذلك كثير الآن، مما يصعب الإحاطة به كله.

يؤكد الجواهري أن كنزه الحقيقي كان عقله ومواهبه، غير أنه أبدى أكثر من مرة تحفظاً على استخراج القارب القديم، يرى أنه من الأفضل لو تُرك مطموراً، مخفياً، هذا ما يراه عم صديق النوبي

أخلص من عملوا مع المؤسس وعرفوه عن قرب. ثمة تعويذة معينة يصعب فكّ مغاليقها احتواها المركب، حمت الأرض وطرحت الخير في زرعها وحيواناتها، لم يكن ممكناً مقارنتها بأي منطقة أخرى، لو بقت لطال سرها المؤسسة، ولما جرى ما كدّر مسيرتها ولحق بالمؤسس.. بل والجواهري نفسه.

لن ينسى أبداً وجوه الفلاحين العاملين في تمهيدها وزراعتها منذ عصور بعيدة، وقفوا يذرفون دمعاً صامتاً عند استخراج الخشب القديم، ولحظة نقله إلى عربة معدة مجهّزة، ذرف الرجال دمعاً. وأطلقت النساء أصواتاً ممدودة غامضة، مصدرها الحناجر والصدور؟

لا أحد يدري .. لكنها بدت نذير شؤم، مثل هذا لم يحدث على امتداد الوادي إلاّ مرة واحدة في نهاية القرن الماضي، أثناء نقل خبيئة وادي الملوك ـ مومياءات الفراعنة الأقدمين ـ من مراقدها إلى السفن النهرية لعرضها على الخلق في المتحف.. يومها انتظم أهالي طيبة في صفوف جنائزية طويلة، خرجوا مودّعين دامعين ينشدون المراثي وكأنهم يودّعون أحباباً أعزّة على قلوبهم رحلوا للتو وليس من آلاف السنين!

سمع الجواهري بأذنيه عجوزاً يقول محذراً لحظة اكتمال ظهور القارب: إن زمن الخير انتهى، ارتفع نشيج، لم يدر الغرباء العاملون في تجريف الأرض، أو إعدادها للبناء، هل ينوح القوم حقاً على الأخشاب العتيقة أو على التربة الخصبة التي تجرّد من طميها وخصبها ولن تنبت عيداناً خضراء، أم على أنفسهم وما ينتظرهم من مصير؟!

سرعان ما يتوقف الجواهري عن الاسترسال. يتدارك أمره قائلاً إن الخير جاء مع المؤسسة، ولو أن العمر امتدّ بصاحبها ورجلها

الأول، لو سارت الأمور كما تمنى، كما ينبغي، لولا المحن والدسائس، لولا ما تعرض له، لو أخذوا بما نصح به، لأصبحت البلاد مثل النمور الآسيوية الأربعة، لما تراكمت الديون، لما وقعت الزيادة السكانية.

كان جريئاً، مقداماً، غير هياب في اقتحام المشاريع، وتوطيد الصلات، لولاه لما بلغت العلاقات مع الدول الإسكندنافية ما وصلت إليه. أما ما قام به خلفاؤه من توطيد الصلات مع جمهوريات الكومنولث الجديد، فلم يكن إلاّ نتاج علاقاته الأصلية بالاتحاد السوفياتي المنهار، هذا من آثار فطنته، وبعض مما تلقوه عنه، مع أن آخرهم، من يجلس مكانه الآن يبدي الجفوة في حقه، لا يحرص على ذكراه، ولا يتردد عن إلحاق الأذى بأقرب الناس، أخلصهم، من تنضح جدران المقر الأصلي بتعبهم وكدهم وعرقهم..

الطابق الرئاسي..

.. حتى الآن، لم يكشف أحد من أقارب المؤسس، أو من أتباعه المخلصين أي تفاصيل عن مضمون وصيته المحفوظة في مكان ما من المقر الأصلي، يتوارثه من يتعاقبون على إدارتها لكنهم لا يعلنون عنه، غير أن أمرين شائعين لا يختلف عليهما أحد ولم يكذبهما إنسان.

أولهما.. أن تدار المؤسسة من الطابق الثاني عشر حتى اندثار المبنى تماماً، الثاني.. تخصيص فرقة موسيقية، أفرادها من متقني التراث القديم، لعزف بشرف سماعي رصد للموسيقار الراحل محمد القصبجي، وإنشاد موشح قديم، تأليف الوزير الأندلسي لسان الدين بن الخطيب، يقول مطلعه:

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همى

يا زمان الوصل بالأندلس

لم يكن وصلُك إلاّ حُلُما

في الكرى أو خلسة المختلِس

والحق .. أن الجميع التزموا، بل حرصوا على تنفيذ ما جاء

بالوصية خصوصاً أن سيادته أوقف بعض أملاكه الخاصة التي لم تصادر خلال حركة التأميمات الكبرى، أو المرحلة الكابوسية كما يطلق عليها المخلصون، ومن هذه الأوقاف قطعة أرض بالوادي الجديد، ومناحل عسل بالعامرية، وجزيرة صغيرة في بحر إيجه، اشتراها خلال الأربعينات في ظروف لم تعرف بالدقة، وبنى فيها منزلاً جميلاً يدار الآن كفندق لأثرياء العالم، زاره عم صديق الذي لم يفارق سيادته قط في جميع رحلاته إلى الخارج، كان يعد فنجان القهوة الصباحي، وآخر مسائياً، بطريقة معينة، ومن تحويجة خاصة لم يتقنها غيره، يمتزج فيها البن بأعشاب أرضية نادرة، بعضها ينبت في السودان والآخر في الهند، أو الصومال، وسواحل أفريقيا الشرقية، كان عم صديق حلاّقه الخاص أيضاً، لذلك عُدَّ من أقرب الناس إليه، وأوفى الخلق الذين تعاملوا معه، لا ينافسه إلاّ الجواهري والأبله الصامت.

رغم الاختلاف في الخطط والسياسات، رغم التصرفات التي توحي بالجحود ونكران الجميل، فثمة أمور لم تمسّ، ولم يحاول أحد الإخلال بها حتى وإن انطوت النفوس على الرغبة في ذلك.

لم يتغير المقر القديم مع تعاقب رؤساء المؤسسة الذين بلغ عددهم خمسة حتى الآن، رغم أن كلاً منهم شيد بناية جديدة، هذا ما رصده كثيرون، عندما يتولى رئيس جديد يشرع على الفور في دراسة إقامة مبنى جديد، ولكن لم يتجاوز أي منها البناء الأصلي، ما زال يبدو وكأنه شيّد بالأمس، جدرانه الخارجية نظيفة، مصقولة، رغم أنها لم تطلَ. من الداخل يهيمن الرسوخ وتلوح العافية في الممرات والحجرات والصالات. أما الطابق الثاني عشر فلا مثيل لهيبته، والرهبة التي يبعثها في نفوس من يصل إليه، أو يتجه إلى المكتب الرئاسي الدائري، أو قاعة التدخين الملحقة به، أو

المكتبة الخاصة، حتى حجرات السكرتارية والاتصالات المختلفة لها هيبة لا يمكن مضاهاتها إلاّ بالطابق الملكي في قصر عابدين. يبدو العالم الخارجي الذي يلوح من النوافذ العريضة بعيداً، نائياً، كأنه يمتُّ إلى كوكب آخر، أما رجع الأصوات فمختلف تماماً عن أي مكان آخر، هنا إحساس بالألفة والرهبة معاً، يعرفه كل من خطا عبر هذا الممر أو ولج تلك الحجرات. حار الكثيرون في وصفه، حتى أن بعض الشعراء حاولوا شعراً، ولكن لم يعبّر أحد بالضبط عن هذه الخاصية التي تضفي بعداً من القداسة على المكان، والرهبة أيضاً.

هذا الحضور الخفي غير متوفر في المباني الخمسة الأخرى التي تتوزع عليها إدارات المؤسسة، يرتفع المبنى الثالث المقام في قلب مدينة المهندسين والمطل مباشرة على جامعة الدول العربية أربعة وعشرين طابقاً، تم تزويده بتكييف مركزي ومصاعد الكترونية، وأجهزة إنذار متطورة لا يوجد مثيلها إلاّ في البنتاغون، لكنه لا يماثل أبداً المقر الأصلي. عندما اضطر بعض العاملين إلى الانتقال إليه تنفيذاً للأوامر الإدارية الصادرة بكوا دمعاً، بعضهم نشج بصوت مرتفع، ومنهم من أغمي عليه، المقر الأصلي عزيز على الجميع، له منزلة عند الجميع، صار المنقولون يختلقون الحجج لقضاء أي وقت ممكن بالمبنى الأصلي، اضطر الرئيس الثالث إلى إصدار أمر إداري علق في اللوحات الرئيسية ينبه بضرورة ملازمة كل لمكانه، ويمنع الزيارات غير الضرورية.

هذا البناء سرعان ما شاخ، بدا قديماً، متهالكاً، ورغم شركة التنظيف الخاصة التي تولت مسؤولية العناية به، إلاّ أنه لاح قذراً باستمرار، عكس المقر الأصلي الذي كان يمكن للإنسان أن يرى ملامحه في جدرانه وأرضياته لنظافتها وشدة صقلها، لم يكن يحتاج إلاّ لمجهود ضئيل يقوم به العاملون أنفسهم، المقار الفرعية

كافةً طالها الهمس الذي جرى وتردد عن عمليات غش جرت، ومؤن غير سليمة استخدمت، خاصة بعد سقوط أحد المصاعد الأربعة بركّابه من الطابق السابع، ولولا لطف الله ورحمته لضاعت أرواح بريئة. انتقد البعض إسناد تصميمه وتنفيذه إلى مكتب استشاري يديره ثلاثة أساتذة بالجامعة أحدهم ابن شقيقة رئيس الوزراء!

تساءل الجواهري غاضباً، كيف تغصّ المؤسسة بالخبراء في العمارة ثم تستعين ببعضهم من الخارج، هذا إذا توفرت لديهم الخبرة حقا؟ في زمن سيادته قامت المؤسسة بترميم مقبرة تاج محل، والقصر الملكي بكابول، ومدت خطوط المياه إلى الحرم المكي، أما بناياتها في العالم العربي فقائمة، شاهقة حتى الآن، بعد هذا كله تتم الاستعانة بالغرباء.

كيف .. هل يعقل هذا؟

يؤكد الجواهري أن عم صديق لو وضع التصميم لجاء أفضل.

عم صديق؟

نعم.. ألا ينسب إليه تصميم الطوابق الخفية تحت الأرض التي لم يدخلها إلاّ نفر محدود من العاملين على امتداد المؤسسة كله، خاصة القدامى، أما الجدد فيسمعون عنها فقط، مع توالي السنوات أصبحت هذه الطوابق لغزاً، بعيدة جداً رغم قربها، يتحدث عنها العاملون، كأنها تقع في بلد آخر، حتى أجهزة الدولة بدأت تنظر إليها بشك، باعتبارها سراً يخفي ما يخفي.

بعد وقوع المحنة جرى اعتقال عم صديق وتعذيبه ليفصح عن مسارب هذه الطوابق، ومداخلها، ومحتوياتها، لكنه لم ينطق قط، لم يبح، لم تجبره الصدمات الكهربائية، ولا قعوده مرغماً على

زجاجة مياه غازية مكسورة العنق، ولا نتف شعر عانته، شعرة، شعرة. وما زال يدرس أمره كحالة نادرة في معهد التدريب الخاص التابع للشرطة السرية.

عم صديق، كما يناديه الجميع ـ عدا الرئيس الحالي ـ نحيل، طويل القامة، بدأت علاقته بالمؤسس منذ طفولته، كان يعمل طباخاً في البيت الكبير، وتخصص في صنع نوع نادر من القطايف الشامية والمعروفة بالعصافيري، وإعداد فناجين القهوة بعد تجهيز البن بشكل معيَّن، وأمره مشهور بين محبي القهوة الذين زاروا مكتب المؤسس، ومنهم رؤساء دول الآن وملوك سابقون وقادة.

يقال إنه لعب دوراً في تربية المؤسس، لكن ربما كان ذلك من المبالغات، يستبعد الجواهري ذلك، عمره.. غير معروف بالضبط، لم تحرر له شهادة ميلاد، لكن.. بعد التحاقه نهائياً بالمؤسسة أحيل إلى لجنة طبية لتحديد عمره تقريباً أو على وجه الدقة حتى يمكن فتح ملف خدمته، كشف طبيب مختص على قلبه، وآخر على أوردته، وثالث على أسنانه، ورابع على أعصابه، وخامس على عظامه، قدروا عمره بعد مناقشة باللغة الإنكليزية، اثنين وثلاثين عاماً.

يؤكد الجواهري أن ذلك أقلّ من عمره الحقيقي بأربعين سنة على الأقل، وأنه سمع المؤسس بأذنيه يؤكد أن الحاج عباس حلمي الثاني خديوي مصر. استدعى عم صديق إلى قصر عابدين بعد توليه العرش مباشرة لإعداد القطايف العصافيري في المآدب الملكية.

على أي حال، لا يبدو الهرم على عم صديق، وحتى آخر يوم حلق فيه ذقن المؤسس على فراش المرض لم تهتز الموسى في يده، ولم يرتجف وش القهوة أثناء حمله الصينية إلى سيادته، توقف عن ذلك تماماً بعد سفر سيده للعلاج في مستشفى شيرنغ كروس

بلندن، وبعد إقلاع الطائرة ظل واقفاً شاخصاً إلى الاتجاه الذي قصدته سبع ساعات حتى إذا نزل الليل ارتاب فيه رجال الخدمة السرية بالمطار، وكانت مشكلة!

غير أن الأزمة الحقيقية وقعت قبل ذلك، عندما بدأت محنة المؤسس، وجاء ضابط متقاعد بقرار من القيادة السياسية ليدير هذه المنشآت كلها، ولم يكن اختيار الضابط صدفة أو باعتباره من أهل الثقة، ولكن القصد بدا واضحاً، لأن المؤسس وجّه إليه إهانة أمام عدد من كبار رجال الاقتصاد والأعمال، قال له: أسكت.. أنت لا تفهم!

لذلك اعتبر مجيئه صدمة للعاملين المخلصين، ولكن لم يجرؤ واحد منهم على النطق بكلمة، عدا ثلاثة، الجواهري، والأبله المرابط أمام المقر الأصلي، وعم صديق.

الجواهري قدّم طلباً للحصول على إجازة بدون مرتب، وعندما رفض، لم يتخلف عن الحضور يوماً، لكنه دخل في سلسلة متاعب صحية، استدعت إعفاءه من التوقيع بناء على توصية طبيب الأشعة الملونة.

الأبله اختفى تماماً من أمام المدخل، لزم الناحية الأخرى، بجوار الفوهة اللانهائية، كفَّ عن الانتفاض إذا لمس أحدهم طرف أذنه اليسرى كعادته، وإطلاق صرخته المروعة..

أما صديق فجرى معه ما جرى..

منذ اللحظة الأولى، بدا الرئيس المنتدب، الغريب عن المؤسسة، الذي لم يعرق من أجلها قط، بدا وكأن أحد أهدافه الرئيسية عم صديق. صباح أول أيامه، جلس مكان المؤسس، لكن.. على مقعد مختلف كما اتضح لاحقاً، حتى الآن.. لا يعرف أحد، ولا

الجواهري نفسه من أخفى الكرسي الشهير، ولا أين؟ بعد عودة سيادته إثر انتهاء المحنة الكبرى، أزاح عم صديق المقعد قليلاً إلى الوراء. قال على مسمع من الكبار الذين صحبوا سيادته حتى غرفته الخاصة:

«لم يسّمه أحد في غيابك..».

تطلع إلى عم صديق ممتنّاً، تلك النظرة النادرة، الوادعة، لم ينطق، إنما مد يده ملامساً كتف الرجل العجوز الذي انحنى متأثراً حتى خيّل للواقفين أنه على وشك أن يقبّل اليد الممدودة إليه لكنه لم يفعل!

نعود إلى ما كان من أمره مع الرئيس المنتدب، وقف على بعد من المكتب، لم يقترب منه كعادته، قال إنه اعتاد شرب القهوة على الريحة، وأنه يريد تقديمها إليه بعد دخوله مباشرة: مفهوم؟

أومأ عم صديق، خرج بهدوء بعد انحناءة هادئة؛ قديمة، إنه عارف تماماً بالأصول، مضى إلى الهاتف الداخلي، طلب من بوفيه الطابق الرابع فنجان قهوة على الريحة.

أين؟

في الطابق الأخير، الرئاسي..

حمل الفنجان بنفسه بعد أن تناوله على باب المكتب. صاح غاضباً، ملّوحاً بيده في وجه عم صديق..

«أريدك أنت أن تعدّه.. أنت بنفسك ...».

هنا تختلف الروايات، لا عم صديق ولا الرئيس المنتدب حكى، قال بعضهم إن عم صديق حدّق إليه طويلاً، تلك النظرة الصامتة، الباردة، النفاذة التي أرجفت العمال الصعايدة العتاة وأشاعت الرعب في نفوسهم والبرودة في أوصالهم أثناء متابعتهم البناء في

المقر الأصلي، يؤكد، هؤلاء إنه لم يفه حرفاً، ولكن سرعان ما انكمش الرئيس المنتدب، ورجاه أن يسامحه، أن ينسى ما جرى منه!

بعض العاملين في قطاع الإنشاءات السياحية ومقره المبنى الثالث أكدوا أن عم صديق انحنى على مهل مستنداً براحتيه إلى حافة المكتب، بنطق فصيح، متأن، واضح، قال:

«لا أنت ولا أسيادك».

وفي رواية أخرى أنه قال:

«تقطع يدي ولا أقدم إليك فنجان القهوة..».

ارتعد الرئيس المنتدب، بدا خائفاً، ربما سمع عن الأحجبة التي يعدُّها، والتعاويذ التي دسها في أساس المبنى، يؤكد الجميع أنها سبب متانة المقر الأصلي ورسوخه حتى الآن، لكنّ أصواتاً قليلة تهمس متسائلة:

«لماذا لم يعد حجاباً يشفي به سيده القديم؟».

المهم .. اختلفت الروايات، وتعددت الأقاويل، لكن الوحيد الذي ظل صامتاً، لم تهتز شفتيه بكلمة، هو عم صديق نفسه، لكن المؤكد أن المؤسس أحيط علماً بالتفاصيل كافة حتى تلك الغريبة، ومنها توسّل الرئيس المنتدب إلى عم صديق ذات نهار شتوي، كاد أن يقبّل يديه من أجل إعداد فنجان.. مجرد فنجان على الريحة، أن يصب القهوة بطريقته الفريدة التي لفتت أنظار الضيوف، خاصة العرب والأجانب، قالها صراحة إنه لن يشعر برئاسته الحقيقية إلاّ بعد رشفة، حسوة واحدة من البن المحوج، لكن.. عم صديق أبى، صار رفضه مثلاً وعبرة لكل العاملين، بل إعتبر البذرة الأولى التي أحالت أيام المنتدب إلى لون أسود من قرن الخروب.

طبعاً .. لم يجرؤ على استدعائه لحلاقة ذقنه، يعني ذلك تسليم

رقبته إلى موسى قاطعة، تمسك بها يد غير موثوقة، تلك الطقوس الصباحية المعتادة لم تمارس في حضور أي من الرؤساء الذين انحدروا حتى من صلب المؤسسة، وانتموا إلى سيادته تماماً.

الحلاقة أولاً، استخدام أدوات عتيقة، مذهبة، مرآة صغيرة بيضاوية، بلجيكية الصنع، فرشاة حلاقة من ذيل حصان عربي أصيل، ينتهي نسبه إلى الأبجر، أحد أشهر خيول العرب، صابون باريس لم ينقطع يوماً رغم حظر الاستيراد سنوات غير قليلة، وعطر من عنبر كشمير، لكم أحبه، وأستنشق عبيره بمتعة. كان محباً للهند، ولكن هنا تفصيل يطول!

كل أدوات الحلاقة محفوظة حتى الآن في متحف المؤسسة، حتى المشط العاجي الذي ما تزال شعيرات من رأس سيادته عالقة به، معروضة في متحف المؤسسة، كذا فناجين القهوة التي تحمل الحروف الأولى من اسمه، وفتّاحة الورق البللورية التي لم تكن تفارق أصابعه عند الحديث إلى ضيوفه، اعتبر عم صديق نفسه مسؤولاً عن تلك الأمانة في غيابه، والحق أنه أدى.

شهد الكثير، لم يفارق الأرض منذ بدء عمليات البناء، هو أول من نزل وتفحص أخشاب القارب بعد كشفه بلحظات، لذلك يؤكد الكارهون أنه يعرف مقدار الكنز وموضعه، هو من حمله بيده. لكن القدامى الأصلاء يسخرون من ذلك، كان العمال الصعايدة يرتعدون خوفاً عند ظهوره، هم المعروف عنهم شدة البأس، ما من حجر في البناء الأصلي إلاّ بعلمه.

على أية حال، ما زال المقر يبدو كأنه شيد بالأمس القريب، كأن عشرات السنين لم تمض عليه، جدرانه نظيفة، فيها متانة وجلوة، حتى الآن لم تُجرَ له عملية صيانة واحدة. إذا قورن بالمباني التي شيدها تلاميذ المؤسس يبدو أكثر شباباً، وأزهى، رغم قدمه.

صحيح.. أن المبنى الثاني يرتفع إلى عشرين طابقاً ومزوّد بتكييف مركزي، وأجهزة إنذار متطورة، وأبواب تفتح تلقائياً عند الاقتراب منها، لكنه لم يحتلَّ قط مكانة المقر الأصلي، لا مادياً ولا معنوياً. وليس سراً أن الدكتور ميلاد حنا استاذ العمارة المعروف نصح بإزالة أربعة طوابق منه، إذ إنها تشكل خطراً على الأساسات المدقوقة، لكن.. لم يحدث ذلك حتى الآن نتيجة تدخل أبناء الرئيس الثاني للمؤسسة، وكلهم رجال أعمال بارزون وذوو نفوذ الآن، لأنهم اعتبروا ذلك مساساً بذكرى والدهم.

وتأكيداً لما ردّده بعض العناصر المغرضة.

لن ينسى العاملون القدامى اضطرار بعضهم إلى مفارقة المقر، بكوا وذروا دمعاً سخياً، معظم العاملين في المؤسسة لا يتقبّل قرارات النقل بسهولة. ظل بعضهم يتردد بمناسبة وبدونها، مع أن مكاتبهم في المبنى الجديد أوسع وأفسح. أدى ذلك إلى بعض الارتباكات مما دفع الرئيس الثاني إلى إصدار أمر إداري علق في اللوحة المجاورة للمصعد التاريخي ينبه إلى ضرورة ملازمة العاملين لأماكنهم، والحد من الزيارات التي لا تتصل بمتطلبات العمل.

تعلّق أبناء المؤسسة، خاصة القدامى بالمبنى الأصلي، معروف، شائع، وأشار معظمهم إلى ذلك خلال البرامج الإعلامية التي أعدّت خلال السنوات الأخيرة عن الأنشطة المختلفة، سواء في محطات التليفزيون المحلية، أو.. العالمية.

لم يحدث ذلك قط بالنسبة للمباني الأخرى، بل كثر التشنيع على الثاني والثالث، شاخ كل منهما بسرعة. وكأنهما أقدم. بل ظهر شرخ طويل في الثاني. وبثّت وكالة رويتر خبراً مطوّلاً حوله. لكن المسؤولين ردوا ببيان نشر كإعلان مدفوع في الصفحات الأولى يندد بمحاولات بعض الجهات الأجنبية تشويه سمعة

المقاولين الوطنيين، ويؤكد أن تصميمات المبنى وفقاً لأحدث النظم العلمية، وأن التنفيذ جرى بأحدث الوسائل والمواد. غير أن الهمس داخل المؤسسة نفسها لم يتوقف. وتحدث البعض عن عمليات غش، وعمولات مرتفعة، ثم جاء سقوط أحد المصاعد الأربعة الحديثة ليزيد من حملات التشكيك، قال صديق النوبي إن لطف الله تدخل، لولاه لضاعت أرواح بريئة، ثم أشار إلى مصاعد «شندلر» العتيقة، الراسخة في المقر الأصلي، تعمل كالساعة السويسرية رغم أنه لم تجر لها عمليات صيانة منذ عشر سنوات. حقاً.. من كان يجرؤ على استخدام مؤن مغشوشة، ومخالفة المواصفات، في زمن المؤسس ـ رحمه الله ـ من؟

بعد كثرة القيل والقال، وبدء الهجوم على عمليات تمّ تنفيذها مؤخراً من خلال القطاعات التابعة في صحيفة ذات صلة بالتيارات الدينية المتشددة في إحدى البلاد العربية، أعلن الرئيس الثاني عن اتخاذ مقر بديل مزود بجميع أجهزة الاتصال الحديثة في المبنى الثاني الجديد، ليؤكد متانة البناء، وأكد أنه سيمضي فيه أوقاتاً أطول، وأنه يأمل في انتقال هذا التقليد إلى المباني الضخمة التابعة كافةً بحيث يخصص الطابق الثاني عشر كمقر رئاسي بديل تيمناً وعلامة.

عم صديق النوبي لم يخف عداءه ومخاوفه، وقيل إنه تنبأ بتدهور الأحوال، حتى يجيء يوم يتولى فيه مقاليد الأمور العاهرات، والقوّادون، ومن لا أصل لهم ولا فصل. كان مصدر غضبه وألمه تخصيص طوابق رئاسية أخرى بديلة، لا يعرف هو والقدامى المخلصون إلاّ طابقاً واحداً فقط. يصعب مقارنته بغيره، منه الهيبة والمشروعية. ومن لا يستقر فيه تماماً فكأنه لم يتولَّ ولم يبدأ.

استمرارية غير متوقعة

يُرجع الحاقدون، الموتورون، ومن بقلوبهم مرض، نجاح المؤسسة ورسوخها ونموها إلى الاستقرار الذي سادها حتى بداية السبعينات، أي فترة التأميم، يتعمّدون تجاهل جهود المؤسس ونبوغه، وانشائه هذا الصرح المهول من الصفر، حتى أصبح علامة دالة، ليس في مصر وحدها، ولكن.. في أماكن شتى من العالم..

بشكل عام، لا يختلف عليه اثنان، يمكن القول إن تاريخاً محدداً يفصل بين فترتين. إنه التأميم الذي جرى في بداية الستينات، الأولى منذ قيام المؤسسة وحتى صدور القرارات الشهيرة، والثانية منذ منتصف السبعينات، والتي وقع خلالها الإزدهار الكبير والتوسع المذهل وتلك سارية حتى الآن. للأسف لم يشهد المؤسس منها غير بدايتها، إذ سرعان ما قاسى محناً وآلاماً شديدة خلال مرضه الأخير تحمّلها كلها في جلد عجيب، أثار دهشة الأطباء المعالجين، سواء كانوا مصريين أو إنكليز أو أيرلنديين، بل إنه في ذروة آلامه لم يكفّ عن الغزل الرقيق وإثارة إعجاب الممرضات الحسناوات، حتى لحظات تعرّضه للأشعة الألكترونية والتي أحدثت بقعاً غامقة في وجنتيه وعنقه، حتى أن الجواهري لم

يتمالك نفسه وخرج باكياً، نائحاً على الرجل الذي لن تعرف البلاد مثيلاً له في زمن قريب، من كان ملء العيون والأسماع، لا تقوى أجمل الحسناوات على مقاومة نظراته، أو صد جرأته أو عدم الإذعان لكياسته، أمره معهن شائع، معروف، إنه من قلائل كان لهم صولات وجولات مع أميرات العهد الملكي، بعض مما عرفه معهن تحول إلى أفلام سينمائية عرضتها الخيالة كما يصرّ الجواهري على تسميتها حتى الآن، ذلك أنه شديد التمسك بقرارات المجمع اللغوي، يتابعها ويحفظها عن ظهر قلب، يأبى نطق كلمة «الساندويتش»، يقول: شاطر ومشطور وبينهما طازج، مما استدعى سخرية لم يجرؤ إلاّ عم صديق على البوح بها.

الجواهري مرجع لا يستهان به في ذلك رغم أنه ما من صلة تربطه بالواقع الأدبي، لم يعرف عنه إلاّ قدرته على القراءة، واقتناؤه النادر من الكتب والمخطوطات. عرف المؤسس ذلك فشجّعه، خصّه بعلاوة إضافية أطلق عليها «بدل مراجع»، نصحه بحضور جلسات المجمع ومؤتمراته، اتصل بالدكتور طه حسين، وأحمد لطفي السيد، فسمحا له، ثم صار الجواهري من علامات المجمع، خاصة بعد تعدد مرات الإشادة إليه في الصحف، تماماً مثل.. كبير مشجعي الزمالك، وأشهر قارىء صحف عيسى متولي، وشاعر الفلاحين، ومطرب العمال، وابن الريف، والعندليب الأسمر، وعذراء الشاشة، أطلقوا عليه: عاشق المجمع. يقال إن طه حسين كان يداعبه ويصغي إليه باهتمام. لكن الجواهري لم يدل بأي تفاصيل، كما أنه لم يعترف قط بكتابته خطب المؤسس التي عدَّت قطعاً رفيعة، رصينة من الأدب البليغ والنثر الجميل، ومن المؤكد أن بعض الزعماء استعانوا به، أما الوسيط فكان المؤسس شخصياً، لم يكن ممكناً للجواهري أن يقدم على أي فعل بعيداً عن رضاه.

كان لديه مهارة في صياغة العبارات والشعارات، الجمل الصغيرة، الدالة، الموجزة، وإليه تنسب بعض الكلمات الشهيرة خلال ذلك القرن، مثل:

من أجل مصر وقعنا المعاهدة، ومن أجل مصر نلغي المعاهدة..

و

أنا مسلم وطناً، وقبطي ديانة.

و

شهد لنا العدو قبل الصديق.

و

ما أخذ بالقوة لا يستردّ إلاّ بالقوة.

و

لا صوت يعلو فوق صوت المعركة..

مرة أبدى ملاحظة عن جهل السياسيين المحدثين باللغة، الخطابات تُكتب لهم، ويميز الشكل بالأحمر، مع ذلك يخطئون، بل الأدهى والأمرّ أنهم يتكلمون بالعامية.

في السنوات الأخيرة، مع رواج الشركات الخاصة ونشاط رجال الأعمال، عرض عليه مدير شركة دعاية وإعلان أن يصوغ عبارات مركزة للإعلان عن البضائع وأصناف العطور، ومساحيق التجميل، وشركات الطيران.

يقول إنه أسوأ عرض تلقّاه في حياته، استفز حتى أنه أشْهَرَ عصاه وكاد يهوي بها على المندوب، لولا ابنه الذي لحقه في آخر لحظة. لكن رد فعله بدا هادئاً عندما جاءه مدير مكتب مجلة عربية

وعرض عليه مبلغاً طائلاً، قيل إنه عشرون ألف دولار، مقابل رواية ذكرياته عن المؤسس، على أن تصدر في كتاب بعد نشرها في حلقات، لكنه رفض.

تعلّقه بالمؤسس لا ينافسه فيه إلاّ عم صديق، والأبله، وعطية أفندي مطلق الإشاعات، والعاملون الأوائل الذين قامت المؤسسة على أكتافهم ومن عرقهم، إنه الوحيد الذي لم تهن مشاعره رغم كل ما جرى، وبعد أن طالت الغيبة في المستشفى اللندني أنفق الجواهري مدخره كله، سافر على نفقته ليرافقه آخر أيامه، أما صور إخلاصه أيام المحنة الكبرى فمما يتوقف عنده الجدد، والمهتمون بأمور المؤسسة، ونموها، وتطوراتها، الحديث عن الجواهري يطول، لكننا نقصر الآن، نعود إلى ما جرى.

لم يفاجأ سيادته بتأميم المؤسسة. كأنه توقع ذلك، عندما رآه الرجال القدامى صباح صدور القرارات دهشوا، كانت تعلو شفتيه الابتسامة، ومن زاوية فمه تطل السيجارة الشهيرة، نوع يعدّ خصيصاً له، كل علبة، كل سيجارة تحمل الحرف الأول من اسمه وشعار المؤسسة الثلاثي.

لم يضطرب، ولم يفقد أعصابه ولم يدركه الكمد الذي أصاب آخرين هجّوا بعد ذلك واستقروا في البلاد الأجنبية وأصدر بعضهم كتباً معادية، وشارك نفر منهم في إذاعات تديرها أجهزة مخابرات أوروبية.

أبداً .. لم يهن حماسه، يؤكد الجواهري أنه أحيط بقرار التأميم عام أربعة وخمسين، أي قبل سبع سنوات من إعلانه، أثناء إحدى لقاءاته الخاصة بالزعيم جمال عبد الناصر عقب حفل تمّ خلاله توزيع صكوك التمليك على الفلاحين المعدَمين بمركز الدلنجات،

في الاستراحة البسيطة، المتواضعة، أفضى إليه بأفكاره حول تأميم المنشآت الكبرى، أصغى المؤسس ثم قال إنه يرحّب بذلك، لكنه يطلب مهلة قدرها خمس سنوات على الأقل..

«لماذا؟».

قال إن عدد المنشآت الآن أربعٌ وعشرون، ومجالات النشاط اثنا عشر. وإنه أقام صلات قوية بدوائر صناعية وتجارية في الغرب، ربما يكون منها ردود فعل مؤدية إلى عداء مبين، بعد خمس سنوات ستصبح هذه المنشآت قوية، راسخة، لن تؤثر فيها أي قطيعة، كما أن عددها سوف يتضاعف.

هزّ عبد الناصر رأسه ولم يعلق، هل كان الحوار سبباً لتأجيل قرارات التأميم كلها حتى عام واحد وستين؟

ربما ..

في ليلة التأميم صدر قرار سيادي عدّ الأول من نوعه، أن يستمر في موقعه بكامل مسؤولياته، بل أضيفت إليه اختصاصات جديدة، منها مسؤوليته عن شركة لوازم أعالي البحار التي هرب صاحبها عن طريق الحدود الجنوبية، كذلك تقرر الحفاظ على العلامات التجارية كافة الخاصة بالمنشآت، بدءاً من المقرات، والمركبات، وحتى أوراق المكاتبات الرسمية.

قال مدير مصنع مستلزمات الأطفال حديثي الولادة، الذي أصبح الرئيس الثالث للمؤسسة فيما بعد، إنه خلال إقامته في أوروبا التي استمرت عشر سنوات، زار ألمانيا الشرقية في ذروة النظام الشيوعي، زمن فالتر أولبريخت، نبهه مرافقه أثناء وقوفه بمحطة القطار الرئيسية بمدينة ليبزيغ إلى عربات القطار الخضراء، على كل منها شعار قديم يمتّ إلى زمن النازيين، «سكك حديد الرايخ

الثالث»، بسرعة قال المرافق الذي يتقن اللغة العربية إن هذا لضرورة دولية، العلامة مرتبطة بأوضاع واتفاقيات دولية.

حتى اسم الزوجة الأولى والوحيدة بقي كما هو على مصنع الصابون الشهير، ومعمل مستحضرات التجميل، حبه لها معروف شائع، لم ينسها حتى آخر يوم في حياته، أما تعدد علاقاته الذي فاق كل توقع، إنما كان بحثاً عمن تشبهها، طبعاً.. لم يخبر أي إنسان عما كان يبحث عنه بالضبط، سيظل ذلك سراً دفيناً.

ماتت شابة، بغتة، في كامل فتوتها، عطست مرة واحدة فقط، انفجر على الفور شريان وثيق الصلة بالمخ، أورثه ذلك حزناً وكمداً دفيناً، لم يكن يدرك لحظات توافدها عليه من أعماقه الغائرة إلاّ عم صديق الذي كان له دراية لا مثيل لها بأحوال سيادته.

قال الكارهون لتلك الحقبة إن استمرار الرموز والعلامات ليس تسامحاً من قائد الثورة، ولا إيثاراً منه للمؤسس، لكنها ضرورة اقتصادية، دولية، اسم المؤسسة معروف في العالم بشرقه وغربه، قيمته المعنوية لا تقاس بمال، بعض هواة المعادلات قدّره بمليار دولار..

كان ذلك أول الستينات، لنا أن نتخيل الآن القيمة الحالية! لم يشعر العاملون بأي هزة أو تغيير، حتى بعد نشوء منظمة الشباب، وتغلغل خلاياها أصبح له نفوذ قوي داخلها، بل إن بعض الاجتماعات السرية جداً عقدت في الغرفة الدائرية المجاورة لمكتبه مباشرة، كما صاغ بعضاً من الشعارات الثورية التي ترددت في استاد القاهرة خلال الاحتفالات الكبرى. كما أنه استوعب نشاط اللجنة النقابية تماماً. إذا طالبوا بعلاوة قدرها جنيهان بادر فمنح أربعة، وعندما علم نية بعضهم في إثارة موضوع التأمين الصحي

سارع بترتيب إتفاق خاص مع كبار الأطباء للكشف وعلاج أسرهم أيضاً. كل من يمتّ إليهم حتى الدرجة الرابعة. أما أرباح نهاية السنة فلا يمكن بأي حال مقارنة ما حصل عليه الجميع، حتى المعينين حديثاً بما صرف في المؤسسات الأخرى، حتى صار الانضمام إليها أملاً يرتجى، وهدفاً يسعى إليه الجميع. بل إن المنح والحوافز تضاعفت، حتى قال الحاقدون إنه يسعى لخرابها، لكن الميزانية المعلنة تكذب ذلك، لم تعرف المؤسسة فترة تسارع فيها معدل النمو مثل الستينات.

غير أن الجواهري يستعيد تلك المرحلة بضيق وأسى، كانت الحسرة تغريه كلما التحق موظف أو عامل جديد يعرف أنه مفروض على سيادته، بسبب صلة أو قرابة مسؤول كبير، مما حرص عليه تصنيف العاملين إلى أصلاء وهم القدامى الذين اختارهم المؤسس بنفسه وأجرى لهم الاختبارات التسعة الشهيرة، أما الآخرون فهم الملوّنون أو الدخلاء، الذين انضموا بفضل بطاقات التوصية، أو مكالمات هاتفية. صحيح أن سيادته تمكن من احتوائهم تماماً، حتى أن بعضهم صار من المخلصين العتاة. أحدهم وصل إلى منصب نائب مدير عام، وآخر كان على وشك أن يصبح رئيساً للمؤسسة كلها، أن يستقر في الطابق الثاني عشر، أن يجلس موضع سيادته، يتحدث في هاتفه، ويستند إلى مكتبه، لكن الله قدر ولطف، لم يصل البروفيسور إلى تلك المكانة قط، ولهذا تفصيل. المهم.. لم يكفّ الجواهري عن اعتبار أمثاله غرباء، حتى وإن وصل بعضهم إلى أعلى المناصب.

أما الضابط المتقاعد الذي تولى الأمور بعد وقوع المحنة الكبرى فلا يعتبره الجواهري من الذين تتابعوا، أو احتلوا المقعد الرئاسي، أو أمضوا وقتاً في الطابق الثاني عشر.

أسقطه تماماً، ليس من ذاكرته الشخصية فحسب، وإنما من تاريخ المؤسسة، يكفيه فخراً أن يده لم تلامس أصابعه، أما عم صديق فتحمّل الصعاب كلها، لكنه لم يقدّم فنجان القهوة إلى غير المؤسس.. لم يحدث هذا قط.

المهم.. أن ظنون الحاقدين خابت بعد التأميم، المؤسسة لم تتأثر، لم تهتز نتيجة لفترة التحول، بالعكس.. اتسع نشاطها، استثمر كل قرش ممكن، وطّد علاقاته الدولية، تفرغ لموهبته الأبدية.. تحويل التراب إلى تبر! بالطبع.. لم يخل الأمر من غبار يثار بين الحين والآخر، خاصة فيما يتعلق بصلاته وثروته بالخارج، وما يتردد عن تهريبه الكنز إلى بازل السويسرية، وتلك الشركات التي أسسها في البلاد العربية.

مرة .. اتسعت دائرة الهمس، وتمّ توزيع منشورات معادية داخل مصنع الإطارات المحلية، ومعمل الأغذية المحفوظة وترسانة بناء وإصلاح السفن حمولة عشرة آلاف طن، لكن ما يجب التأكيد عليه، أن المقر الرئيسي لم يوزع فيه منشور واحد، بل إن تعاطفاً قوياً سرى حتى فكر البعض في جمع أموال ونشر إعلان على صفحة كاملة، لكن الجواهري قاوم الفكرة، أحبطها تماماً.. طبعاً بتوجيه من سيادته، ثم جرى ما لم يتوقعه أي من العاملين، أو المهتمين، أو المتعاملين في الداخل والخارج.

صباح اثنين دافىء، مشمس، عكس أيام البرد السابقة، ظهر رجال أشداء يرتدون الملابس المدنية، لكن هيئتهم العسكرية لا تخفى على عيني من له أدنى خبرة، دخلوا إلى المقر الرئيسي بصحبة مدير الأمن الذاتي، تفقدوا المداخل والمخارج، صعدوا حتى غرف آلات الرفع الخاصة بالمصاعد، إلى برج الإرسال الدوّار، استفسروا عن الطوابق التحتية، وتوقفوا طويلاً عند الحفرة اللانهائية،

المستديرة، قذف أحدهم مكعباً صغيراً من الصلب المجلفن، وبعد إصغائه عدة ثوان، مع انعدام الصدى، قال لزميله إنه لم يتصور العمق إلى هذا الحد، ويعني ذلك أن ثمة فكرة مستبقة لديهم لكنهم أرادوا التأكد من أمرها.

اطلعوا على البطاقات الشخصية للعاملين كلهم، وفحصوا بصمات الأبله، ومرروا أجهزة صغيرة على الجدران، والأسلاك المغطاة، ومواسير المياه والصرف الصحي.

في اليوم التالي، تمام الحادية عشر، ظهرت أول عربة من قوات الحرس الجمهوري، في الثانية عشر توقفت العربة الكاديلاك السوداء الطويلة، نزل منها جمال عبد الناصر شخصياً، لن ينسى الجواهري لحظة خروجه، وقوفه لحظات محكماً زرار جاكتته بيديه، تقدم المؤسس منه. عند المصافحة صفق الجميع، تلويحة عبد الناصر، استدارته المتمهِّلة، تقدمه الوثيق الواثق، لم ير مثيلاً لمشيته، لمهابته، لقوة حضوره، لا يضاهيه إلاّ المؤسس.

يردد الجواهري إنه بدا ملء العيون، منيع الجانب، قوي المكانة، نافذ النظرة، قادر على المنازلة.

مشى المؤسس إلى جواره، كان أقصر، أكثر امتلاء، بدا هادئاً واثقاً، في الصالة الدائرية بالطابق الثاني عشر، وقفت أمام اللوحات البيانية والرسوم التفصيلية موضحاً، شارحاً، متحدثاً عن نوابغ العاملين، كبيرهم وصغيرهم، مؤكداً تشجيعه للمواهب في مختلف المجالات، لكم ردّد أن العمل مع الكبار يجعل الكبير أشمخ.

في المكتب بدا عم صديق مبتهجاً، مبتسماً بعد أن استدعاه المؤسس ليصغي إلى ثناء الزعيم على القهوة السادة التي شرب منها واستفسر عن مصدر البن وما أضيف إليه.

دعا له عم صديق بالنصر وطول العمر، وفيما تلى ذلك واظب على تسليم مندوب مخصوص من مكتب المعلومات التابع للرئاسة، نصف كيلو من البن المحوّج، ويؤكد الجواهري أنه رفض تماماً تقاضي أي مقابل له حتى وفاة الزعيم في الثامن والعشرين من أيلول/ سبتمبر. بعد يوم الاثنين هذا انقطع تماماً، وعندما جاءه المندوب الرئاسي قابله بجفاء، شخط فيه، قال إنه كف، وتطلع إليه بالنظرة نفسها التي أربكت الضابط المتقاعد.

أقاويل عديدة حول قهوة عم صديق، وتأثيرها على الرئيس الراحل، تناول الأمر كتابان صدرا مؤخراً، لكن الحديث عن ذلك سابق لأوانه، المهم.. أذيعت الزيارة بالكامل عقب نشرة السادسة المرئية، اعتبر ذلك دعماً من زعيم الأمة، وعلقت الصحف، وأشار رئيس تحرير «الأهرام» في مقاله الاسبوعي إلى خلو الزاوية اليمنى لفم المؤسس من السيجارة المشهورة.

في هذا الوقت كانت المؤسسة ملكية عامة، لا تخصه، لا تتبعه، كان يتقاضى على الورق راتباً شهرياً كأي موظف، كان يتبرع به إلى صندوق دعاية العاملين. يقول الجواهري إنه عمل بالهمة نفسها، بذل أضعاف الجهد والطاقة، لم يسمع عن إنسان ذي كفاءة في أي مجال أو تخصص إلا وسعى إلى ضمّه أو الاستعانة بخبرته، شجّع نوابه رؤساء القطاعات والمنشآت على تجاوز النظم الجامدة، مع احترام اللوائح المتوارثة، وفي اللحظات الحاسمة لم يتردد، تقدم وتحمّل المسؤولية كاملة.

ليس الجواهري وحده، إنما قدامى العاملين كلهم يذكرون أيامه بالخير، يحنّون إليها، يضربون المثل تلو الآخر من واقع تصرفاته وقراراته التي لم تخطىء قط، ظل معظمهم على إخلاصه حتى بعد عزله، ومروره بالمحنة الكبرى، ثم المحنة الصغرى، لم ينقطع واحد

من معاونيه، ومن صغار العاملين الأوفياء عن زيارته، والاطمئنان إليه، ومن لم يستطع أرسل إليه شفاهة أو كتابة، وعلق بعضهم صوره في قاعات الاستقبال داخل بيوتهم، احتفظ آخرون بخطابات منه، أو أوراق عليها خطوطه وتوقيعاته. بعد رد اعتباره جاهر الجميع بمحبتهم، جرى ذلك عقب حركة أيار/ مايو الكبرى، التي اعتبرت ثورة فيما بعد، حتى تندّر بذلك عدد من المعارضين، وقالوا ساخرين: اللهم أكثر من الثورات.

على أي حال .. حتى هؤلاء الخصوم لم ينكروا حزمه، ومواهبه المتعددة، وقدراته الخلاقة التي أنشأت المؤسسة من لا شيء، صحيح أن التوسعات ما تزال مستمرة، لكن استناداً إلى الأسس التي وضعها.

هزات عديدة تعاقبت، كما ظهرت علامات فساد قائمة، لولا متانة التأسيس، واتساع المجالات وتنوعها لانهارت منذ زمن، أما الصراعات التافهة، فلم تُعرف قط في زمنه.

في وقته لم يرتقِ إلاّ صاحب الكفاءة، الموهوب، بحق، الآن.. أصبح الطريق مفتوحاً لمن يجيد وسائل لا صلة لها بالعمل، ألم تكن الكارثة وشيكة الوقوع؟

ألم يكن بين البروفيسور والطابق الثاني عشر إلاّ خطوة أو خطوتان؟

يضرب الجواهري كفاً بكف، يبدي تحسراً فاجعاً على بقائه حياً حتى شهوده أموراً مثل صعود البروفيسور المفاجىء، أو تلك التي تجري الآن والتي كان مجرد تصورها مستحيلاً.

للجراح مكانة ..

إذا ذكر البروفيسور اقترن على الفور بالجراح، ليس لأنه من مؤسّسيه، أو من العاملين القدامى فيه، فهو من الدخلاء جاء بتوصية من زوج خالته أو عمته وكانت له صلة وثيقة بمدير مكتب عضو بارز في مجلس قيادة الثورة، جمعهما الشطرنج الذي كانا يلعبانه مساء كل خميس واثنين بمقهى يطل على حديقة الأزبكية.

البروفيسور من الجيل الثالث تقريباً، إذا اعتبرنا المؤسس يمثل الأول. كان الجراح منطلقه، وبداية وثبته الكبرى التي كادت تحمله إلى الطابق الثاني عشر، لذلك لا بد من الإشارة إلى أهمية الجراح، قال الجواهري عن المؤسس: «الجراح من أركان المؤسسة، ومن لم يوله عنايته فُقِد».

شك البعض في نسبة مثل هذه الأقوال، قالوا إن من يريد فرض وضع معيّن يبرز جملة أو فقرة منسوبة إلى المؤسس بغض النظر عن توافق القول للأوضاع أو تناقضه، غير أن ما يذكره الجواهري له منزلة خاصة، كل ما فاه به موثق، إما من خلال محاضر الاجتماعات الأسبوعية، أو المذكرات والرسائل والخطب التي خطها بيده. أحياناً يتصل الجواهري ببعض العاملين المتقاعدين بل

يمضي لمقابلتهم، أو يسافر إليهم، ليستجوبهم على فراش المرض، مدققاً، محقِّقاً، في صحة لفظ، أو جملة يشك في سلامتها، لذلك عُد من أقوى الثقاة، وذا مرجعية لا تقبل الجدال.

إذن.. اهتم الخمسة الذين تعاقبوا حتى الآن بالجراج، أولوه عناية خاصة، حتى اتخذ ثالثهم مقراً له يتردد عليه بين الحين والحين، ومرة عقد اجتماع مناقشة الميزانية داخله.

لا يعني الجراج مكان إيواء العربات فقط، إنما المقصود كل ما يحويه من مركبات ثقيلة تتولى نقل الخامات والمنتجات، من الموانيء، من المطارات، من الوحدات الانتاجية، من المخازن، ويضم الأسطول الهائل عربات متخصصة معدة لنقل غاز الكلور، والبترول بمشتقاته، والماء الحلو للمراكز الحدودية النائية عن الوادي، وهذه الوحدات بالذات حققت أرباحاً هائلة مع بدء النشاط السياحي بمنطقة الغردقة وسفاجة، أما السفارة الأميركية فتعتمد تماماً على وحدات الثلاجات الهائلة في نقل الأطعمة المخصصة لتغذية العاملين بالسفارة من مينائي السويس والإسكندرية إلى المقر الرئيسي بجاردن سيتي. طبعاً هناك خلاطات الاسمنت، وناقلات الرمال والزلط، وألواح الزجاج والمرايا، والآلات الحساسة، أما المقطورات ذوات الست وتسعين عجلة، فلا توجد إلاّ في المؤسسة، وعند تحركها تعلن إدارات المرور الطوارىء.

يضم الأسطول الخفيف وحدات لنقل الأموال، والمجوهرات النقية الثمينة، والزهور المورقة المعدَّة للتصدير، خاصة الياسمين البني سويفي، والفل السكندري، وعصفور الجنة المصري، كذلك الألبان الطازجة، والفطائر، والحلويات.

هنا ثلاث عربات مجهزة لنقل الثعابين السامة، في منتصف الخمسينات أنشأ المؤسس مزرعة قرب أبو رواش، تضم مجموعات

نادرة من أشد الحيّات فتكاً، بدأ مشروعاً لاستخلاص السموم النادرة وبيعها إلى شركات الأدوية العالمية مما حقق دخلاً لا بأس به من العملة الصعبة، ويؤكد البعض أنه يقدم منتجات هذه المزرعة إلى جهات ذات شأن، وثمة صفقة مؤكدة جرت بعلم الدولة بين المؤسسة، وإحدى الهيئات الأميركية شديدة الحساسية والأهمية. مع تكاثر الثعابين، خاصة الكوبرا، والطريشة الفتاكة، سمح ببيعها للهواة، ولأمراء النفط، كان يتم تصدير الذكر والأنثى داخل صندوق زجاجي شفاف، مزوّد بنظام خاص للتهوية، ولإدخال الغذاء، أما السم الذي دس للملك السابق فاروق في روما أثناء جلوسه على مقهى شهير قرب فيللا بورجيزي، فيؤكد العالمون أنه من منتجات تلك المزرعة التي تدر الآن مبالغ طائلة من العملة الصعبة النقية.

ثمة سيارات مكيفة، مجهزة لنقل السلالات النادرة من الخيول، خاصة أحفاد الأبجر، واليعسوب، فرس الزبير بن العوام. والأجدل، فرس أبي ذر الغفاري، وكان المؤسس يكنّ لأحفاد الأخير معزة خاصة، ولا يفرط فيها إلاّ بعد كد شديد، كان رحمه الله يحب الخيل حباً شديداً، دائم التعلق بها. ولم يكن يسمع بفرس في سائر أنحاء الدنيا، فيه أصالة، وحُسن، وقوة، إلاّ بعث رسله ومندوبيه، وتحايلوا حتى يحضروه إليه، وله في ذلك حوادث معروفة.

كان يحفظ أنسابها عن ظهر قلب. وعنده مخطوط نادر لكتاب أنساب الخيل لابن الكلبي، ومخطوط آخر لمعجم بأسمائها وألقابها. ويقول الجواهري إن حالة من النشوة كانت تبدو عليه عند اقترابه من حصان أو فرس ينحدر من تلك السلالات الكريمة، ويبدو أن الخيل كانت تتلقى عنه، فتقابله بالصهيل، ورفع القائمتين الأماميتين.

الحديث في هوايته للخيل يطول، لكن ما عاد منها على المؤسسة كثير. كانت المزرعة في محافظة الشرقية، لكن.. اسمها يتردد في العالم كله، في أشهر المجلات، والصحف، والكتب وفي روايات أغاثا كريستي، قصدها الملوك والرؤساء والمشاهير، وللأمير آغا خان استراحة قربها يقيم بها عند زيارته السنوية إلى مصر.

بيع منها حصان إلى الرئيس الأسبق أيزنهاور بثلاثمائة ألف دولار، ويقول المحرر الاقتصادي لـ«التايم» إن البيت الأبيض ربح من سلالة هذا الجواد الكريم والمعروف بالأقصر، عدة ملايين من الدولارات، مرة واحدة فقط أقدم سيادته على إهداء جواد أصيل يمتّ بنسب إلى اليعسوب. كان ذلك عند زيارة نيكيتا خروشوف إلى مصر، ويبدو أنه أراد مجاملة عبد الناصر في شخص ضيفه.

عُرف الجواد باسمه الذي اختاره له الرئيس الراحل، «أسوان»، نقلته طائرة عسكرية خاصة إلى موسكو، لكنه مرض وذبل، نصح الخبراء بنقله إلى جمهورية أخرى، لم يستقر في أذربيجان، ولم يتحسن في جورجيا، ولم يصحّ أمره في لاتفيا، ولم يقرب الفرس الجميل المنحدرة من سلالة خصت القياصرة البائدين، لكنه عندما حطّ في تركمانيا بدا وكأنه ولد من جديد، صهل صهيلاً طويلاً، مهيباً، تردد صداه على مسافات نائية، جاوبته خيول الناحية كافة.

استقر في مزرعة قريبة من العاصمة عشق آباد، فيها ظهر نسله، ورمح قاصداً الجهات الأصلية، أُدرج في البرامج المعدة لزيارة ضيوف الحزب، باعتباره من رموز الصداقة بين الشعوب، ومن الأحوال النادرة. دُونت أوصافه في دوائر المعارف العامة، والمتخصصة، وقدم الهواة الأثرياء من الأقاصي النائية للفرجة عليه، ولم تخف عن العيون رعشة النشوة التي تسري في النساء اللواتي

تطلعن إليه، حتى أن خدراً كان يصيب بعضهن، والحديث عن تلك الأميرة الهولندية التي حاولت مضاجعته ليلاً معروف.

بعد أن جرى ما جرى للاتحاد السوفياتي، أقدمت القيادة المحلية على ما لم يشرع فيه مسؤول من قبل، إذ عرضت أبناء أسوان وأحفاده الأربعة للبيع، كان الهواة لا يصدقون أنفسهم عند مواجهة الغرة البيضاء، والحافر الذهبي.

هكذا حصلت الخزانة التركمانية المستقلة حديثاً على قدر غير هيِّن من العملة الصعبة، نسبة دخلت جيوب المسؤولين، لكن مقداراً لا بأس به استخدم في تمويل عمليات شراء مواد غذائية عاجلة. هذه التطورات ليست بعيدة عن المؤسسة في مزرعة الشرقية تجري متابعة دقيقة لنسل الخيول التي خرجت إلى أماكن شتى من العالم، والحديث هنا يطول، لكن ما يعنينا الآن الأهمية الخاصة للعربات الثلاث المجهزة لراحة الخيول. إن استخدامها لم يكن يتم إلاّ بموافقة المؤسس نفسه، طبعاً.. اختلف الأمر بعده، خاصة الآن!

ضم الجراج معدات شتى، رافعات متحركة، أوناش ثقيلة، ومتوسطة، جرارات من طُرُز مختلفة، وآلات حفر، ورصف، وتقليب تربة، وثلاث عربات اسعاف، منها المجهزة بالبلازما ومختلف فصائل الدم، وأخرى تضم غرفة عمليات على أرفع مستوى علمي، أما سيارات الركوب فلا حصر لها. منها الفاخر القديم المعدود في المتحف الآن، وحتى العادي.

ما تزال عربة سيادته في ركنها المعتاد تلقى كل عناية، تجهز انتظاراً للتلبية والاستجابة في أي لحظة، مع أنه غاب إلى الأبد، من نوع كاديلاك، طراز بداية الأربعينات، سوداء، إستثنيت من التأميم، لكنه اعتبرها من ممتلكات المؤسسة، أوصى ببقائها والعناية بها،

لذلك كان اختفاؤها في منتصف السبعينات مثيراً للأقاويل، شقَّ على العاملين القدامى، ثم أثير الموضوع علناً في الثمانينات، طبعاً بعد رحيل الرئيس السادات!

ثمة سيارة أخرى كان المؤسس يفضلها كثيراً، خاصة عند سفره إلى الإسكندرية، في الأصل مهداة من هتلر إلى الملك السابق عند زواجه الأول، ولا يقدم الجواهري تعليلاً مقنعاً عن كيفية انتقالها إلى المؤسس، ولا يُعرف مصيرها الآن، وعندما تردد ظهورها في موكب عرس صاحب مصنع حلويات، سافر عطية بك على الفور، لكنه رجع ليؤكد في مذكرة رسمية أن السيارة التي عاينها تخص الرئيس جمال عبد الناصر شخصياً وأنها بيعت في ظروف ما، وكل إنسان في الإسكندرية موقن من ذلك.

خصصت السيارات الصغيرة لرؤساء المنشآت ومديري القطاعات والنواب الأربعة، ومن يحظى برضاه الشخصي، من السائقين كان يعرف الكثير عن العاملين، ما من كلمة تلفظ في العربات على اختلاف أنواعها إلاّ وتبلغ إلى سيادته من خلال عاملين على درجة عالية من الولاء والإخلاص، أدق التفاصيل توفرت عنده أولاً بأول، بفضل إحكام قبضته على كراج المؤسسة بفروعه المختلفة، لذلك أوصى معاونيه، ضرورة العناية بالكراج.

انضباط الكراج يعني استقرار المؤسسة، من حركته يمكن متابعة حجم الأعمال، دقة الأداء، معدلات النمو، لهذا حرص سيادته على اختيار شخصيات قوية، حازمة لإدارته، كما ألحق به أكفأ الفنيين والمتخصصين.

رئيس قسم الإطارات كان حاصلاً على درجة علمية رفيعة في الكاوتشوك، رئيس ورش الصيانة عمل أستاذاً في كلية الهندسة الملكية، المسؤول عن الخراطة أمضى عشرين سنة في ورش الجيش

الإنكليزي بقاعدة القناة، ومن المؤكد أن خبرته لا تُقدر حتى قيل إنه كان يعيِّن الخلل بمجرد النظر إلى العربة عند إدارة المحرك وسماع صوته، قام بتصنيع قطع الغيار المعقدة التي توقَّف استيرادها بسبب موقف دول العدوان الثلاثي.

عرف المؤسس كيف يختار رجاله، لم يقم وزناً إلاّ للكفاءة والموهبة، المدير الأول للكراج كان طويل الصمت، متجهم الملامح، يدير العمل بإيماءات قصيرة وإشارات مدغمة، لا يذكر إنسان أنه رآه باسماً حتى في أيام الأعياد، لكن بقدر ما هابه الجميع، بقدر ما أحبوه، وها هي المعدات من طراز الثلاثينات والأربعينات مستمرة حتى الآن، الفضل يرجع إليه.

المدير الثاني عُرف بالبساطة والذكاء، حقق أعلى معدلات التشغيل، لم يحدث أن عربة نقل واحدة قطعت كيلومتراً فارغة، أو بدون جدوى.

كيف تولى البروفيسور أمور الجراج؟

كيف أوشك على الصعود إلى الطابق الثاني عشر؟

ما علاقة الدكتوراه التي حصل عليها في الطاقة المائية بالمؤسسة، بالجراج، بالمعدات المختلفة؟

ما من جواب مقنع، بعد صدور قرار بتوليه الجراج، أكد البعض أن ذلك تمّ بإيعاز وضغط من أجهزة أمنية تسعى إلى اختراق المؤسسة منذ مدة وعجزت، أكد بعض العاملين أنه لم يحصل على دكتوراه أو ما يوازيها، وأنه درس في معهد خاص دراسة حرة، لم يعرف أحد طبيعتها بالضبط، يؤكد العاملون في إدارة شؤون الأفراد أن ملفه يخلو تماماً من أي ورقة تثبت حصوله على أي شهادة علمية.

لكن .. ما أهمية ذلك الآن؟

لم يعد القرار بيد شخص واحد كما كان الأمر زمن المؤسس الذي يحنّ القدامى إلى لحيظات منه، لكن.. هل يرجع ما مضى؟ من كان يتصور يوماً أن ذلك الصرح الرائع، الذي نشأ بجهد وذكاء وخبرة المخلصين، الموهوبين، ينتهي إلى ما آلت إليه الأحوال، هل كان يتصور مخلوق أن يجيء يوم فيلتحق بالمؤسسة من لا يستحق، لمجرد أن زوج أمه أو خالته أو جارته يلعب الطاولة أو الشطرنج مع مدير مكتب شخصية هامة؟

يلوح الجواهري بيده إذا ذكر البروفيسور على مسمع منه، يقول إنه على الأقل نظيف اليد، إنه غبي لكنه أفضل من آخرين، لم يعد فسادهم سراً، أمرهم يجري على كل لسان، حتى العمال والغرباء الذين يتعاملون مع المؤسسة.

يهز الجواهري رأسه بتأن: «مع حمقه.. إلاّ أنه أحسن من غيره»، عندما التحق البروفيسور بالكراج بدا مهتماً بالتفاصيل، بالشكل، يدقق في التوقيعات، ومواعيد الحضور والانصراف، بعكس النظام القديم الذي أرساه المؤسس، أن يكلف كل شخص بعمل محدد، المهم أن ينجزه على الوجه الأكمل، سواء تم ذلك في ساعة أو ساعتين.

كانت بداية طلوع أمره عندما أصبح مسؤولاً عن إدارة عربات الركوب، ركّز في البداية على إصلاح الأعطال ومظهر السيارات، وزوّدها ببعض الكماليات التي كانت ممنوعة، مثل أجهزة التكييف، والهواتف اللاسلكية، وهذا ترف لم يعرفه المؤسس، وما خلفه خير شاهد، بل إنه بعد التأميم، عندما أصبحت الملكية عامة، وتمّ شراء مائة سيارة تشجيعاً لشركة النصر، رفض المعاملة الخاصة، صار يستخدم سيارة عادية، صغيرة، إنتاج محلي، ولم يجلس في المقعد

الخلفي قط، مكانه دائماً إلى جوار السائق، وعندما كان يستخدم الكاديلاك السوداء، أو المرسيدس التي أهداها هتلر إلى الملك السابق، كان يدفع ثمن الوقود من جيبه الخاص، مع أنه لم يمش متراً واحداً في حياته إلاّ من أجل المؤسسة.

ركّز البروفيسور على العناية بسيارات كبار المسؤولين من رؤساء قطاعات، ونواب، ثم وفّر عربة لكل صاحب نفوذ، أو علاقة بشخصية هامة، وبعضهم لم يكن يحلم بذلك قط، وفي الوقت نفسه تقرّب من السائقين، استخدم اللين والعطف لكنه في مرات معينة أسفر عن قسوة شديدة، مما حيّر العاملين تحت إمرته، حتى أنهم خافوه رغم سخريتهم منه وترديدهم النكات، وإطلاق أسماء ذات صفات مضحكة أكثرها شيوعاً في المؤسسة، «البروفيسور قلقاسة»، «البروفيسور كباية». ومعظم هذه الصفات مستوحاة من هيئة دماغه الصلعاء تماماً، ذات النتوءات والتموجات، والإنخسافة الملحوظة التي تبرز جبهة كاللافتة المائلة إلى الأمام، تحتها عينان جاحظتان باستمرار، حتى زعم بعضهم أنه ينام ويستغرق في النعاس بدون أن يغلقهما، تتصل رأسه بكتفيه مباشرة، رقبته لا وجود لها تقريباً، حتى أنه عندما يستدير أو ينظر إلى من يجاوره يميناً أو يساراً فإنه يلتفت بجسده كله. ولم يتجاوز رأسه في غرابة التكوين إلاّ ردفاه الغليظان، الهائلان، وحركة شطريهما التبادلية، واحد.. اثنين.. واحد اثنين..

أكد بعض ممن عملوا معه عن قرب أنه يصاب بحالة جنون مؤقّت، عندئذٍ يطق الشرر من محجريه، ولا يمكن التنبؤ بما يفعل، حدث مرات ما تناقله العاملون في المقر الأصلي، ولكن.. برغم ذلك كله، أدار العمل بيد من حديد، وأغدق على عدد من السائقين، جعلهم عيوناً وآذاناً له، ينقلون له ما يسمعونه، وهل هناك

من يعرف الأسرار مثلهم؟ ربما لهذا السبب حرص المؤسس على أن يقود عربته بنفسه، خاصة بعد التأميم، وبعد وفاة السائق العجوز الذي نشأ في بيت والده، وكان يصحبه إلى المدرسة ويعود به منذ أن كان طفلاً، وخلال التحقيقات التي أجريت معه، سأله ضابط كان يرتدي الملابس المدنية ويجلس بجوار وكيل النيابة عن السر في قيادته عربته بنفسه، ورفضه اتخاذ أي سائق.. لا من المؤسسة، ولا من خارجها، ولكن هذا موضوع يطول الحديث فيه.

مع تولي البروفيسور مسؤولية الكراج كاملة تمّ التخلي نهائياً عن المبدأ القديم، ألا تستخدم العربات إلاّ في مهام تتصل بالعمل، أصبح عادياً رؤية العربات ذات اللونين الشهيرين، الأسود والأحمر، أمام النوادي الرياضية، والعيادات الطبية الخاصة، وعند أسواق الخضر والفاكهة، وحتى سوق السمك في غمرة، صار مألوفاً انتظار السائقين أمام البيوت والمقار المختلفة.

غير أن هذا لم يكن كافياً ليدفع بالبروفيسور إلى ما وصل إليه وإلى ما كاد أن يحققه بالفعل، إذن.. ماذا جرى؟

تُجمع الروايات أنه عرف طريقه إلى القيادة السياسية، صار يقدم خدمات عامة وخاصة، أما العامة فمنها تسخير عربات النقل التابعة للمؤسسة أثناء الانتخابات والاستفتاءات وعند حشد المسيرات ومواكب الاستقبال، صار معروفاً بقدرته على إحضار مليون مواطن بالغ من المناطق القريبة، خاصة من شبرا الخيمة، ومصانع حلوان، بل ومن المنطقة الزراعية الممتدة حتى بنها شمالاً وبني سويف جنوباً.

أما الخاصة فعديدة، ومنها على سبيل المثال فقط لا الحصر، تخصيصه سبع ناقلات عملاقة أثناء بناء الرئيس الثالث للمؤسسة عمارة ضخمة بمدينة نصر من عشرة طوابق، واستراحة مزودة

بحمام سباحة في إجدى قرى الساحل الشمالي، تمّ استخدامها في نقل الرمال والزلط والأخشاب والأدوات الصحية وبلاط الأرضيات والأثاث المصنَّع خصيصاً والمستورد.

كان عنده القدرة على استشعار ما يكنه أصحاب النفوذ فيلبي على الفور، خاصة الرئيس الثالث، أوقف على خدمته سبع سيارات اثنان منها من أحدث طراز، وعندما بدأ نشاط الجماعات الأصولية وظهرت خطابات التهديد، وأُنشىء قسم الحراسات الخاصة، وجاء عم إبراهيم المخبر، وتبعه عدد آخر، قام البروفيسور بتجهيز سيارة تتقدم سيارته، وأجرى اتصالاً ما مع القيادة السياسية تمّ بعدها تخصيص ضابط شاب وثلاثة حراس مدربين على استخدام الأسلحة النارية الحديثة، والرياضات الآسيوية، كانت تطلق عواء طويلاً لإفساح الطريق، بينما يطل من النافذتين الخلفيتين اثنان من الحراس المتأهِّبان لصد الخطر الوشيك، يشيران إلى العربات الأخرى بالابتعاد عن المسار..

بصراحة.. هيبة لم يعرفها المؤسس، ولا الرئيس الأول أو الثاني، مثل هذه المظاهر لها مردودها في السوق المحلية والعالمية، حراسة لا يحظى بمثلها إلاّ الشخصيات القيادية العليا والسفراء الأجانب المهدَّدون مثل السفير الإسرائيلي. اعتبر سيادته تلك الحراسة المشددة جزءاً من هيبة المؤسسة، وربما لهذا السبب توسع في إنشاء جهاز الأمن الخاص، وأشرف بنفسه على تفصيل الزيّ المميز لهم، واختيار الأسلحة المناسبة.

دخل البروفيسور مزاج سيادته، صار يستشيره في كل كبيرة وصغيرة، أول من يتحدث إليه في الهاتف، وآخر من يسمع صوته، أدرك العاملون ذلك فراحوا يتقربون إلى البروفيسور ليقول في حق بعضهم كلمة طيبة، ولكن ذلك لم يكن يتم بسهولة.

مع قرب وصول الرئيس الثالث إلى السن التقاعدي، وسريان شائعات قوية برفض القيادة السياسية التجديد له، لوحظ تردد البروفيسور المتزايد على الطابق الثاني عشر، وفي صباح يوم أحد تصادف مروره أمام المدخل متجهاً إلى مقر إدارة الكراج القائم غرب الحفرة الدائرية اللانهائية، لمح سيارة سيادته، أو بمعنى أدق.. الموكب، عندئذ تمهل. حدق بعينيه المزرورتين دائماً وكأنه في حالة تطلُّع مستمر، تقدم وفتح الباب رافعاً يده بالتحية. تماماً كأي حارس أمن، أو ساع قديم.

أشاد سيادته بكفاءة البروفيسور، وإمكاناته، وغيرته على المؤسسة، وحرص على ظهوره بجانبه أثناء توقيع عقد مصنع الشيكولاته الجديد، بالطبع لم يفت ذلك على المتابعين للأحوال، خاصة وأنه جرى تخطي عدد من أهم المسؤولين، صحيح أن الكراج هام، وأن المؤسس أوصى به، ولكن لم يكن مديره يوماً من الشخصيات التي تتصدر الواجهة.

مع بدء سريان الاشاعات القائلة إن البروفيسور أقوى المرشحين وإن عدة جهات أمنية بدأت التحري عنه، لم يصدق أحد، واعتبرها البعض مكيدة من اللجنة النقابية، خاصة أن رئيسها من عمال الجراج القدامى، وعلى خلاف عميق ذاع أمره حتى أصبح من الأمور المكدرة، التي عجز الرؤساء عن التخفيف منها أو الحد. ولكن عندما تأكد الجواهري من عطية بك زميل عمره، وأحد أقدم الرجال هنا أن أمراً صدر بحصول البروفيسور على جهاز «بليب»، نزل عليه صمت، قال عطية بك إنه لم يتوقع وصول الأمور إلى هذا الحد.

لكن .. المحظور أطل، والبعيد لاح قريباً، والمستحيل صار ممكناً..

البليب .. يحسم الموقف

للإتصالات في المؤسسة شأن عظيم. اهتم بها سيادته منذ البداية، أولاها عناية لا تقل عن الجراج، والطوابق التحتية، وقسم الأجهزة الطبية الذي تحول فيما بعد إلى أضخم شركة متخصصة في الشرق كله.

كان جهاز الإتصالات الذي زود به المقر الأصلي متطوراً عن جهاز القصور الملكية، تابع التطورات كافةً في هذا المجال، وفي كل زيارة إلى الولايات المتحدة يتردد مرتين أو ثلاث على مقر شركة I.T.T التي دبرت ونظمت عدداً من الإنقلابات في دول العالم الثالث، من بينها انقلاب شيلي الشهير ضد سلفادور اللندي. بالطبع.. لم تنقطع صلته عن اليابانيين، وكما سبق القول أشار عليهم بتعديلات معينة طورت من تصميماتهم. لكنه حجب الكثير عنهم، وخفايا ذلك يصعب الخوض فيها، ولكن المؤكد أن اليابانيين أطلعوه أولاً بأول على ما توصلوا إليه في مجال الحاسبات الآلية، وأجهزة الاتصال، ليس بسبب خبرته فقط، ولكن لصلاته وقدراته التسويقية الهائلة خاصة في الأقطار النفطية.

هو أول من أدخل نظام الهواتف الآلية، والأجهزة ذات التحكم المركزي، وخلال الستينات، كان هناك خمسة تليفونات خاصة في السيارات أولها في العربة الرئاسية المجهزة، والثاني في مركبة القائد العام للقوات المسلحة، والثالث في سيارة وزير الإعلام، والرابع في مسؤولية وزير الداخلية، والخامس في المؤسسة، بالتحديد، في السيارة الرمادية، محلية الصنع، والتي خصصت له بعد التأميم.

أكثر من ذلك، إنه أول من رتّب اتفاقاً خاصاً مع وكالة الفضاء الأميركية في المنطقة كلها، قبل ملوك النفط وأمرائه، والرؤساء الجمهوريين المعمرين، والأثرياء من تجار السلاح والمخدرات وما شابه، استأجر قناة معينة ذات تردد خاص في أحد الأقمار الصناعية من الجيل الثاني، يؤمّن له الاتصال المستمر بأي جهة في العالم. مجرد جهاز صغير يحمله معه أينما ذهب، إذا طلبه أحد المتعاملين معه، العالمين برقم هذا الجهاز، فإنه يجيب فوراً، سواء كان في الطريق، أو المكتب، أو المخدع. ويقال إنه أحاط الزعيم عبد الناصر به علماً، ولم يوقع العقد إلاّ بعد اطمئنانه إلى موافقته، وبعد وقوع هزيمة حزيران/ يونيو النكراء، استدعاه عبد الناصر إلى بيته في منشية البكري، قبل إلقاء خطاب التنحي الشهير، ومن هذا الجهاز اتصل بصديقه هواري بومدين ليرسل إليه دبابات وقطع مدفعية وليتحادث مع السوفيات في شؤون لم يعرفها غيرهما، هذا مقطوع به، مؤكد. وضع سيادته نظاماً محكماً، صارماً لتوزيع أجهزة الهاتف داخل المقر الأصلي وصار ذلك نظاماً متبعاً في جميع الفروع والشركات المنبثقة.

الموظفون أو المختصون الأقل أهمية أو مازالوا في بداية السلم يسمح لهم بالاتصال من أجهزة عامة موزعة على طوابق المبنى، إذا ترقّى أحدهم فإنه يجلس إلى مكتب ذي ثلاثة أدراج، عندئذٍ يحق

له جهاز هاتف بدون قرص، أصم، يمكنه رفع السماعة، عندئذٍ يجيبه عامل التحويلة الفرعية فإذا كان الاتصال داخلياً يساعده، وإذا كان خارجياً فإنه يصله بالتحويلة الرئيسية، عندئذٍ يتم تسجيل المكالمة وقبل ذلك يجري الاستفسار عن الغرض منها ومدتها.

عندما يحق للموظف الجلوس إلى مكتب ذي أربعة أدراج، وسطحه مغطى بلوح زجاجي سمك ثلاثة ملليمترات، عندئذٍ يوضع أمامه جهاز هاتف بقرص، ولكن بدون خط مباشر، مثل هذه الطبقة من الموظفين يمكنها الاتصال بالتحويلة الرئيسية مباشرة وطلب خط خارجي بعد إدارة رقم صفر. وبمجرد انتهاء المكالمة يرفع الخط تلقائياً.

عند وصول الموظف إلى درجة مدير إدارة، أو ما يوازيها يمكنه الجلوس إلى مكتب ذي ستة أدراج، ويزود بهاتف له خط مباشر، لكن لطلب رقم خارجي لا بد من إدارة رقم «تسعة» أولاً.

نواب سيادته، ومديرو العموم، يجلسون إلى مكاتب ذات أدراج سبعة، تغطيها ألواح من بللور سمك خمسة ميلليمترات، مقاعدهم من جلد إنكليزي غامق، لها عجلات صغيرة تمكنهم من الحركة أماماً وخلفاً بيسر وسهولة. أما الهواتف فتستقر فوق منضدة مستطيلة إلى الناحية اليمنى. على سطحها ثلاثة أجهزة، واحد داخلي، وآخر خارجي، وثالث أخضر مخصص للاتصال بسيادته. فيما بعد وفي زمن الرئيس الأول الذي خلف المؤسس ـ ليس المقصود به الضابط المتقاعد الذي جاء بعدبدء المحنة الكبرى ـ أضاف جهازاً دولياً إلى هذا المستوى الإداري، وفي عهد الثالث اتخذت إجراءات معينة لتشديد الرقابة على الخطوط الدولية بعد أن بلغت قيمة فاتورة سنوية تخص مدير الإعلانات الخارجية أكثر من مليون جنيه. قدمت أجهزة أمنية خاصة تسجيلات تمّ التقاطها بعد

أن لفت النظر بطول المكالمات التي تجاوز بعضها ساعة وربعاً.

في زمن الرئيس الثالث جرى ادخال الدكتافون، ويقال إن المؤسس كان على علم به، لكنه لم يكن متحمساً له، وإن احتفظ بجهاز خاص في مكتبه يمكنه من الإصغاء إلى أي حوار يجري في المؤسسة، خاصة في غرف وصالاته المقر الأصلي. كان البعض أثناء التحقيقات يفاجأ بأقوال نطقوها منذ سنوات، يجري تذكيرهم بها. فيبهتون، وفيما بعد جرى تطوير هذا الجهاز ولكن لا توجد معلومات دقيقة عنه،. والمؤكد أن مسؤولاً بدولة عربية طلب الاطلاع على تصميمه لمحاولة تعميمه على القطر الذي ينتمي إليه بحيث يمكن لرئيسه سماع ما يجري ومشاهدته في كل مكان، لكن الرئيس الثاني قابل ذلك برفض ساخر.

أجهزة الهاتف التي استخدمها المؤسس، ما تزال موجودة إلى جوار مكتبه ذي الدرج الواحد لا غير، يبلغ، عددها سبعاً، بينها هاتف أحمر اللون، لا يوجد إلاّ في الطابق الثاني عشر، إذا دفعه فإن رنيناً يدوي في مكان معين لا غير، إنه القصر الرئاسي، وبالتحديد في مكتب الرئيس، وأحياناً يرد هو شخصياً.

نظام الاتصال الجديد الذي لم يعاصره المؤسس وإن تنبأ بمثله هو «البليب»، مجرد علبة معدنية صغيرة أدق حجماً من علبة السجائر، وأكبر قليلاً من علبة الكبريت، لها مشبك يمكن أن تعلق منه في حزام البنطلون أو الحمالة، أو جيب القميص، يتصل بدائرة لاسلكية ذات قطر معين، فإذا جرى الاتصال بحامله، يرن أو يحدث صوتاً معيناً لمدة متفق عليها أو بشكل مسجل مسبقاً، مثلاً.. صفارة واحدة تعني ضرورة الاتصال فوراً بالرئيس الأعلى. صفارتان تعنيان رئيس القطاع. وهكذا..

أصبح «البليب» رمزاً، فلم يسمح بحمله إلاّ للأشخاص

القياديين على أرفع مستوى، ويبلغ عددهم في المؤسسة كلها سبعة، وقبل انتقال المسؤول من المستوى الأدنى إلى الأعلى، قبل تغيير حجرته، أو إضافة هاتف مميز إلى الأجهزة التي يستخدمها، يعتبر منحه «بليب» علامة مؤكدة، يقينية، لا تقبل الشك، تعني أنه قاب قوسين أو أدنى، لهذا عندما تمّ استدعاء البروفيسور إلى الطابق الثاني عشر، وقام الرئيس الثالث بوضع البليب في حزامه الجلدي الملتف حول جسده السمين بينما يقف مشدوداً، ملتصق الفخذين، عيناه في أقصى حالات جحوظهما، دق قلبه كما لم يدق في حياته، حتى أنه قال لصاحب له يثق به فيما بعد إن الفرحة التي عرفها والنشوة التي اجتاحته لحظة تثبيت «البليب» حول خصره لتتجاوز أي لحظة أخرى عرفها أو سيمر بها في حياته، وأن الأمور لو مضت بدون عوائق، لو أصبح رئيساً لتلك المؤسسة لما شعر بتلك السعادة التي بثها داخله هذا الجهاز الدقيق، الصغير، يبسط يديه قائلاً:

«الحمد لله .. «البليب» معايا وأنا عايز إيه أكثر؟».

أو يشير إليه مقسماً:

«وحياة من نولني «البليب» ده ...».

كان يقف أثناء سيره في إدارات الكراج، أو طوابق المؤسسة ليفك أزرار الجاكتة، ويتظاهر أنه يعدل وضع «البليب»، وأثناء زيارة أقاربه أو الشخصيات الهامة أو الاستثنائية يتعمد إظهاره، وتبلغ سعادته الذروة إذا صدر الصفير المعدني الحاد، المتفق عليه، يتابع دهشة الحاضرين، ثم يشرح لهم المصدر منبهاً إلى خطورة الجهاز، وقلة من يستخدمونه في مصر كلها، كذلك عندما تنزاح الجاكتة قليلاً ويبرز البليب فيلمحه أحد الضيوف ويضطر إلى الاستفسار. فيجيب البروفيسور باختصار أو إفاضة طبقاً لدرجة القرب والعلاقة،

إنه يحتفظ به دائماً، حتى عندما يدخل إلى الحمام ويتجرد من ملابسه ويقف تحت الدش، يضعه فوق الرف، وأثناء مضاجعته لامرأته فإن عينه لا تفارق «البليب»، زوجته تفهمت الوضع، وكانت تشعر أن الأهمية التي يمثلها «البليب» تطالها أيضاً، حتى أنها ذكرته عرضاً أثناء حديثها إلى إحدى صديقاتها في النادي، عندما قالت إن المشاغل تراكمت، والمسؤولية زادت منذ ظهور «البليب» في حياتهما.

لم يغب عن العاملين حرص الرئيس الثالث على مصاحبة البروفيسور في جولاته، وعند مقابلته رجال الأعمال الأجانب، وحفلات الاستقبال. غير أن تزويده بالبليب اعتبر أقوى علامة على تصعيده أو تلميعه بلغة المؤسسة. أما الجواهري فلم يعلق عندما بلغه أن البروفيسور أصبح من مجموعة «البليب» المحدودة جداً، الهامة جداً، جداً، بعد يومين من الصمت، قال:

«هانت المؤسسة على أبنائها إلى هذا الحد ..».

ويبدو أن تأثيره الخفي ليس هيناً، إذ نسب إليه جزء كبير من مسؤولية الأحداث التي جرت فيما بعد، تردد أن ما استفزه، ما دفعه إلى التحرك رغم شيخوخته، ذلك «البليب» الذي لم يحصل على مثله رغم أنه أقدم العاملين، وأخلصهم للمؤسس.

في البداية لم يصدق، بدا الأمر مستعصياً على الفهم، عندما أخبره عطية بك تأكد. لم يعد هناك أي مجال للشك، عطية بك لا يمكن التشكيك في معلوماته، وما يقوله لا يتدنى إلى مستوى الإشعاعات، رغم أنه التحق بعد الجواهري بالمؤسسة، إلا أنه يعتبر صنوه تقريباً، أصغر بعامين، يميل إلى إمتلاء، قصير، يخطو متمايلاً من اليمين إلى الشمال، عكس الجواهري، طويل القامة، بارز

الكرش، نصفه الأعلى مائل دائماً إلى الوراء كأنه على وشك أن يسقط، جفونه غليظة، مرتخية، لذلك يبدو ناعساً أو مستيقظاً لتوه، رخو اللهجة. أما عطية بك فحاد النظرة، مختصر اللفظ، لهجته توحي بالثقة، لا يتكلم إلاّ متمهلاً طوال مراحل عمره، لديه مهابة مؤشرة، وهو أحد الذين اختارهم المؤسس بنفسه لسببين، قدرته على الاقناع، وموهبته في إطلاق الإشعاعات والتي لا يضاهيها إلاّ كفاءة الجواهري في صياغة العبارات.

أما إمكاناته في إقناع الآخرين فترجع إلى رزانته، ومظهره الموحي بخبرة عميقة، طويلة في الحياة، وهذه عناصر مؤثرة جداً عند إبرام العقود مع العملاء المحليين، خاصة المقاولين الصغار، ومتعهدي الحفلات، والحانوتية، وأهل الفراشة، والنظافة، وعمال البوفيه، والقادمين من الصعيد خصوصاً. خلال بناء السد العالي، قام بإنهاء الإجراءات كافة الخاصة بتوفير آلاف العمال، وراعى في ذلك نسباً متساوية بين المحافظات أثارت الدهشة بدقتها، هو الذي حدد أجورهم، ومواقع إقامتهم، وطرق إعاشتهم، كثيراً ما وصفه المؤسس في الاجتماعات العامة بأنه من بناة السد، ولم يكن يجامله أو يبالغ في ذلك.

غير أن الأهمية الخاصة لعطية بك اكتسبها من قدرته النادرة على إطلاق الإشاعات، صياغتها وترويجها، ويحيط الغموض دوره هذا، ولكن ثمة تفاصيل لا ينكرها هو نفسه.

من أغرب الإشاعات التي أطلقها، تلك المتعلقة بالفندق القريب من المطار، عندما قرر مجلس إدارة المؤسسة دخول عالم الفندقة، اختار المؤسس عدة مواقع، أولها منطقة المطار التي كانت نائية عن المدينة في ذلك الوقت، وكانت وجهة نظره أن شركات الطيران سوف تتعامل مع الفندق لقربه، إذ إنه في مواجهة المدخل الرئيسي

مباشرة، ولكن يبدو أن التقرير لم يكن سليماً تماماً في ذلك الوقت، لأن أطقم الطيارين والملاحين والمضيفين والمضيفات يفضلون فنادق وسط المدينة، خاصة المطلة على النيل، والتي ينطلقون منها لرؤية الأهرام أو القلعة ومعالم أخرى. لم تكن مشكلة المواصلات وقتئذٍ قد بلغت حداً عتياً، وكانت المسافة من ميدان التحرير إلى المطار لا تستغرق أكثر من نصف ساعة. الآن ربما تستغرق أضعاف ذلك إذا تعاظم الزحام أو تصادف مرور موكب رئاسي، أو مباراة كرة قدم في الاستاد، أو مرور قطار حربي عند مزلقان العباسية القديم.

ظل الفندق في بدايته شاغراً، عندئذٍ تقدم عطية بك، بوقاره، برزانته، بحكمته البادية، تحدث عدة مرات في أماكن مختلفة، بدءاً من نادي الجزيرة إلى مقهى الكلوب العصري القريب من سيدنا الحسين، إلى مقهى الحاج إبراهيم نافع بالجيزة، ويقصده عدد من الصحفيين.

ملخص ما قاله عطية بك، وما ردده بعض ممن هم على اتصال به، أن كل رجل يضاجع امرأته في إحدى غرف الطابق الرابع والثاني من فندق المطار ينجب ولداً ذكراً، وهذه ظاهرة تكررت منذ أن بدأ الفندق يستقبل النزلاء، حتى أن امرأة سويسرية أنجبت غلاماً أرسلت صورته من مستشفى الولادة ورجت الإدارة تعليقها في مكتب الاستقبال، إنجابها طفلاً يعد معجزة بكل المقاييس، لأنها تجاوزت السابعة والأربعين ولم تنجب قط..

شهدت الفترة التالية إقبالاً لم يحدث في تاريخ الفندقة المصرية منذ خان مسرور في الزمن المملوكي وحتى فنادق الشركات العالمية الكبرى، حتى عرض بعض أمراء النفط هدايا ثمينة ومبالغ طائلة على الموظفين لتسهيل الحجز، لكن.. عبثاً، كانت قبضة المؤسس وقتئذٍ صارمة تطال كل شيء. خلال السنوات الأخيرة وبعد اتساع

المدينة وتجاوزها مبنى المطار واتساع الحركة الجوية خاصة بعد الاضطرابات في بيروت، أصبح الفندق مفضَّلاً لدى شركات الطيران العالمية، حتى أن السويسرية أعدت عنه تحقيقاً خاصاً في المجلة التي توزع مجاناً على الركاب، وتبعتها في ذلك الألمانية، ثم الكورية الجنوبية، هكذا تحقق مشروع المؤسس وإن تمّ ذلك بعد سنوات عديدة.

الإشاعة الثانية بدأت مع دخول المؤسسة مجال الملابس الجاهزة، وريادتها في هذا المجال معروفة، مشهود بها، في البداية ابتكرت النموذج الورقي، والذي يقوم به مندوب خاص، رجل أو امرأة إلى منزل العميل حيث يتم تفصيل المقاس بالضبط بعد اختيار النموذج المطلوب، ثم يجري تنفيذه في المصنع. وتمّ بالطبع تخصيص قسم خاص للمحجَّبات، وفي أقسام العرض العامة التي انشئت في مصر الجديدة، والهرم، وجليم بالإسكندرية، ومنطقة الشاطىء في بورسعيد، كان يتردد اسم الله بصوت مهيب، وقيل إن ذلك يطرح البركة في الزبائن، والبضائع، هذا أسلوب اتبع مع تولي الرئيس الثاني ولم يكن معروفاً من قبل.

بعض المتاجر الكبرى انزعجت من ذلك، خاصة في منطقة المهندسين القريبة من المقر الأُصلي، شن أصحابها حملة قاسية على المؤسسة وتساءلوا عن سبب دخولها مثل هذا المجال، ثم لجأوا إلى سلاح الإشاعات، عندما شككوا في مشروع النموذج الورقي، وقالوا إن بعض المندوبين والمندوبات يتجسّسن على أسرار البيوت أثناء دخولها، وأن لجوء المؤسسة إلى اللافتات الدينية مجرد غطاء، وأن المؤسسة استوردت قماشاً من الغرب، بعد أسبوع واحد من ملامسته الجسم تظهر على الفور علامات الصليب في تشكيلات زخرفية بديعة.

هنا كان لا بد من الاستعانة بخبرة عطية بك وموهبته، بعد لقائه برئيس المؤسسة أدرك الأخير عبقرية المؤسس في اختيار معاونيه الأوائل، حقاً.. لم تتعملق المؤسسة من فراغ!

ترددت إشاعات قوية أثارت ذعراً، ملخصها أن عدداً من أكبر متاجر الملابس الجاهزة، يقوم أصحابها بتركيب آلات تصوير خفية في غرف تجربة المقاسات والنماذج، وبعد أن تخلع الزبونة أو الزبون الملابس يتم تصوير الأجساد عارية، وفي أوضاع مختلفة، وفي المرحلة الثانية يتم إعادة ترتيب اللقطات، وإدخال صور الرجال إلى جانب صور النساء، وهكذا تستخدم الشريفات، العفيفات في أسوأ ظروف ممكنة.

صدف أن سافر رجل أعمال محترم يمتلك شركة للمصنوعات الجلدية، إلى دولة خليجية، دعاه صاحب له إلى رؤية فيلم جنسي غير أوروبي، النساء اللواتي يظهرن فيه عربيات..

فوجىء الرجل منذ اللقطة الأولى أنه في مواجهة امرأته، أم عياله، صدمة مهولة، عاد بعدها على أول رحلة إلى القاهرة، وحتى الآن لم يبح بالسبب الحقيقي لقتلها وتقطيع جسدها وتعبئته في علب عصير الأناناس الفارغة، كل يوم تكتب الصحف عن الأسباب الخفية للحادث، والرجل يبدو كأنه فاقد النطق.. لكن.

عطية بك يعرف، يدلل، يحكي أدق التفاصيل لمن يأتمنهم، بل إنه يمتلك نسختين من الفيلم الذي أصاب الزوج بالجنون، ودفعه إلى ارتكاب ما أقدم عليه دفعاً.

احذروا إذن هذه المتاجر الأنيقة، التي ترفع أسماء غريبة، وتعرض أزياء مبالغاً في أسعارها، لكنها تخفي ما تخفي داخلها من الإيقاع بالمحصنات، إلى ترويج المخدرات، خاصة البودرة، أسماء بعض هذه المتاجر معروفة..

لا يتطرق الشك إلى ما يقوله عطية بك، إن ملامحه رزينة، ونظراته هادئة بعيدة تماماً عن الهوى، يتحدث بتؤدة، باختصار، يلمح كثيراً ولا يصرح إلى شذوذ هذا، أو إصابة ذاك بمرض جنسي معدٍ، إلى تخابر أحدهم مع دولة معادية، في أحاديثه العادية كان يردد دائماً:

«العيار اللي ما يصيبشي يدوش..».

رغم اشتهار عطية بك بقدرته على تخليق الإشاعات وترويجها، إلاّ أن من يعرفونه عن قرب، كانوا يعتبرونه مصدراً هاماً لتأكيد أو نفي أخبار المؤسسة، اهتمامه بالإشاعات يعني أنه يمارس الكذب العمد، لكن ثمة جانب آخر يثق به القدامى، وهؤلاء قلة، يمكنها تمييز الحقيقي من المفتعل في حديثه، أو الموضوعات التي يذكرها.

عطية بك دقة قديمة، بدأ حياته موظفاً في وزارة الأوقاف، قسم الحجج العثمانية، إنه أحد الخبراء القلائل في فك رموز خط القرمة العثماني، وحفظ الوثائق العتيقة ومعالجة آفاتها، ويوماً قدمه المؤسس إلى وفد يمثل إدارة مكتبة الكونغرس للإصغاء إلى خبرته والاستفادة من تجربته مع المخطوطات.

يُضرب بملف خدمته المثل، ناصع تماماً، خلو من أي عقاب أو إنذار، أو تحقيق يمس الشرف أو الكفاءة، تقديراته السنوية مائة من مائة، لم تتأخر علاواته الدورية قط، وحصل أكثر من خمس مرات على علاوات استثنائية، إضافة إلى المكافآت الخاصة المعروفة بحوافز الطابق الثاني عشر إذ إنه تصرف من مكتب المؤسس مباشرة، وأحياناً من يده نفسها، لكن بطل ذلك بعد التأميم.

عطية بك منضبط حتى في ملابسه، حتى الآن يرتدي نوعاً من القمصان ياقاته منفصلة، يتم تركيبها بزراير خاصة، بطلَ هذا منذ

الأربعينات، لكن قرب ميدان التحرير متجر يملكه رجل أرمني تخصص في هذا النوع من القمصان الذي ما زال يرتديه بعض القضاة والمستشارين في المحكمة الدستورية العليا، وكبار الموظفين القدامى المحالين إلى التقاعد.

في الصيف، ذروة الحر والرطوبة يرتدي الحلة الكاملة، ورباط العنق، قبل صياغة أي خطاب رسمي يفكر طويلاً في مدلول الكلمات، ومغزى حروف الجر، ويدقق قواعد الإعراب، كان حذراً تماماً من وقوع أي مسؤولية، ليس عليه هو فقط، ولكن على المؤسسة كلها، لذلك أسند إليه المؤسس كل ما يخص التعامل مع الجهات الحكومية.

إنه يوصي مرؤوسيه دائماً بالتزام الحذر، فالكلام يصل، والأذى يقع، لم ولن ينسى زملاء له زُجَّ بهم إلى السجون والمعتقلات زمن الحكم الشمولي لمجرد وشاية، عندما كان كل شخص يحصي أنفاس الآخر، ويحذر بنيه واخوته، تلك الأيام.. لا أعادها الله أبداً.

يرفع عطية بك يديه إلى السماء، طوال السبعينات كان سعيداً بهجوم الصحف على الحقبة الشمولية، وأطلق إشاعة حول وجود فالق رهيب في الصخور المحيطة بالسد، وأن أي زلزلة شديدة سوف تؤثر على هذا الإنجاز الضخم الذي ساهمت فيه المؤسسة للأسف، عندئذٍ يغرق الوادي كله.

يبدو أنه تلقى تحذيراً، ولكنه نجح في أن يجعل من السد العالي موضوعاً للشد والجذب، للمناقشة، وما زال الأمر مستمراً حتى الآن.

رغم الجرأة التي تقتضيها عملية خلق الإشاعات، إلاّ أنه حذر جداً، في الصباح الباكر يقرأ الصحف الرسمية قبل أن يتناول

إفطاره، وأحياناً قبل أن يغسل وجهه، يطالع الافتتاحيات والأعمدة الرسمية والكتّاب المرضى عنهم، الذين يظهرون يومياً بعد نشرة التاسعة ويواجهون الجماهير من خلال الشاشة الصغيرة، ويشيدون بالإنجازات، كما يستمع إلى التعليقات التي تلي نشرة الثانية والنصف ظهراً، من مجموع هذا كله يصيغ ما يردده بين زملائه، لذلك لم يعبأ كثيراً بمداعبات البعض من زملائه عند مهاجمته الحكم الشمولي، وتذكيرهم له بعضويته في هيئة التحرير، والاتحاد القومي، والاتحاد الاشتراكي ثم حزب مصر وأخيراً الحزب الوطني الديموقراطي الحاكم، يردد بهدوء:

«كنا مجبورين .. كنا مجبورين..».

يثق الجواهري به، بمعلوماته، لذلك عندما سأله عن حقيقة ما يتردد حول صعود البروفيسور إلى الطابق الثاني عشر بعد استلامه جهاز البليب، قال عطية بك إن هذا حقيقي، لم يستفسر الجواهري من أي مصدر آخر، اتجه إلى المقهى القديم الذي اعتاد أن يقصده منذ الأربعينات، خلا بنفسه كعادته عند الوقوف على حد البكاء، ليوضح أموراً لا يمكنه البوح بها إلى أقرب الناس..

إنه يطرق متمتماً:

«هل من المعقول أن تهان المؤسسة إلى هذا الحد.. ثم يزفر أنفاساً ملتاعة

ملّوحاً باصبعه:

«البروفيسور؟!! البروفيسور؟!!

لكن شاء الجواهري أو رفض، خلال هذه اللحظات كان البروفيسور محوراً لاهتمام المؤسسة كلها، بدءاً من المقر الأصلي وحتى الفروع الرئيسية والتوكيلات التجارية والملاحية، والشركات

الأجنبية المتعاقدة، بل إن بعض الصحف القومية بدأت تجمع عنه المعلومات. أما الوكالات العالمية فأعدت منذ زمن لهذا اليوم، تمّ استخراج الملفات الخاصة بالمرشحين السبعة الذين تمّ حصرهم من قبل ولم يتبق إلاّ دفع الملف إلى آلات الإرسال بمجرد الإعلان رسمياً عن الاسم.

الشواهد كافة حتى الآن تؤكد أنه البروفيسور بعد إعلان القيادة السياسية أنه لن يتم السماح لأي مسؤول بالاستمرار في موقعه بعد سن الخامسة والستين.

لم ينتظر بعض رؤساء القطاعات، بل أسرعوا إلى مقر إدارة الكراج لتقديم التهنئة، والإعلان عن التأييد، وحتى نهاية اليوم كان جميع المسؤولين بالمقر الأصلي إما التقوا به أو اتصلوا هاتفياً عدا ثلاثة، رئيس قطاع الحاسبات الآلية، والمسؤول عن العلاقات الخارجية، ومدير المعامل التجريبية، أما الجواهري وعطية بك فلم يفكر أحد فيهما وذلك لأنهما محالان إلى التقاعد منذ سنوات، إنما يشغلان موقعين لا أهمية لهما طبقاً لوصية المؤسس، واقتضى تنفيذها تحايلاً والتفافاً حول قوانين عديدة، ولكن هذا لا يعني أنهما غير مؤثرين، فإذا انعدم نفوذهما على المستوى الرسمي، فإن تأثيرهما الروحي مما لا يستهان به، إنهما أقدم العاملين، ومن الذين وقفوا مع المؤسس منذ المراحل الصعبة الأولى، خاصة الجواهري الذي حمل قوالب الطوب الأحمر وناولها للمؤس لحظة إرساء الحجر التذكاري، القائم حتى الآن، عند مدخل المقر الأصلي، ويوجد نموذج منه في الطابق الثاني عشر، صممه مثّال مصر الأشهر محمود مختار خلال فترة مرضه، وكان ذلك آخر ما أبدعه، جرى ذلك قبل شروع المؤسس في شراء الأرض من أصحابها.

جرت العادة أن يبدي الجواهري رضاه بعد شيوع اسم المرشح

الجديد، أو الخليفة كما يطلق عليه، وبعد صدور القرار يصحب عطية بك، يسمح لهما بركوب المصعد الخلفي العتيق، البطيء، الذي لا يتسع إلاّ لشخصين فقط، ولا يتوقف إلاّ في الطابق الثاني عشر.

فوق .. ينتظرهما عم صديق مرتدياً حلته الكاملة، يفتح الباب منحنياً، تماماً كما كان يفعل للمؤسس، يشير بيده، يتقدمهما، يدخلان المكتب الدائري، حيث ينتظرهما الخليفة الجديد عند حافة البساط التبريزي التي لا مثيل لها في متاحف العالم، والمدوّنة في كتب السجاد العالمية، وكان المؤسس يستعين بالكازاروني خبير الأبسطة لصيانتها، والحفاظ عليها، وغسلها كل ربيع بعرق الحلاوة، ولكن بطلَ ذلك بعد خروج الرئيس الثاني من الخدمة، ويبدو أن خبرها نما إلى زوجة مسؤول كبير يصعب التصريح باسمه الآن، وأرادت نقلها إلى إحدى الاستراحات السياسية ولكن شخصاً ما نصحها ألا تقدم على ذلك، فما من إنسان خطا فوقها إلاّ وأصيب بعلة، ويُقال إن عطية بك هو الذي أطلق تلك الإشاعة ليحمي تراث المؤسسة، المهم.. إن السجادة ما تزال في موضعها، مجلوة، زاهية، محيرة بألوانها وحرير وبرها الأملس كأنها نزلت من النول بالأمس رغم ما لحقها من إهمال في السنوات الأخيرة.

يقف إذن الرئيس الجديد عند حافتها، يدعو الجواهري وعطية بك إلى الجلوس، يتقدمانه، يخلع كل منهما نظارتيه الطبية، يتطلعان إليه باحترام، يقول الجواهري إنه يتذكر اللحظات الأولى التي ولج فيها المؤسس هذا المكتب، كأنها تمر أمام عينيه الآن، ثم يبسط يديه ويطلب قراءة الفاتحة على روح المؤسس العظيم.

بعد الانتهاء من قراءة الفاتحة المباركة يدخل عم صديق متمهلاً، يحمل صينية مذهبة لا يظهرها إلاّ هذا اليوم، فوقها ثلاثة فناجين

من طقم خزف يخص أسرة رومانوف القيصرية الروسية. اشتراه المؤسس من مزاد أقيم خلال الحرب الثانية في شارع عماد الدين بقلب القاهرة.

بعد شرب البن المحوج، المخصوص، يقول عطية بك إنه رأى في المنام المؤسس يرتدي جلباباً أبيض، وعلى رأسه تاج من نور أخضر، يبتسم راضياً، مشيراً إلى المقر الأصلي.

عندئذٍ يترحم الجميع على روحه الطاهرة، ويضع الجواهري وعطية بك فنجاني القهوة، يرتدي كل منهما منظاره الطبي، يقفان معاً، يودعهما الرئيس الجديد حتى حافة السجادة، ويكمل المسافة الباقية عم صديق، حتى المصعد الثاني، الأكبر حجماً، والأكثر سعة، إذ يستوعب سبعة أشخاص متوسطي الحجم، هكذا تتم البيعة غير الرسمية، والتي تمنح العاملين كافة استقراراً داخلياً عميقاً، بدونها يلقى المسؤول الجديد عكوسات وعثرات يصعب معها الاستمرار، ولو فصلنا ما لقيه الضابط المتقاعد لأتضح ذلك، ولكن هذا يخرج بنا عن الحد. ويبعدنا عن القصد.

رغم كل المترددين، والاتصالات الهاتفية، وباقات الزهور التي وصلت بالفعل من جهات شتى، سرى قلق خفي، حاول البروفيسور إخفاءه، وبالطبع نما إلى علم الرئيس الثالث في الثاني عشر اختفاء الجواهري من المقر، واعتكاف عطية بك في بيته متعللاً بآلام البواسير الحادة التي يعاني منها، أو يدعي أنها تهاجمه منذ وفاة المؤسس!

اتصل الرئيس الثالث هاتفياً، وأكد للبروفيسور رضاء القيادة السياسية عنه، وهنأه مقدماً.

عند الرابعة بعد الظهر شوهد البروفيسور يغادر مبنى المؤسسة متأخراً نصف ساعة عن موعده، بدا متجهماً، لكنه ذلك الضيق

المصاحب للشعور بثقل المسؤولية، فسّر البعض تأخيره أن ثمة اتصالات جارية، لكن لا يعرف أحد طبيعتها بالضبط.

قال بعض من التقوا به أن عيناه ازدادتا جحوظاً، وأن ميل رأسه إلى الأمام واضح تماماً، أما خطواته فمتثاقلة، كان فخذاه ملتصقين يعالج عند اخصائي الأمراض الجلدية لما يعانيه من احتكاكات داخلية خاصة شهور الحر، ويحتفظ في مكتبه بعلب بودرة تلك معطرة، يخطو فكأنهما كتلة واحدة، أصابع كفيه مضمومة دائماً، كتفان بارزان، كأنه في تأهب مستمر لتسديد لكمة أو تلقي واحدة من خصم لا يُرى.

من أطلق عليه «القرع العسلي» أو الوصف الأكثر شيوعاً «قلقاسة»؟

رئيس اللجنة النقابية؟

رئيس قطاع الحواسب الآلية الملازم دائماً لمكتبه؟

المسؤول عن مركز البحث العلمي، المشغول الآن بالتحكم في إسقاط المطر، وتوليد الغازات الصناعية من مياه البحر، إنه أقوى المرشحين إلى جانبه، اسمه يتردد منذ مدة باعتباره ممثلاً للفنيين. أما البروفيسور فيمكن اعتباره منتمياً إلى الإداريين، هذا صراع لم يكن له أي أثر بالمرة زمن المؤسس، أو خلال المرحلة التالية لرحيله، لكنه بدأ منذ تولي الرئيس الثاني الذي جاء من كواليس الإدارة.

يبقى السؤال بدون إجابة، من أطلق عليه هذه الصفات؟

ربما بعض العمال الذين عانوا ظلمه وقسوته، ربما عطية بك المبتسم دائماً بهدوء رصين، لكنه يقول دائماً إنه من الحرام الوصف بالعيوب البدنية لأنها خلقة ربنا.

ما بين الرابعة والسادسة اختفى من مكتبه في الجراج، وسجل

سكرتيره عدداً من الأسماء التي اتصل أصحابها هاتفياً وبعضهم لأول مرة، ممثل رئيس الحي، ومدير مستشفى المبرة، ومدير الطاقة الحرارية، ومنتج سينمائي، وصاحب مطعم القارات الخمس.

من الواضح أن الخبر انتشر، يبادر هؤلاء لإبداء الود بعد أن شموا إتجاه الرياح القادمة. المؤسسة منيعة الجانب، راسخة الأصول، شامخة الصرح، يحتاج الآلاف إليها ولا تحتاج إلى أحد. كثيراً ما يتردد عن جوانب الأنفاق والإهدار المالي بعد زمن المؤسس، ولكن الجذور الضاربة، والامكانات المتنامية تجعل هذا كله مثل بحر يلتقط منه طائر حائم بضع قطرات.. أبداً..

ليست المسألة كنزاً خفياً، أو طلسماً سحرياً، إنها باختصار المؤسسة، كثيرة هي المنشآت التي يسمونها بالمؤسسات، مثل هذه لا بد من إضافة الصفة، أو التخصص، فيقال مثلاً، مؤسسة الصناعات الغذائية، أو المؤسسة المالية، وأحياناً يقول المحللون السياسيون، وكتّاب الأعمدة الثابتة في الصفحات الداخلية «المؤسسة العسكرية» أو «مؤسسة الرئاسة». لكن.. إذا ذكر لفظ «المؤسسة» لا غير فإنه يعني ويحدد شيئاً واحداً فقط. إنها المؤسسة نفسها!

ثمة ما يستعصي على الرصد فيها، على التدوين، على التحليل، على كل ما أعده المصريون والأجانب من دراسات وتحليلات وما استخلصوه من نتائج. ثمة ما يغمض على الأبصار، على الإفهام، على الأجيال المتوالية، ما لا يمكن إدراكه بالمنطق، ولا مسّه شعراً أو نثراً.

سر؟

بل أسرار!

ما من إنسان التحق بها حتى انتمى على الفور إلى كل ما مضى

وما هو كائن، حتى الذين جاهروا بالمروق، ولوّحوا بالعصيان يوماً سرعان ما تابوا، وانثنوا وتقدموا عند المحن التي تهددها.

ما من أجنبي غريب عنها جاء إلى مهمة عابرة، إلاّ ويبدأ سعيه للبقاء، للاستمرار، وعند الاضطرار للرحيل يذرفون دمعاً ويسعون وراء السبل كافة التي قد تؤدي بهم إلى العودة مرة أخرى.

طلسم؟

ربما. قد يكون مدسوساً في الحفرة الدائرية، اللانهائية، قد يكون مجرد وهم، لكن هذا الاندماج الإداري، القسري، القادم من ألباب الذوات، حقيقة لا مرية فيها.

هذا الصرح .. هل ينتهي أمره اليوم إلى جاحظ العينين هذا؟

معقول؟

يكاد الجواهري أن ينوح كالنساء، المؤسسة ليست حياته فقط، لكنها مصير، تراث، آلاف يتلقون منها وعنها، وملايين يتطلعون ويسعون.

حرص المؤسس على تأمل أي إنسان يسند إليه مهمة أو إدارة ما، يتفحصه من زوايا عدة، منها ما وصفه بالحضور، لكم قال إن ملامح سعد باشا كان لها أثر في تأجج الثورة، ونفاذه إلى الأفئدة، قال عطية بك إنه سمع سيادته يؤكد على اتصال الجوهر بالمظهر، وهذا لا علاقة له بالجمال أو القبح.

هل يستقر في الطابق الثاني عشر هذا الغبي، الدخيل، المتآمر؟ من أي مصيبة جاء هذا البروفيسور المزيف، ثقيل الظل، شبيه القلقاس.. من أين؟

تمام السادسة ظهراً، استقر المصعد الرئاسي العتيق في الطابق الأول قادماً من أعلى، ولأن استخدامه نادر فلا يلحظ أحد تحركه.

خرج منه البروفيسور إلى الصالة الرئيسية مباشرة، حتى طلع إلى الطابق الثاني عشر؟

لا أحد يدري.

لاحظ موظفو الاستقبال، والحرس الخاص للمبنى أن خطواته أكثر تمهلاً، مع جحوظ زائد في عينيه، كما أنه بدا مهموماً، ذلك النوع المستجد من الهم على من فوجئوا بتحمل المسؤوليات الجسام، قبل صعوده إلى السيارة أومأ إلى السائق على غير عادته، إذ كان يطالع الناس بجبهته البارزة التي تبرز نظراته الحادة، العدوانية، بسرعة ألم بمدخل المؤسسة، والواجهات عند الطرف الآخر من الشارع، خاصة المقهى الأنيق الذي إطلع المؤسس على تصميماته قبل الشروع في المبنى كله. يؤكد العاملون القدامى أن سيادته خطط وموّل إنشاء عدة مقاهٍ تحيط بالمقر الأصلي، يقصدها الموظفون، والعمال، والفنيون، يدس بينهم من ينقل كل كبيرة وصغيرة، في المقاهي يكون الإنسان أكثر راحة، أقرب إلى طبيعته، يمكنه أن يفضفض.

عندما زار سيادته موسكو في أول بعثة لرجال الأعمال المصريين توجهت في الخمسينات، لاحظ أن المدينة ينقصها شيء ما. عنصر هام ينال من اكتمالها ورسوخها، ثم اكتشف قلة المقاهي، بل ندرتها، قال ضاحكاً إن النظام السياسي وراء ذلك، فلا يريدون للناس أن تتلاقى وتتحدث، تتقارب، وربما يبدو هذا صحيحاً من وجهة نظر الأجهزة الأمنية القاصرة.. لكن على المدى الأبعد فيه الخطر كله.

من سمعوه يقول ذلك سنة سبعاً وخمسين وتسعمائة وألف ظنوه يمزح، أو يسخر، كان معروفاً بعدائه للشيوعية ودعوته للتعامل مع الدول الاشتراكية أيضاً، ولكن بعد مرور حوالى خمسٍ وثلاثين

سنة كتب صحفي متقاعد، مريض الآن، صحب الوفد في بداية ارتقائه السلم الصحفي، ذكر ملاحظات المؤسس، ليست المتعلقة بافتقاد المقاهي فقط، وإنما المتصلة بسائر الأوضاع، خلص منها إلى القول بانهيار البنية وفساد النظام في مدة لن تتجاوز الثلاثين عاماً، ثم عقب قائلاً:

«رغم اعجابي بالمبادىء ..».

كأنه كان يرى الغيب، هكذا علق الصحفي، أشاد به وترحم عليه.

للمؤسس آراء هامة في موضوع المقاهي، مع أنه ليس من روادها المنتظمين، وهذا موضوع يطول الحديث فيه، لكن هذه المقاهي القريبة، المحيطة بالمقر الأصلي لم تنشأ من الصدفة، ولا من سوء التخطيط، يعرف البروفيسور بانتشار رجال أمن سريين، يرقبون المقر الأصلي ويرصدون اقتراب أي غريب منه، ثمة تهديدات كثيرة تصل بانتظام، بعضها من داخل البلاد، جماعات متطرفة، وأخرى عقائدية، وعصابات تعمل في التهريب، وتزييف العملة، والأنواع العالمية من العطور ومستحضرات التجميل، وشخصيات هامة لها علاقة بتجارة السلاح. هناك أيضاً جهات دولية وأنظمة سياسية معادية للمؤسسة حتى في ظل علاقات دبلوماسية جيدة مع القيادة.

جوانب معقدة، أنشطة متشابكة، مسؤولية كبرى يتطلع إلى شغلها أي إنسان في الدولة حتى أولئك المستقرّون في المستويات العليا.

مسؤولية جسيمة، لكنها تعادل المجد نفسه، ولديه من الأسباب ما يجعله يسعى ويسعى ثم يتشبث بها قدر الإمكان، هدفه الحقيقي، خدمة المؤسسة والنهوض بها، لكن.. بالتأكيد أمور كثيرة يجب أن تتغير.

ليس هذا وقتاً ملائماً للإفصاح عن خواطره كافة، وما يعد له من خطط، وأفكار.

الوقت غير مناسب الآن.

إن نشوة تنتابه، حتى أن إنعاظاً يدركه، تسري داخله رغبة جنسية هادئة، متصاعدة على مهل، مع أنه لم ير امرأة لفتت نظره، أو فتاة من المترددات على المقر لأسباب شتى، ولم يلمح هانم مديرة الصادر والوارد، لا يراها إلاّ ويخف منتشياً، تتغير مكوناته، لكنه لا يفصح، ولا يومىء، ما يسمعه عن العلاقات بين الجنسين في المؤسسة مثير، غريب، لكنه بعيد، موقعه في الجراج لا يجعله على اتصال يومي مباشر بالإناث، لا يتعامل إلاّ مع المهندسين والعمال والموظفين الإداريين، ليس هذا سبباً وحيداً، لكنه إنهماكه الشديد في العمل، وقضاء الساعات الطوال جالساً خلف المكتب حتى أصيب منذ عامين بآلام حادة في الرقبة، طبيب المؤسسة الأول نصحه بممارسة أي رياضة، المشي يومياً لمدة ساعة على الأقل، لكن.. أين الوقت؟

عندما قرر له الطبيب ارتداء رقبة صناعية من البلاستيك لتقديم فقرات العنق، واجهته مشكلة، لأن رأسه يتصل مباشرة بكتفيه، رقبته مختصرة إلى أقصى حد، لا تلحظ، كان من الصعب على أخصائي الأطراف الصناعية إيجاد مقاس ملائم له، لم تحل المشكلة إلاّ بعد وصول طبيب يوغسلافي إلى مستشفى القوات المسلحة بالإسكندرية، نصحه بإجراء تمرينات معينة لمدة تسعين يوماً لا تزيد أو تنقص، وفي أوقات محددة، بعضها يتخلل نهار عمله الرسمي، ولكم عانى حرجاً في البداية عندما يتخلى عن مكانه في اجتماع هام. أو يعتذر لمهندس يناقشه في أمر ما. ويقوم إلى الجدار ليتكىء بمرفقيه، ثم يتراجع إلى الوراء بسرعة ليرتد مرة أخرى، أو يشبك

أصابع يديه خلف رأسه ويتطلع إلى السقف، أو يجثو على أربع محركاً دماغه ذات اليمين وذات الشمال.

لكم تألم، ولكم سخروا منه، لكن لم يكن هناك بديل، للتغلب على تلك الآلام الفظيعة.

يستنشق الهواء، لا يخرجه للحظات، إنه يعرفهم بالأسماء، على علم بما يتهامسون به، ويتبادلونه من أوصاف ساخرة، ولكن، ليس الآن، ليس الآن!

عندما فارق السيارة أمام بيته حرص على التمهل، والتحية بتحفظ، كما سمح للبواب بحمل حقيبته ذات القفلين المزوّدين بأرقام خاصة، عدا ملف ورقي حرص على حمله بحرص، اتجه مباشرة إلى المصعد، ينتظر البواب إلى جواره تقريباً.

بعد صدور القرار ستتغير أشياء عديدة، أولاً .. سيتم إدراج اسمه بين الشخصيات التي يتم حمايتها بواسطة قسم الحراسات الخاصة، سوف يخصصون له مرافقاً أو اثنين. كل منهما مسلح بمسدس سريع الطلقات، وخنجر معلق إلى رباط يحيط بالساق، سيجلس في المقعد الأمامي، وإذا جاء إثنان، يمكن لأحدهما أن يقود السيارة، أو يجلس إلى جواره، أو يتبعه في عربة أخرى، فكرة جديدة حقاً تتناسب مع خبرته وسنوات عمره التي أمضاها في الجراج، سيصحبه الحارس كظله، يسبقه إلى قاعات الاحتفالات والفنادق الكبرى.. بل إلى بيوت الأصدقاء وكبار رجال الأعمال الذين سوف يتسابقون لدعوته، لمثوله في اجتماع، أو حفل غداء أو عشاء، يكفي أنه عاش عمراً يرى بعينيه المظاريف الأنيقة تحمل البطاقات المذهبّة الحواف بلغات مختلفة إلى من يستحق ولا يستحق في المؤسسة، عداه هو.. من يهتم بمدير الجراج؟ ماذا يعني صاحب المنصب لهم؟ لا يدركون أهميته وخطورته الماثلة، الكامنة..

على أي حال، أمامه فرص عديدة ليمتنع، ليلبي، ليوافق، ليرفض، إيماءة منه تثير ردود فعل شتي، وهزة صغيرة من رأسه التي يعرف ما يقولونه عنها ربما تفتح بيوتاً أو تغلقها. لقد انتظر طويلاً، وها هو قاب قوسين..

عندما يعين الحارس الخاص سيصبح هناك وضع آخر لدخوله العمارة، لخروجه، ماذا سيقول الجيران عنه؟ سيدرك الأولاد الأهمية المحاط بها والدهم، سيشعرون بأهمية فائقة منذ الآن، يتقدمون في العمر وهم في سيادة.

صحيح أنه يتمنطق الآن بجهاز «بليب»، دقيق، رقيق، لا يناله إلاّ قلائل معدودون، لكن.. من يتاح له رؤيته؟ وإذا كشف عن موضعه بإزاحة الجاكتة قليلاً فإنه يلفت النظر أحياناً، وفي معظم الأحوال لا ينتبه إليه الضيوف والأقارب، أما الحارس فهيئته ظاهرة، ومكانته سافرة تعلن عن نفسها.

لكن .. يجب الانتباه، عندما يصل إلى المقعد الدائري في الطابق الثاني عشر ستصبح حياته مهددة فعلاً، سيعتبر هدفاً في نظر جهات شتى.

لن يسمح إطلاقاً للحارس قضاء حاجات البيت، يعرف مما يسمعه في المؤسسة أنهم يتطوعون لمثل هذه المهام، شراء الخضر، معاينة الأسماك للتأكد من طزاجتها، انتقاء الأرغفة المخبوزة جيداً، الانتباه لحظات قطع اللحم، لكن.. هذا خطأ.

سيحذر زوجته وأولاده، سيكون هناك بدلاً من الخادم اثنان وربما ثلاثة، أما الحارس الخاص فيجب ألا ينسى مهمته حفاظاً على حياته، ربما يطلّ الخطر فجأة، في اللحظة التي لا يتوقعها إنسان، عندئذٍ يجب أن يكون الحارس متأهباً باستمرار لتلقفها. للتصدي لها، لدرء الخطر الكامن فيها.

صحيح .. ربنا كريم..

منذ سنوات يتمنى مجيء يوم يتم فيه تعيين حارس خاص له، صحيح أنه حصل على ما يعتبر أهم وأرفع، جهاز «البليب»، لكن الحارس يراه الجميع، حتى من يجهلهم عند عبوره إشارات المرور، وتقاطع الطرقات، وركاب تلك العربات الفاخرة الذين يتطلعون عبر زجاجها المغلق وهم يتظاهرون بالحديث عبر أجهزة الهاتف أثناء قيادتهم.

جلوس الحارس في المقعد الأمامي قيمة ومنظر وهيئة..

باعتباره مديراً للكراج لم يكن له أي حق، لو طالب به لسخروا منه في المؤسسة، لا يوجد تهديد مباشر لحياته، وهناك أجهزة أمنية على أرفع مستوى تقرر من يجب حراسته.

منذ عامين فوجىء بمدير العلاقات العامة.. لا .. الأدق أنه فوجىء بعبده النمرسي يدخل المؤسسة ويمشي خلفه حارس نحيل، أسمر ثم أصبح لا يفارقه، ينتظره أمام دورات المياه، يفتح له باب السيارة، ويتقدمه إلى الأماكن التي سيجلس فيها، ويتفحص النوافذ والشرفات وينظر تحت المناضد والمقاعد، بل ويتذوق الطعام قبله، يومها سأل، وعندما تأكد ذهل عن نفسه.. والله، والله لو قال إن هذا اليوم من أشأم وأسوأ أيام حياته ما كذب، عبده القواد، صاحب السيرة التي يعرفها كل إنسان، والسمعة التي تفوح رائحتها حتى تبلغ بلاداً خارج مصر؟! ولكن.. هذا موضوع يطول الحديث فيه..

لكم أخفى، إحتمل، يوم رؤيته حارس عبده النمرسي وجم، مع ذلك بدأ يستقصي ويسأل، يستفسر خفية وعلانية، بل إنه رفع سماعة الهاتف، اتصل به، استفسر عن سبب ظهور الحارس؟

يعرف العاملون الأصلاء بالمؤسسة صلة النمرسي بالعديد من العمليات المشبوهة، علاقاته الخاصة جداً بأثرياء النفط وخبرته الطويلة في معرفة أمزجتهم وأهوائهم، لهم صلات ومعاملات وكثير من العمليات الضخمة التي تدر مقادير هائلة من العملة الصعبة لا تتم لمساتها الأخيرة إلاّ على يدي النمرسي، هذا جانب يلفه غموض كبير، الشائعات حوله أكثر من الحقائق، إنه من الشخصيات المحيرة، المشاعر تجاهه مختلفة، متباينة، لكنه لم يدخل في خلاف حاد مع أحد، لم يبد ضغينة لإنسان، بالعكس.. كان دائماً هو المسارع بالمجاملة، وارسال الورود، وبطاقات العزاء أو التهنئة، ليس بصفته مديراً للعلاقات، ولكن بدافع من مشاعره الشخصية، الجواهري نفسه يبدي ناحيته الود، بل.. الاحترام، رغم أنه يتجنبه، ينأى عنه، لكنه لا يستطيع أن يتجاهل دور المؤسس في إلحاقه بالعمل، إنه من آخر الذين انتقاهم بنفسه، لم يغير اسمه، ولم يخجل منه، بل إنه الوحيد في المؤسسة الذي يرفع سماعة الهاتف ويبادر بالحديث قائلاً:

«عبده النمرسي معكم .. تفضلوا!».

قال إنه تلقى خطابات تهديد موقعة باسم جماعة دينية متطرفة ارتكبت عدة عمليات اغتيال مؤخراً خاصة في محافظتي الفيوم والجيزة، أرسلها إلى إدارة مكافحة الإرهاب، بعد بحث دقيق وتحريات مكثفة ثبت أنه مهدد فعلاً.. هكذا تمّ تعيين الحارس.

يومها أصغى متشككاً، هل ينطق النمرسي صدقاً؟ لن ينسى أبداً ما انتابه من غم، حتى إنه لم يقبل على الطعام يوماً كاملاً، وبعد استغراقه في النوم بحوالى ساعة صرخ بأصوات غير مفهومة، بعد أن أيقظته امرأته برفق، توسلت إليه أن يتذكر أطفاله الأربعة، في هذا الزمن الذي لا ينفع فيه عم أو خال، يجب أن يصارحها

بأسباب كمده، يجب أن يخرج من حزنه حرصاً على العيال.

صباح اليوم التالي شرب الشاي باللبن، وأكل البيض المقلي بالزبد، وقرن الفلفل الحامي الذي لم يقلع عنه في الوجبات الثلاث حتى الآن رغم إصابته الحادة بالبواسير.

أفضى إليها بالسر الذي أقضّه وأمضّه وعلقم وقته، خشي أن يكون ظهور الحارس وراء النمرسي تمهيداً للترقي، ليس تجاوزه فقط، إنما صوب المناصب العليا، لن ينسى أبداً ما قاله عم جويلي أقدم السائقين قبل إحالته إلى التقاعد بأيام:

«كل شيء يمكن أن يحدث في المؤسسة، وأي شيء يمكن ألاّ يحدث..».

«كيف؟».

لم ينطق جويلي، لم يفسر، مضى منطوياً، منقضياً، الآن.. يتقدم من موقع يمكنه فيه معرفة كل كبيرة وصغيرة، ما ظهر وما خفي، منذ ثلاثة شهور فقط لو أن أحدهم لمح له بترشيحه رئيساً للمؤسسة كلها. لزغر صوبه، وأسمعه ما لا يليق، لا يقبل أبداً من يسخر، ولكن لم تمضِ أيام قليلة إلاّ واستدعاه إلى مكتبه الدائري في الطابق الثاني عشر.

في البداية لم يخطر له قط أي احتمال بإعداده للخلافة. ولكنه أدرك ذلك في المقابلة الثالثة والتي حضرها عبده النمرسي شخصياً ولم يتكلم إلاّ قرب انصرافه عندما سأل سيادته عن الموعد المناسب لإحضار مندوبي الصحف؟

لهجة السؤال، عينا عبده النمرسي، هيئته المتطلعة، أوحى له هذا بجوهر ما يجري، منذ تلك اللحظة بدأ يتجه في كل تصرف صغير أو كبير صوب سيادته، يراه في سكناته وحركاته، في خلوته يقيم

له اعتباراً كأنه يواجهه، شيئاً فشيئاً بدأ يتهيأ..

يعرف الدكتور أن تحريات مكثفة أجريت حول مدير قطاع البحوث، وحول رئيس قطاع الحواسب الآلية، تحرّز من الأول، واستبعد الثاني بسبب إيثاره العزلة، وصمته الدائم، وعدم اشتراكه في أي نشاط عام يقيمه العاملون، غير أن شائعة سرت في المؤسسة عن زيارته المسائية المنتظمة إلى منطقة القلعة، وجلوسه في مقهى شعبي وحيداً عند ناصية شارع الماس الحاجب، ينتحي ركناً قصياً، لا شبيه له في الإنفراد.

يبدو أن الرقابة المستمرة رصدت تردده اليومي وعجز المحللون عن تفسير ذلك، وأن مسؤولاً كبيراً في جهاز أمني سيادي كُلف بمهمة تتعلق به خلال الأسبوع الأخير من الشهر الماضي، وأنه قال عصر يوم السابع والعشرين منه: كيف يمكن لمثله أن يدير مؤسسة كهذه؟ مؤسسة ضخمة لو اهتز مركزها المالي لتضحضح مركز الجنيه على الفور في مواجهة العملات الأجنبية خاصة الدولار.

استبعده البروفيسور، ومع ذلك لم يهمله، إذ أبدى سخرية واضحة أمام أعوانه المخلصين في الكراج من أولئك الذين يدرسون الحواسب الآلية في اليابان وأوروبا، ثم ينتهي المطاف بهم في المقاهي البلدية، يدخنون النرجيلة ويلعبون الطاولة!

غير أنه كفَّ عن هجومه المستتر عندما أحدث عكس ما أراد، إذ سرى اعجاب بين العمال وصغار الموظفين بهذا الجانب المجهول من شخصية رئيس قطاع الحواسب، بل سعى بعضهم إليه في المقهى، التقوا به فعلاً، أبدى ترحيباً وأصرّ على دعوتهم إلى مشروب ساخن لكل منهم، لكنه لزم الصمت بمجرد جلوسهم، لم يتحدث إليهم، ولم يتطلع إلى أي منهم مما أشاع عندهم قلقاً وحرجاً. قاموا منصرفين معتذرين عن الإزعاج..

قرر البروفيسور توجيه جهوده ضد مدير قطاع البحوث، بعد تأكده من تحركه في عدة اتجاهات، غير أن ما أثار قلقه نشاط شقيقه تاجر السيارات.

إنه يمتلك معرضاً من طابقين قرب ميدان باب اللوق، بالتحديد في شارع جانبي متفرع من شارع البستان، يعلن عنه أسبوعياً في الصحف القومية الثلاث كل يوم جمعة، مساحة ثابتة يحجزها ويدفع قيمتها مقدماً، يبدو والله أعلم.. أنه يقوم بأنشطة تجارية أخرى، ربما يدخل بعضها في دائرة المحرمات، لكن البروفيسور في حاجة إلى من يوفر له معلومات موثقة، السوق كله إشاعات، ثمة من يقول إن معرض السيارات مجرد واجهة لتجارة المخدرات، خاصة البودرة، وآخرون يؤكدون أنه قام بإدخال كمية كبيرة من الهيروين في إطارات استوردها من أفغانستان عبر إحدى دول السوق الأوروبية المشتركة، ربح عدة ملايين ولكنه لم يستمر، صفقة واحدة فقط تؤمن ربحاً هائلاً يكون منطلقاً لتجارة أخرى مشروعة.

من يدري؟

المهم .. شقيقه هذا له نفوذ في الوسط الفني، ويتبرع بين الحين والآخر بمبالغ للحزب الحاكم، كما أنه يسهر كل أسبوع في عوامة ترسو قرب كوبري الجامعة، يتردد عليها وزراء، ومسؤولون في مناصب حساسة، يسهم أيضاً في فندق مينا هاوس لأنه يفضل القاعة الشرقية هناك، بالطبع لا يتناول العشاء بمفرده، إنما يدعو سبعة أو ثمانية من المرموقين، المؤثرين، أساتذة طب بارزين، أصحاب قرى سياحية شهيرة بالغردقة وشرم الشيخ وأسوان، وبعض ضباط كبار ما زالوا في الخدمة، وأصحاب مصانع في مدن السادس من أكتوبر والعاشر من رمضان..

شقيقه هذا أخطبوط، له صلة يبعض ممن يؤخذ رأيهم عند إعداد القرار، ولا بد أنه يوظف علاقاته كلها لدفع أخيه إلى الطابق الثاني عشر، منصب خطير يفوق بكثير أهمية أي وزير أو مسؤول كبير.

على أي حال وضح الآن الأمر، فالقرار على وشك الإعلان، والقيادة السياسية تضع في الاعتبار التقارير العلنية والخفية، واتجاهات الرأي العام داخل المؤسسة، لكن رأي رئيسها هامّ جداً، واختياره له معروف منذ مدة. لم يبق إلا إجراء واحد، خطوة لا غير ويلج المكتب الدائري، يستقر نهائياً في الطابق الثاني عشر.

يكاد يستنشق العطور الفواحة التي سيعبق بها فضاء المكاتب والغرف المخصصة له، النساء الجميلات اللواتي سيبدأن السعي إليه، جلوسهن أمامه حاسرات عن مقدمات عوالمهن المثيرة، يعاوده ذلك الاستنفار الشبقي العجيب، ليدخر طاقته، تنتظره أيام طويلة حافلة بالمتعة، بالسفر، بكل ما حرم منه.

يدخل بيته كما ينبغي لأي مسؤول مثقل، يتحرك على مهل، أول ما نطق به السؤال الذي اعتاد ترديده منذ أسبوعين..

«من سأل عني؟».

كان يدقق الأسماء التي لم تلتقطها زوجته جيداً، أو التي لم تعن بتدوينها، منذ ثلاثة أيام استفز حتى أوشك أن يرفع يده ويصفعها لأول مرة منذ زواجهما لأنها كتبت «مرسال» بدلاً من «عبد العال».. العقيد عبد العال من المباحث العامة، اتصاله في هذا الوقت يعني الكثير، صحيح أنه عندما بادر وتحدث إليه هاتفياً، لم يسأله بشكل مباشر عن أي شيء يخصه، استفسر عن أمور تتعلق بشاب فني في الجراج أطلق لحيته مؤخراً، ولكن كل كلمة يقولها الآن ترصد، وتحسب عليه..

عليه الحذر، الانتباه ..

أحضر دفتراً صغيراً، فوقه قلم حبر جاف بدون غطاء. قال لها: «اكتبي الأسماء مباشرة.. بمجرد سماعها..».

أومأت بسرعة، الحقيقة أنها ممتثلة تماماً للظرف، لا تسفر عن سخافاتها التي تحملها طويلاً من أجل الأولاد، وإذا رجع متأخراً لا تقابله بملامح متجهمة، لأول مرة منذ اثنتين وعشرين سنة يشعر أنه يفك، أنه ينأى عن أسارها إلى حد ما، يسأل نفسه كلما انصرفت عنه أو أولته ظهرها خلال الأيام الأخيرة..

هل تصلح لمقتضيات المنصب الجديد؟

ماذا يقولون عنها عندما تظهر إلى جواره في حفلات الاستقبال؟ والدعوات الموسمية والمناسبات الرسمية، زوجة الجالس في الطابق الثاني عشر شخصية عامة مثله تماماً، لا يخلو منها باب صحفي من أبواب المجتمع، ولا مجلة فنية أو نسائية، وأحياناً تظهر على الغلاف، كانت زوجة الرئيس الثاني جميلة، تشبه مريم فخر الدين نجمة السينما التي يعتبرها البروفيسور مقياساً ومرجعاً للجمال الأنثوي، ويبدو أن المؤسس كان معجباً بها أيضاً ويقال إنه يوجد عدد من مجلة «المصور» يرجع إلى الأربعينات على غلافه صورتها وهذا محفوظ في الحجرة الخاصة بمخلفاته التي عثروا عليها داخل المقر الأصلي.

سيتأمل تلك المخلفات على مهل، لن يتعجل.. هذا كله سيتم في الوقت المناسب، غير أنه يعود للتفكير في زوجته هذه!

تعرّف إليها في الجامعة، كانت تجيء من مقر كلية الفنون التطبيقية حيث تدرس النسيج والصباغة، إلى مبنى كلية التجارة حيث يدرس.

كان في السنة الرابعة النهائية، وهي في الثانية، كانت تجيء لتزور شقيقها وتشرب الشاي في المقهى الصغير المجاور، ليتها لم تأتِ.. ليته لم يرها..

لكنها والله طيبة، بيضاء السريرة، صافية القلب..

ظهورها المبكر في حياته، وارتباطه لم يتيحا له فرصة المرور بتجارب شتى، أتيح له فيما بعد أن يبدأ ولكن لم يكمل، كتمت على نفسه، كانت تشم الخطر من بعيد، مع أن عمله بالكراج أقصاه عن أي احتكاك بنساء المؤسسة، سواء العاملات أو من يترددن، لكن.. ألم تحفظ بيته؟

ألم تقم على تربية الأولاد والمذاكرة لهم؟

ألم تتح له فرصة التفرغ لأداء عمله بجلد، وكفاءة، حتى لفت إليه الأنظار. وها هو على وشك الوصول إلى الطابق الثاني عشر، إلى تحقيق كل ما حرم منه، ما لم يعشه..

في هذه السن المبكرة، عندما كان طالباً بالجامعة، تجنب الاختلاط كان يعي تماماً غرابة مظهره، بروز جبهته، وازورار عينيه، كثيراً ما لمح السخرية في عيون الطالبات عند مروره بهن. عندما التقت نظراتهما أيقن أن شأناً بدأ بينهما، وعندما استدارت لتنصرف حسم أمره، كان ساقاها كما يرغب تماماً، مرتويان، أملسان، تقوم أعلاهما استدارتان مرتويتان، مثقلتان، تميلان إلى أسفل رغم اتجاههما إلى أعلى.

رغم إنعدام تجاربه في ذلك الوقت، وعدم خبرته بالجنس الآخر، حتى إنه لم يكن يدري ماذا يجب أن يقال عند الخروج لأول مرة معها، وهل من اللائق أن يلامس أصابع يدها؟ وعند عبورهما الطريق هل يمسك ذراعها؟ بل إنه لم تكن لديه فكرة واضحة عن

اتصال الرجل بالمرأة، بعد زواجه بسنوات عديدة، وبعد سفره إلى أوروبا ورؤيته أول فيلم جنسي اكتشف أنه أهدر عمراً، وأن الجهل حرمه من أوضاع كان يمكن أن تبدل أفقه تبديلاً، وعندما حاول بعد عودته قالت له بحسم: اختشي يا رجل.. نحن لم نعد صغاراً..

يتطلع إليها صامتاً، محتقن النظرات، مردداً بينه وبين نفسه: لماذا لم تصر على موقفها القديم؟ لماذا تراجعت عنه؟

عندما تقدم إلى شقيقها، طلب أن يمهله يومين، بعدهما رجع إليه ليقول إنه ما من اعتراض عليه من ناحية الخلق أو النسب، المشكلة أنها تريد شخصاً يحمل مؤهلاً مساوياً لمؤهلها، بعد تخرّجها. ستحصل على بكالوريوس الفنون التطبيقية، وهذا يعطيها الحق في عضوية نقابة المهندسين.

هل من المعقول أن تقبل بكالوريوس تجارة؟

ما يناسبها بكالوريوس زراعة على الأقل، طبعاً الوضع الأمثل خريج هندسة. حلم أي فتاة من طالبات الآداب أو الحقوق، والكليات الشبيهة..

لا .. لا يمكن أن تقبل، إما مؤهلاً مساوياً تقريباً لمؤهلها أو لا داعي، إن المرتب الذي ينتظرها بعد التخرج، والمكانة لا تجعلها قلقة، شركات النسيج الكبرى تسعى منذ الآن للتعاقد مع أوائل الدفع المتعاقبة، والمتفوقين.. لماذا القلق؟ لماذا تتعجل وتقبل بكالوريوس تجارة؟

غير أن شقيقها كانت له وجهة نظر أخرى، أخته ليست جميلة، أنفها كبير، وثمة تنافر واضح بين ضمور نصفها الأعلى، وضخامة الأسفل، ثم إن أعداد الخريجين في تزايد مستمر، صحيح

أن المؤهل الجامعي كان له قيمته حتى ذلك الوقت، وكان الخريج يكتب يزهو درجته العلمية في البطاقات وعلى اللافتات التي توضع على أبواب الشقق، وصناديق البريد الصغيرة، وينطقونها عند التعارف، ولكن فتح أبواب الجامعة أمام تلك الأعداد كلها، والإعلان عن جامعات جديدة في الأقاليم، من الأمور المثيرة وقتئذٍ، ولكن شقيقها كان يشعر بشكل ما أن مؤهل أخته ميزة لن تستمر طويلاً، أو ربما كان مثل والدتها تماماً التي تتمنى أن ترى ابنتها في بيت «العدل»..

هكذا .. وجدت فيمابعد نقطة تفوق تبرزها، ظلت تستخدمها حتى عودته من أوروبا، إذ تتأزم أمورهما، تخبط صدرها بيدها، تقول شاكية:

«أنا أستحق كل ما جرى لي .. بكالوريوس فنون تطبيقية يقبل بكالوريوس تجارة.. مهندسة وتقبل محاسب؟!»..

يبدي استهانة، يقول إنها تحاول الانتساب إلى المهندسين، كليتها تضم نسبة من خريجي مدارس الصنائع، ثم.. ماذا يعني تخصصها في النسيج والصباغة؟ أي عامل في المحلة يفهم أكثر منها، أما الصباغة فما أبأسها بما تحويه من أحماض وقلويات، وألوان مستخرجة من ديدان، وجذور نباتات عطنة..

إنها تعود إلى البيت أحياناً ورائحتها لا تطاق..

يمثل قوله هذا ذروة استفزازه لها، هددت أكثر من مرة بمفارقة البيت، أن تترك له كل شيء، أن تدع الجمل بما حمل..

عندئذٍ يزداد بروز جبهته، تصبح عيناه أضيق، يميل بجسده كله إلى الأمام.

«يا الله .. خلصيني..».

هنا تنهار باكية، تندب حظها، تنعي قلة عقلها، هي خريجة الفنون التطبيقية التي قبلت خريج تجارة.. مجرد محاسب!

عندما حصل على المنحة التدريبية في جمهورية رومانيا الاشتراكية، كفت تماماً عن مجادلاتها، بل لانت قليلاً في الفراش حتى كادت أن تتخذ الوضع الذي رغبه، ولم يستطع التصريح به أحد عشر سنة كاملة، كان يتحايل دائماً، وعندما يصبح على وشك تستدير ناحيته وفي عينيها حذر عظيم.

لكن.. ليلة سفره كانت مؤثرة، لا يستعيد لحيظات منها إلاّ ويدمع تأثراً، عانقته، أقبلت عليه، قالت باكية إنها بدونه لا قيمة لها، في غيابه تتجرأ عليها الكلاب، تحاول نهشها مع الأطفال.. ليس لها غيره، إنها تزور بيت شقيقها الآن كالغريبة، لا تمكث فيه إلاّ وقتاً قصيراً، وأحياناً تخجل من الذهاب إلى دورة المياه إذا أدركها حصر، امرأته جافة، لا ترى منها ريقاً مليحاً، بل إنها أحد الأسباب.. صحيح أن الأعمار بيد الله، لكن جفاءها في مواجهة حماتها أصاب المرأة الوحيدة بكمد، عجّل بقضائها..

الحق أنه تأثر، وكلما استعاد لفظها ونبراتها وهن عزمه، يتمنى إلغاء المنحة فجأة، لكن بمجرد إقلاع الطائرة، كأنه رمى عن روحه أثقالاً فادحة.

بعد وصوله مباشرة، تفتحت في صدره طرقٌ شتى، طق لهيب الرغبة من عينيه حتى أن أول فتاة دعاها في الملهى الليلي أبدت خوفاً وخشية، قالت له مداعبة إن نظراته تحرقها..

حتى الآن يعيش على المدة التي أمضاها هناك، يستعيد لحظات متعة، منبتة عن كل قيد، الغريب.. أنه بمجرد عودته تعرف بامرأة شابة، ممرضة جاءته لتعطيه حقنة في العضل، وعندما استدارت، تمكن بعينيه من ساقيها ومؤخرتها، أضمر العزم، وانتابته جرأة لم

يعرفها، ما رآه منها لم يعرفه من قبل، حتى إنها حالت بينه وبين امرأته، يبدو أنها أدركت بحاستها الأنثوية، خاصة في المرات التي يعود فيها من الخارج ويتجه مباشرة إلى الحمام متظاهراً بالتعب والإرهاق، لكنه يحاول إزالة ما علق به منها، لم يعرف ولم يسمع عن جسد أنثى يفوح بهذه القوة المسكرة، مع أنهما لم يتجردا من ثيابهما تماماً، فقط ما يسمح به الوضع داخل عربته، في طريق المطار، أو كورنيش المعادي، أو بعض شوارع المقطم.. كان يخطط لأسبوع يمضيانه معاً في الإسكندرية..

شيء غريب، مهما بدا من غباء المرأة، فإنها ترصد ما يتعلق بزوجها مهما أخفى، ومهما بلغت مهارة التمويه، لكن.. الوضع مختلف تماماً الآن، مسؤولياته ضخمة، ويمكن أن يقيم خارج البيت عدة أيام متصلة، يتحدث أو لا يتكلم عبر الهاتف، عليها أن تفهم ذلك، حديثها عن الطابق الثاني عشر مقره المنتظر، عن المكان المجهز لإقامته، لنومه، مسكن متكامل مزوّد بجميع الاحتياجات، وإمكانات الاتصالات الداخلية والخارجية، عن عدة مقرات أخرى موزعة على القاهرة، والمدن الرئيسية، بعضها لا يعرفه حتى الآن..

أصغت بهدوء ظاهر، لكن قلقها الخفي لم يغب عنه، تعامل معها برفق، غير أن الهوة التي ستفصلهما تتزايد في كل لحظة، يكفي الآن أن مجرد مناقشته في أي شيء غير مطروحة، ثم.. يجب ألا ينسى أنها امرأته وأم عياله، والوضع الذي لم يكن يحلم به، الموشك على الوصول إليه يجب أن ينعكس عليها وكذلك الأولاد.. لكن.. عليها أن تدرك المعنى الحقيقي لوصوله إلى الطابق الثاني عشر، حقه في أن يعوض ما فاته أن يشبع رغباته كما يريد، عليها ألا تتدخل.. لا من قريب أو بعيد.

يخلع الحزام بحذر، يطل منه «البليب»، منذ الآن سيقرر هو

الأشخاص الذين يجب حملهم الجهاز، سيعيد توزيعه، لكن ليس بمجرد توليه المنصب، عليه أن يبث الطمأنينة في نفوس الجميع، أن يوزع الوعود على من ينوي التخلص منهم، حتى يستقر تماماً في الطابق الثاني عشر.

شيئاً فشيئاً يحاصر رئيس قطاع الحواسب الآلية، كذلك مدير البحوث، لن يطمئن إلى بقائهما قربه أبداً. طبعاً.. الاقتراب منهما ليس سهلاً، وربما أثار اضطراباً، لكنه لن ينسى ما سمعه يوماً من عطية بك أن ساكن الطابق الثاني عشر يمكنه أن يفعل ما يشاء، لا حدود لما يريده، لما يمكن أن يقدم عليه، المهم.. كيفية إخراجه قراراته، صياغتها، ثم.. تنفيذها، في البداية سيجتمع، بعدد كبير من المسؤولين. حتى رئيس اللجنة النقابية الذي يناصبه العداء، سيتظاهر بالإصغاء، ثم يصدر ما يتلاءم مع رؤيته من قرارات، سوف يستدعي منافسيه لجلسة ودية، بل ربما دعاهما إلى العشاء في أحد الفنادق الكبرى التابعة للمؤسسة. لن يكف عن الابتسام وإظهار الود، ثم يسدد ضربته في اللحظة التي يحددها هو. عندئذٍ يأتي بمن يوافق هواه، من يصلح للعمل قربه، من يستحق حمل «البليب» فعلاً!؟.

إنه يبتسم راضياً، يزم شفتيه، كل من أبدى السخرية منه سيدفع ثمناً غالياً، هو معهم والزمن طويل!

يقوم واقفاً، يتجه إلى الشرفة المطلة على الطريق الرئيسي يتلفت يميناً، يساراً، يتراجع قليلاً متحسساً صدره بما يعني أنه يتنسم الهواء في ذلك القيظ المستمر حتى الآن رغم دخول الخريف.

يعود إلى الصالة، يتمدد فوق الأريكة، تروح امرأته وتجيء، تصر على إعداد الوجبات الثلاث بنفسها، تقرف من الطباخين، لكن هذا وضع يجب أن يوضع له حد، امرأة رئيس المؤسسة تقشر

البصل وتعصر الطماطم، وتحشو الباذنجان المخلل بالثوم والكزبرة والبقدونس!؟

صحيح أن نَفَسها في الطبيخ لا مثيل له. بعض الأصناف تعدها بعناية جعلت لها شهرة في العائلة. مثل طاجن الفتة وحشو رأس الضأن، وكنافة رمضان، أما مجالها الذي لا منافس أمامها فيه فهو الأسماك بأنواعها، مقلية أو مشوية، ليس هذا غريباً على من ولدت من أم دمياطية وأب بورسعيدي، لكن.. ما يريده الآن أن تتكيف مع أوضاعه الجديدة، كل حركة منها حتى داخل البيت محسوبة عليه.

يودالآن أن تستفسر منه، أن تسأله عن سبب خروجه إلى الشرفة، لماذا تلزم الصمت مع أنها لم تدع كبيرة أو صغيرة إلا واستفسرت عنها من قبل؟

الحق .. أنه في مثل هذه اللحظات كان بحاجة إلى امرأة من نوع آخر، تعرف كيف تتعامل مع تلك اللحظات الحاسمة.. إنه يضطجع على الأريكة مرتاحاً، راضياً..

تأكد عند تطلعه إلى الطريق أنه مُراقب.

ثلاثة وربما أربعة من رجال الشرطة السريين يقفون أمام المبنى، ولأنه يراعي عِشرة عمر طويلة، وصلة لا يمكنه التخلص منها بسهولة، ولأنها أم أولاده، دخل إلى المطبخ، وأفضى بالسر..

اتسعت عيناها بتعبير غريب عندما استعادهما فيما بعد، فرح، قلق، خوف؟ رأى هذا كله مجتمعاً في لحظة واحدة، لا بد أنها تخشى زواجه من أخرى، أصبى، أجمل، تتناسب مع الوضع الجديد؟!

لا .. لن يحدث هذا، زواج ثانٍ مستحيل..

لكنه سيسعى إلى عشيقات من كل جنس..

إذ تهم بالنطق، يشير إلى الجدران محذراً، ربما وضعوا أجهزة تنصت لرصد ما يجري في بيته.

تومىء بسرعة، يطلب منها الانتباه، ربما يطرق الباب عامل ما، أو محصل كهرباء، أو من يتظاهر بالسؤال عن شخص لا وجود له. كل هؤلاء ربما يسعون لجمع المعلومات عنه، جميع أجهزة الدولة الحساسة تسعى في أثره الآن.

تومىء صامتة، إنه لا يدري ماذا يجول عندها، لكنها تطيل الصمت والتحديق إلى المجهول، كفت تماماً عن نقادها القديم، ها.. لن ينسى تلميحها أثناء نوبات الغضب إلى مؤهلها، إلى عضويتها نقابة المهندسين وتقاضيها البدل المالي ـ لا قيمة له الآن ـ إنها لا تذهب إلى النقابة، بل إن الاشتراك يرسله مع الساعي، منذ عامين أقنعها بتسوية أحوالها وإنهاء خدمتها، تستقر معظم الوقت في البيت، تبدو مطرقة، واجمة، مع أنه كان ينتظر منها إبداء الفرح، ولكنها معذورة.. الأمر أكبر منها، لا يمكنها استيعاب ما يجري الآن.

لم تبدِ دهشة، لم تتساءل حتى عندما ارتدى ملابسه بعد الغذاء مباشرة، مع أنه اعتاد أن يغفو ولو ثواني يرتفع خلالها شخيره، لم يشأ الانصراف قبل توضيح الأمر، يقول إن تواجده الآن في مكتبه هام جداً، يجب أن يبدو أكثر العاملين حرصاً على العمل، مرة تساءل أحد أعضاء صندوق العاملين: متى يرى أولاده؟ متى يجلس إليهم؟

إنه ينهمك في قراءة المذكرات والتأشير على البريد المتأخر، والنظر في استيفاء الأمور التي لا يمكنه إنجازها نهاراً بسبب استقباله الزائرين والعملاء والزملاء، وأعضاء اللجنة النقابية الذين يحرضهم

رئيسهم المتطرف، المناوىء له، لكم تحمّله في صبر، سكت على تلويحه خفية باتصالاته السياسية مع القيادات المختلفة، والسلطات الأمنية، كان يشير إلى الدور الخفي الذي يلعبه قبل الاقدام على الترشيح للمناصب العليا، يؤكد أنهم أخذوا رأيه أو هم في سبيل الاتصال به، ويذكر إسماً أو اسمين مقرونين بالرتبة..

حقاً لكم احتمله، لكم أبدى المجاملة وأطال الإصغاء، أثناء ذلك يزداد انغراس دماغه بين كتفيه، تبدو صلعته أشد بريقاً، تتخذ رأسه هيئة مستطيلة، أو مستديرة، طبقاً لزاوية النظر، ومصدر الضوء، هؤلاء العمال هم من أطلقوا عليه «البروفيسور قلقاسة»، حتى أن الكثيرين في المؤسسة نسوا اسمه الأصلي، لعن الله الظروف التي دفعت بأمثالهم إلى الصدارة، وإلى حضور الاجتماعات مع القيادات.

كيف يتساوى حملة المؤهلات الجامعية مع العمال القادمين من الورش وتحت الأوناش والمخارط، جازاه الله عبد الناصر، هو من جعل أمثالهم قادرين على النظر بغلظة في وجوه أسيادهم ومن أنعموا عليهم.. لكن، مصير هذه الأوضاع كلها إلى تغيير.

ماذا؟

هل سيشغل نفسه بأمور هؤلاء العمال وقيادتهم النقابية؟

ليفكر فيما هو أهم، خاصة تلك الرقابة التي اكتشفها الآن وتأكد منها، أوصى زوجته أن تنتبه جيداً إلى أي قادم، إلى من يطرق الباب، يتظاهر أنه محصل الغاز أو الكهرباء، أو أنه يسأل عن شخص ما، لتبدي الترحيب مع الحذر الواجب لكن.. ما هذا؟

يفاجأ بوقوف سيارة مدير قطاع البحوث في منطقة الانتظار أمام المقر، بمجرد دخوله مكتبه في الكراج يستدعي السائق، سأله عن الباشمهندس؟

قال السائق إنه في مكتبه، قال إنه رجع بعد انصرافه بنصف ساعة فقط،

أين ذهبت به؟

إلى المقطم، إلى مقام سيدي الجيوشي القائم عند الحافة..

ازورت عيناه، تزايد انخفاس رأسه، إن غضباً يسري.

ماذا يفعل عند سيدي الجيوشي، هذا مسجد تقصده النساء العاقرات للحبل، هل صلى هناك؟

أكد السائق أنه لا علم له، إذ انتظره في العربة بعيداً، لأن المسجد يقع وسط معسكر للجيش، وقبل أن يجتاز البوابة الرئيسية المطلية بالأحمر والأبيض أبرز بطاقة صغيرة.

هل مقصده الجامع، أو قائد كبير مقره في هذا المعسكر؟

السائق الغبي لا يعرف، لو أنه توصل إلى الحقيقة لمنحه شهراً مكافأة مع تحمل المؤسسة للضريبة.

إذن .. كيف بدت ملامحه بعد خروجه من المسجد ـ أو المعسكر؟

يمط السائق شفتيه، لزم الصمت، لم يتبادل أي حوار معه، وكان تركيزه في الطريق الجبلي الهابط إلى أسفل، والمتعرج، اليقظة ضرورية..

يصيح غاضباً!

«بل يقظتك أنت لما يجري حولك يا غبي ..».

هل أخطأ؟

هل هبط بمستواه ومكانته عندما طلب من السائق أن ينقل إليه ما يسمعه، ما يلحظه؟

ألم يكن من الأفضل تكليف أحد المشرفين على الكراج بدلاً من تدخله مباشرة؟

ولكن الوضع الذي يواجهه الآن يقتضي سلوك شتى السبل، من الأفضل أن يهدأ الآن، ماذا بعد تأكيدات رئيس المؤسسة، ألم يسمع منه شخصياً؟ ألم يحدثه عن أوضاع خفية باعتباره الوريث القادم بعده؟

لا .. لن يطمئن، لن يهدأ إلاّ بعد جلوسه في صدارة المكتب الدائري، بعد وضعه «البليب» الرئاسي الأحمر في الحزام، بدلاً من الرمادي الملاصق لبطنه الآن.

يحاول أن يتخيل لحظات جلوسه فوق المقعد المؤسسي، مكسو بجلد حيوان بحري نادر، لا يبلى ولا يتغير لونه، ملامسة مؤخرته وظهره الموضع نفسه الذي استقر به المؤسس، مقعد لا مثيل له، يميل مع حركة الجسم، ويتشكل معه، يستوعب النحيل والبدين، أُعدّ للمنصب، للموقع، للمكانة، وليس لشخص بعينه..

هل يجدد أثاث المكتب؟ هل يغير لون الخشب البلوطي الغامق الذي يكسو الجدران وتتخلله مربعات من لون ياقوتي قانٍ كان سيادته يعشقه؟ هل يبدل اللوحة الزيتية في مواجهة المكتب، رسمها محمود سعيد، أوصاه الرئيس ظهر اليوم أن يحفظ اسمه جيداً، وأن يتأمل هذه التصويرة، وأن يلفت نظر كل زائر إليها.. ثلاث نساء يرتدين الملاءات اللف، والبراقع التي انقرضت، متجاورات، متماسات، محدقات، في عيونهن وسع وشهوة، ودعوة غامضة، وإمكانية التهام، هذا ما أوصى به المؤسس، عليه أيضاً أن يحفظ هذا الموشح الأندلسي القديم الذي لم تتوقف الفرقة عن أدائه عند قبره مساء كل خميس في تمام السابعة، على أن يسبق الموشح عزف هذا الـ.. هذا الـ..

يخرج ورقة من جيبه.

بشرف سماعي رصد لمحمد القصبجي..

كان مزاجه غريباً، وكذلك وصاياه، ما أُعلن منها وما خفي كان أعظم، هل يقدم على تغيير شيء من هذا؟ إنه يقف، يخطو حول مكتبه.

أي شيطان يدفع به إلى مثل هذه الأفكار، لو نطق بها لو عبر عنها، لو بلغت الجواهري سوف يصيح:

«ألم أقل لكم إنه غريب .. إنه من الدخلاء، لم يدخل المؤسسة على يدي سيادته.. وها هي النتيجة؟»..

حقاً ..

كيف يفكر في مثل هذه الاختراقات التي تعد كفراً؟

لماذا يسمح للشيطان أن يدفعه إلى هذا المدى؟ إن احترام وصايا المؤسس دليل الانتماء إلى هذا الصرح الرائع.

كل الخطوات ستتخذ كما تتم، الملامح ستبقى كافة، صحيح أنه لا يطيق هذا اللون الياقوتي الغامق، يفضل الأزرق الفاتح، لكنه سيدرب نفسه على التعايش معه، على تذوقه، الاقتناع به، حتى الستائر وضع المؤسس تصميماتها، الغريب.. أن هذا لم يتغير حتى بعد التأميم، على أي حال.. يجب ألا يشغل نفسه بهذه الشكليات.

ثمة أمور عديدة يجب أن يحذر منها الآن، تلك الإغراءات.. بدءاً من دعوات العشاء، وحتى العمولات السرية عند توقيع الصفقات الكبرى سيعلن عنها أولاً بأول، ويتنازل عنها لصندوق العاملين، تماماً كما كان يفعل المؤسس، هكذا سيعرف المعترضون والمتحفظون ومن بقلوبهم مرض أنه أنقى من ماس البرلنت، وذمته

أصفى من حليب النوق، وأنه أخلص للمؤسس من أولئك الذين أكلوا من خيره، وشبعوا من زبده.

عمولة صفقة واحدة، محطة كهرباء، قطع غيار سلاح، ذخائر معينة، إصلاح سفن في ترسانات المؤسسة، مواد غذائية، عمولة واحدة فقط كفيلة بتأمين مستقبل الأحفاد وليس الأبناء فقط، عدة ملايين توضع في أحد بنوك زيوريخ أو جنيف، صغار العاملين يتداولون أدق الأسرار عند جلوسهم بالمقاهي المحيطة بالمقر، أو ركوبهم عربات المؤسسة.

صفقة .. عمولة واحدة فقط.

لا .. مستحيل.

مرة لا غير .. مرة ..

فليوقف مثل هذه الأفكار، ماذا جرى له اليوم؟ العمولات موضوع سابق لأوانه الآن، لا يجوز التفكير فيه لا من قريب أو بعيد.

عليه تخطيط الأمور بحذق، أولاً.. كيف سيتعامل مع أبناء المؤسسة، آلاف مؤلفة، فيهم الأمزجة كافة، سيبدأ بتنظيم اجتماع اسبوعي للقيادات، اجتماع عائلي، سيبدي البساطة، يلكز هذا في كتفه مرة، يضحك لذاك، وربما يروي نكتة.. لا مانع أن تكوّن عنه شخصياً حتى يظهر لهم أنه ملم بما خفي وما ظهر، وأنه غير معني بما يقال، لكن.. عند الجد تكتسي ملامحه صرامة، قسوة، عبارات قصيرة، مركزة، أسئلة مفاجئة في الصميم..

ثورة .. ثورة حقيقية في الإدارة، بدون الاخلال بنواميس المؤسسة، ليس معقولاً أن يكون مروره صامتاً، لا بد أن يترك بصماته، أن يعيد ترتيب الأوضاع، والأهم من هذا كله.. أن يشيد مبنى يتفوق على المقر الأصلي، وما بناه المسؤولون قبله، مبنى

تتحدث عنه الصحف، يصبح من معالم القاهرة، ومن مزاراتها، إنه أكثر ثقة الليلة، رغم قلقه من تواجد مدير البحوث، لكنه تلقى إشارات مطمئنة من الرئيس الحالي، اتصل به هاتفياً وأوصاه أن يضع «البليب» على مقربة منه وأن يكون نومه خفيفاً.. ما طمأنه أكثر تلك الإشارة الدالة التي تلقاها بمجرد عودته، حدثته زوجته فقالت: إنه حوالى الثامنة والنصف رن جرس الباب ثلاث مرات.. تطلعت من العين السحرية، والأولاد إلى جوارها، والشغالة..

المهم .. وماذا بعد .. ما بعد؟

بمجرد أن لمحت البواب بصحبة الغرباء اطمأنت، الدنيا لم تعد آمنة، وفي يوم يقرأون عن اقتحام الشقق، ومهاجمة الناس في بيوتهم، وكأننا أصبحنا في شيكاغو..

«المهم .. ماذا جرى بالضبط؟».

قالت امرأته: إنها فتحت الباب، أشار أحمد البواب إليهم..

«كم عددهم؟».

كانوا ثلاثة، قال إن الباشوات جاءوا في الخير، إنهم من المباحث، لكن سعيهم في الصالح، طبعاً مجرد سماع كلمة المباحث يثير الاضطراب، لكن الحمد لله، تمالكت نفسها، ودعتهم إلى الدخول. يبدو أن بعضاً من ملامح اضطرابها الداخلي تسرب إلى ملامحها، مما دعا أكبرهم مرتبة كما استنتجت من حركاته وسكناته أشار بيده مطمئناً.

«آه .. ماذا قال؟».

دخلوا إلى الصالون الرئيسي، كانوا يتطلعون إلى الأثاث، إلى النجف، إلى التماثيل، إلى الأواني الخزفية، بل إن أحدهم قال

وخبط بيده على خشب الأريكة الرئيسية مبدياً إعجابه بالمتانة والذوق الذي لم يعد يوجد مثيلٌ له..

«يا ستي الله يرحم والدك الذي أوصى على عمله في دمياط.. المهم!

وماذا بعد؟».

لن تطيل، بعد أن تفحصوا كل شيء، بعد أن قام أحدهم ونظر من النافذة بدأت أسئلتهم: أين كانوا قبل الإقامة هنا؟ سنة الزواج؟ أي مأذون؟ متى أنجبا أول طفل؟ في أي مستشفى؟

بقية الأولاد .. في أي سنة؟ ما عادات البك؟ مواعيد الطعام، هل يتناولون الوجبات معاً أو فرادى؟ هل يخرجون إلى نزهات خلوية؟

هل لديهم شقة مصيف؟ هل يمضون أوقاتاً طويلة صامتين؟ هل صحبته إلى أوروبا؟

«طبعاً أجابت متحسرة: ولا مرة ..».

«السفريات ستكون أكثر من أن تحصى ..».

السؤال الذي باغتها كان عن تمثال رمسيس الثاني، هل يخطو إلى الأمام بقدمه اليسرى أو اليمنى..

«صحيح أهي اليسرى أو اليمنى؟».

«أنا لا أعرف .. يخيّل إليَّ أنها اليمنى .. المهم.. وماذا قالوا؟».

أسئلة عديدة كانوا يوجهونها بغتة، يحاصرها الثلاثة في وقت واحد، لكنها لم ترتبك، وفقها الله، قالت إنها خريجة كلية الفنون التطبيقية، قسم نسيج وصباغة. أبدوا اهتماماً بالسلاحف البرية كانت السلحفاة الأم تلتهم قطعة خيار، لماذا توقفوا مطولاً عندها؟ لماذا سألوا عن المبادر باقتنائها؟ لماذا؟

«افهمي جيداً .. كل عشر أسئلة بينهم تسعة للتمويه، هذا أسلوبهم.. حتى يتوه المقصود معرفته.. المهم.. لا تنسي شيئاً مما قيل».

أثار اهتمامهم البيانو العتيق في الصالون، من يعزف عليه، هل يهوى أحد الأبناء العزف؟ هل يعمل أحدهم في فنادق ليلية؟ في فرق موسيقية؟ ثم سأل كبيرهم عن شخص اسمه عبده كوسه، هل سمعت به؟

«ماذا قلت؟».

«لا أعرفه طبعا ..».

«الحمد لله .. الحمد لله ..».

«هل هو سيىء إلى هذا الحد؟؟».

«سأشرح لك فيما بعد .. فيما بعد ..».

أسئلة، استفسارات، تدقيق لكل صغيرة وكبيرة، طلب كبيرهم توجيه بعض الأسئلة على انفراد، أمضت بصحبته ساعة وعشر دقائق في حجرة المكتب، بالضبط.. ساعة وعشر دقائق، الحق أنها فوجئت بما يعرفه عنهما.

ساعة كاملة وعشر دقائق ..

هذا ما أكده البروفيسور لرئيس المؤسسة الذي استدعاه عن طريق «البليب» ليطلب منه اليقظة إلى ما يجري بين العمال وبعض قطاعات العاملين، هناك تحركٌ ما بدأ. غير أن البروفيسور كان معنياً باطلاع الرئيس على تفاصيل الزيارة، ويبدو أن الدهشة التي قوبل بها أربكته، لم يحدث مثل هذا الإجراء من قبل..

قال البروفيسور إن أحدهم استجوب ابنته الكبرى لمدة نصف ساعة، سألها عن أصدقائها، مشاريعها للمستقبل، وإذا كانت

تمتلك شيئاً باسمها.. وانفرد آخر بابنه الأصغر، وكان مهتماً جداً بنوعية الملابس التي يرتديها، خاصة بنطلونه الجينز، تفحص علامته الدائرية، ليتأكد.. صناعة أجنبية أو محلية.

بدا البروفيسور في سرده المتمهل، المتأني، وكأنه يحاول إقناع نفسه بأمر ما.. هل يعني ذلك أن الفأر بدأ يلعب في عبه؟

الحقيقة أنه مضطرب، منذ سماعه تفاصيل ما جرى ليلة أمس حتى أن جفناً لم يغمض له، ظل يتقلب مثل السمكة في الفراش، في اللقاء الصباحي الذي جرى بالمكتب الرئاسي في الطابق الثاني عشر، سمع ما جعل قلبه ينزل في صدره، إذ تساءل سيادته:

«وهل أنت متأكد أنهم من رجال المباحث فعلاً؟».

في هذه اللحظات لم يكن البروفيسور يعلم بما يدور في المؤسسة كلها، بدءاً من المقر الأصلي وحتى جميع الفروع الأصلية والثانوية، من مصانع غزل ونسيج المحلة إلى مطابع العاشر من رمضان حتى ستوديوهات السينما والتسجيلات المرئية والمسموعة في الهرم ومدينة نصر.

لا يمكن لإنسان مهما بلغت إحاطته بالأمور أن يحدد: كيف تسرب نبأ الزيارة إلى المؤسسة؟

البعض تصور أن الموضوع كله مدبر، وأن عطية بك يقف وراءه، ولكن ظهوره الهادىء في مكتبه بدد بعضاً من تلك الظنون. أياً كان الفاعل أو المحرض، فإن العاملين كلهم تناقلوا فيما بينهم أن ثلاثة قاموا بزيارة لبيت البروفيسور في غيابه، ادعوا أنهم من أحد الأجهزة الأمنية السيادية، وانفرد أحدهم بامرأة البروفيسور لمدة ساعة ونصف في غرفة النوم! بينما تسلم الآخرون ابن البروفيسور وابنته.. السيدة هيام من قليلات جداً أعرضن عن

سماع التفاصيل الدقيقة التي بدأت تتزايد وتتضخم مع الوقت، قالت باختصار:

«يا ناس .. حرام عليكم الخوض في الأعراض ...».

في الكراج تغامز العمال وتلازموا، ودق بعضهم أكفّ الآخرين، وفي الوقت الذي كانت فيه أدق التفاصيل تُروى سراً وعلانية، وبعضها حدد لون الملابس الداخلية لامرأة البروفيسور، ومشاعرها المتناقضة قبل الانفراد وبعده كان سعادته مطرقاً، مهموماً، يتساءل عن سر الزيارة في غيابه والإلحاح بتلك الأسئلة الغريبة على امرأته وأبنائه؟

غير أن التحرك الأهم ضده كان يتم في الوقت نفسه ولم ينتبه إليه إلاّ متأخراً، قرب نهاية اليوم، عندما اتصل به مجهول بعد الغذاء مباشرة.

ذلك أن الجواهري فارق ركنه الذي اعتاد أن يأوي إليه صباح كل يوم قبل دخوله المقر، مكانه المألوف الذي لم يتخلف عنه منذ افتتاح هذا المقهى في مواجهة المبنى الرئيسي للمؤسسة، بمدة مكثه اليومية نصف ساعة، ربما تزيد دقائق أو تقل، لكن إذا طالت عن المقدر أو اقتصرت على دقائق معدودات فإن ذلك نذير بوجود ما ينغصه ويقلقه أو يشغل فكره. صلته بالمقهى قديمة، إنه الوحيد الذي لم تفلح رشيدة النمساوية في اقتحامه أو الوصول إليه، خلال رحلتها التي بدأت عملياً من هذا المكان، وانتهت إلى فيينا في أوروبا، إنها ممثلة المؤسسة في أوروبا والمتحدثة باسمها، كادت تدفع بالجواهري يوماً إلى الجنون، ولكن هذا حديث سابق لأوانه، ولم تحن مناسبته بعد..

المهم .. قام الجواهري متئداً، متمهلاً في تمام العاشرة أي بعد ما

يقرب من ساعة ونصف أمضاها منفرداً تماماً، شرب خلالها أربعة فناجين قهوة سادة، وستة عشر حجراً من المعسل الذي يحمل علبتين معه باستمرار.

إنها بالنسبة له لحظة من اللحظات التي يجب أن يقدم فيها غير هيّاب أو وجل، إن لم يشرع فكأنه لم يشارك يوماً في بناء هذا الصرح، يستحضر المؤسس داخله، وجوده، نظراته، العبارات التي يمكن أن ينطقها لو أنه واجه ذلك الموقف، لا شك أن ذلك ينعكس على هيئته بشكل ما فيتطلع إليه الكل برهبة واحترام، إن تحركه من مكتبه إلى غرفة أخرى أو أي طابق يثير التساؤلات والظنون.

كيف الحال إذن وقد شرع في دخول الغرف والصالات والاجتماع برؤساء القطاعات والأقسام والعاملين الصغار قبل الكبار، طلع السلالم على قدميه، أحد عشر طابقاً تجول فيها، لكنه لم يصل إلى الثاني عشر مما يعني سخطه وضيقه من الرئيس الثالث الذي أوشك على مفارقة المكتب الدائري..

بل إنه نزل إلى الطوابق الخفية، التحتية، التي لا يعلم أحد عددها، وأين تنتهي بالضبط؟ وهل حقاً تؤدي عند نقطة معينة إلى الحفرة الدائرية المتصلة بأنهار المياه العذبة، الجوفية، الممتدة تحت الصحراء الغربية كلها، كان المؤسس يتقن السباحة فيها ويعرف مساراتها.

في الرابعة ظهراً خرج الجواهري من المقر، أفسح له كل من رآه، لم يتجه إلى المقهى، إنما دار حول المبنى الهلالي الشكل، تقدم من السور الحجري الأبيض المحيط بالفتحة، لم يتغير منذ أن أقامه المؤسس بعد شراء الفدادين الثلاثة وضمه الأربعة الأخرى، استند الجواهري بيديه إلى حجارته الباردة، الغامضة. مال بجسده الضخم، القديم، حدق النظر في الهِوْ الفاغر فاه إلى ما لا نهاية، هز

رأسه مرتين أو ثلاث ثم اتجه بخطى وئيدة صوب المقهى. ما بين دخوله واستقراره بركنه وخروجه متجهاً إلى بيته، شهد مكتب البرق والهاتف في شارع جامعة الدول، والمكتب المواجه لوزارة الزراعة زحاماً لم يسبق له مثيل.

آلاف البرقيات أرسلت إلى القيادة السياسية، والتنفيذية، والأمنية، وجهات أخرى، تستنكر وترفض أن يتولى البروفيسور المزعوم أمر المؤسسة، كلمات قليلة، حادة، تستغيث بكل من بيده سلطة أن يوقف دخول البروفيسور المزيف، معدوم الكفاءة إلى الطابق الثاني عشر..

لأسباب عديدة سوف يأتي ذكر بعضها، استجابت القيادة السياسية في إحدى المرات شديدة الندرة إلى رغبة الناس في مكان ما، جهة معينة، في قطاع هام، في مؤسسة تعد من أهم المنشآت في التاريخ الحديث.

هكذا .. استيقظ البروفيسور الذي أمضى ليله أرقاً وقلقاً. كان رنين الهاتف متصلاً، طريقة خاصة متفق عليها بين رؤساء القطاعات، ولا توجد إلاّ في أجهزة الهاتف التابعة للمؤسسة، هذا الهاتف المجاور لفراشه متصل بالمقر الأصلي.

صوت رئيس التحويلة، من نبره أدرك الشؤم، لم يقل تحية الصباح حتى، ولمدة طويلة سيظل ماثلاً في ذاكرته، هذا الصوت الكئيب في مطلع أشد نهاراته تعاسة، إذ يبلغه بتعليمات رئيس المؤسسة الجديد، أن يتم تسليم «البليب» فوراً إلى قسم الاتصالات، وبدون أدنى تأخير!!

انتظار يتخلله
ذكر لرشيدة النمساوية

.. رغم كل ما لحق الجواهري فيما بعد، فإنه لم يندم قط على تحركه ضد البروفيسور وما ترتب عليه من نتائج. قال المؤسس يوماً إن الإنسان يجب أن يعرف مواقع خطاه قبل الشروع..

البلد يمر الآن بمشاكل عديدة، بعضها مثار علناً والآخر خفيّاً مكتوماً، لكن.. المؤسسة رغم أهميتها الشديدة وموقعها الحساس بالنسبة للإقتصاد والأنشطة المختلفة التي تمارسها، فإنها لا تقع في الدائرة الحمراء، إنما على حافتها، لذلك تحرص جميع الجهات المعنية على هدوء الوضع داخلها واستقراره، لأن عبورها الخط الأحمر يعني موقفاً جديداً من جانب صندوق النقد الدولي الذي يراقب بعناية واهتمام مركز المؤسسة ومجالاتها الحيوية كمؤشر للأوضاع الأخرى، وبناء عليه تتم الموافقة على إعادة الجدولة.

إذن.. لا خوف من المفاجآت.

لو أن هذا الكم من البرقيات الاجتماعية أرسلت منذ عشرين سنة فقط لاعتقل كل من خط حرفاً فيها، لأدت إلى عكس المراد

منها، وما جرى من حمدي الأزميرلي في حق صحبه الأربعة ما زال ماثلاً حتى الآن في الأذهان.

تجدد الشروع في إرسال البرقيات بهذا الشكل كان يعد تحركاً مناهضاً يجب مواجته.. مثلاً، بعد وقوع المحنة الكبرى والزج بالمؤسس إلى المعتقل، هل جرؤ أي شخص على إرسال خطاب بدون توقيع يستنكر أو يحتج؟ لم يحدث ذلك قط..

نعم.. لم يتغير في الأمر شيء، جوهر الوضع واحد، لكن من قبل كان أعتى وأشرس، أما الآن.. فأوهى وأضعف، هذا موضوع يطول شرحه، لكن الجواهري يدركه بخبرته وحنكته، وإلا.. لما أقدم.

استقرار المؤسسة أمر هام لكل الأطراف، فهل من المصلحة إيجاد توتر عام إثر اختيار شخص مرفوض، مشكوك في كفاءته لا يمكنه سد الفراغ أو استيفاء حق الهيبة؟ طبعاً لا.

الجواهري لم يتحرك إلا بعد إمعان وروية، تمثل المؤسس أمامه، واستعاد ملامحه، وحاول أن يدرك قراره إذا مثل وتواجد في الظرف نفسه. لم يترك صغيرة أو كبيرة إلا وأولاها اهتمامه، حتى صياغة البرقيات. كلها تضمنت احتجاجاً أقرب إلى طلب العون، والرجاء بإعادة النظر، لم تُرفع أي مطالب، لم يصرح أحد برغبته في قدوم شخص معين. أي أن الخيار تُرك مفتوحاً لتعيين من يرونه مناسباً. طبعاً هناك أجهزة تعمل في صمت، تجمع محصلة الآراء، وترفع الخلاصة، من ناحية أخرى لا بأس من إظهار إستجابة القيادة لرغبة القاعدة مما يؤدي إلى تهدئة الخواطر، ليس في المؤسسة فقط.. لكن في أماكن وهيئات شتى ذات حيثية وتأثير.

الآن.. يسري شعور باليقين والراحة بين الجميع، لو أن البروفيسور عنده ذرة من حياء لطلب إجازة، أو سافر مختفياً عن

الأنظار، أو سعى إلى نقله نهائياً. لكنه ظهر في موعده اليومي، توجه إلى مركز الاتصالات الرئيسي في الطابق السابع، قام بتسليم «البليب» ملفوفاً في علبته الأصلية وكأنه لم يستخدم، لم يخرجه، بل سلم أيضاً كتيب التعليمات الإرشادية، طلب إيصالاً مكتوباً، ثم مضى إلى دورة المياه نهاية الممر، أمضى داخلها وقتاً لافتاً للنظر، خرج بعده مطرقاً، متثاقلاً، إتجه إلى مكتبه، لم يسمع رنين الهاتف، حتى رئيس المؤسسة الذي أعده ودفعه إلى دخول الطابق الثاني عشر لم يستفسر عنه، كأنه يتبرأ منه، أو ينفي بصمته أي علاقة ويُخلي مسؤوليته من ترشيحه بعد رد الفعل الذي لم يتوقعه، واستجابة قيادية سريعة نادرة!

الجواهري لا يسمح لزهو أن يدركه، أو نشوة تنسيه ما حوله، يدرك تماماً ضرورة انسحابه من المواجهة، تجاهل نظرات العاملين، وتهرب من مقابلة الكثيرين، فارق مكتبه، واتجه إلى ركنه المعتاد في مقهى رشيدة النمساوية، تجاهل عبارات التهنئة كافة. أبدى البعض دهشتهم. ألم يبدأ هو؟

ألم يصعد طوابق المقر الأصلي درجة.. درجة ليحرض وينبه وينذر؟

ألم يتدفق حيوية خلال حديثه إليهم، كأنه ارتدَّ شاباً يسعى إلى جواد المؤسس أو في أثره؟

هذا صحيح.. لكنه حصيف، أفضل وضع له الآن.. التواري، الاختفاء، لولا وصية المؤسس، لاعتذر عن الطلوع بصحبة عطية بك لتقديم التهنئة إلى الرئيس الجديد فور توليه، سوف يطرق طوال المقابلة الطقوسية خشية أن يبدر منه ما يوحي أنه سبب تعيين المسؤول الأول عن المؤسسة، أو أنه لعب دوراً ما..

والله.. لولا بنود الوصية لاعتذر، ثم.. إنها المرة الأخيرة التي

يقدم فيها التهنئة، بالقطع.. لن يكون موجوداً في المرة القادمة؟

لماذا يوقن هكذا؟

الأعمار بيد الله صحيح، ولكنه وهن الآن، مهدود وأمراضه كثيرة، ما تبقى من عمره لحيظات بالقياس إلى ما انقضى منه. لن يظهر أبداً باعتباره الممهد للقادم الجديد.

يعرف أن ساكن الطابق الثاني عشر لن يكون راضياً عن وجود أي شخص قربه لعب دوراً ما في وصوله إلى مكانه. صحيح أن الجواهري الآن لا يخشى من شيء، ولا يحرص على شيء، لكن قلبه يخفق على المؤسسة ليلاً ونهاراً. تماماً كما تهرع دقاته في أثر بعضها خشية على بناته الخمس وحفيداته السبع عشرة.

لا.. لا يوجد بينه وبين البروفيسور سبب للضغينة، لم يبلغه عنه ما يسيء، يعرف أنه طاقة هائلة على العمل، يمكث أحياناً ثماني عشرة ساعة في الكراج، عنده قدرة على العمل الذهني والبدني.. هذا كله صحيح، لكنه حمار بالقياس إلى مسؤوليات الطابق الثاني عشر، غبي.. هل من المعقول أن يتربع على قمة هذه المؤسسة غبي، محدود؟ دخيل؟ الجواهري يتمنى تمام أجله، إغماض عينيه إلى الأبد.. ولا رؤية هذا اليوم.

ما ضايق الجواهري تلك الإشاعات عن زوجة البروفيسور القائلة بخلوتها مع رجال زعموا أنهم يجمعون معلومات عن زوجها. وظهور عبارات ورسوم على جدران بعض دورات المياه تسخر من ذلك، حرام هذا..

لا يميل الجواهري إلى ما يعتبره خوضاً في الأعراض، يخشى أن يرتد ذلك إلى ذريته، خمس إناث لم ينجبن إلا حفيدات، لكم تمنى ولداً أن يحمل اسمه وملامحه ويكون شبيهاً به. أحياناً..

يتحدث عبر الهاتف إلى أصدقائه، يفاجأ أن الأبناء يشبهون الآباء حتى في أصواتهم، يقول:

«أهلاً.. عطية بك».

يفاجأ بالرد.

«لا يا عمو.. أنا ياسر ابنه»..

يطرد عن ذهنه رغبته القديمة، ما يعتبره وسوسة شيطانية فيها اعتراض على أمر الله، يحمد الله على ما رزق به. على الستر، على استقرار كل منهن في بيتها، رضا أزواجهن بالنصيب، عدا شكري زوج الثالثة الذي سيموت على حتة عيل، أنجبت فادية حتى الآن أربع صغيرات، كلهن فوق رؤوس بعضهن لا يفصل الواحدة عن الأخرى إلا مدة الحمل والإنجاب، ما زال يأمل في مجيء ذكر، لم يكف عن ترديد قوله: إن أحدهم أعد عملاً سحرياً بحيث تكون ذرية الجواهري كلها إناثاً.. لا يمكن أن يكون الأمر صدفة هكذا.

أحياناً يمط الجواهري شفتيه: من يدري.. ربما صح ذلك؟ إنه لا يستجيب إلى ما يهمس به الكثيرون عن سلوك هذه أو تلك. يتوقف أحياناً عند ترقي بعض العاملات بسرعة في المراتب، ليس بسبب كفاءتهن، لكن.. لأسباب أخرى بالطبع! لا يعنيه ذلك إلا بالقدر الذي يؤثر على المؤسسة، صحيح أن الأمر تزايد بعد رحيل من شيّد هذا المقر، وأحاط تلك الحفرة الغامضة بسور متين، يقول لنفسه أو للآخرين:

«طبيعة البشر.. أمور موجودة وستظل»!

ربما ليبرر لنفسه قبل أن يفسر لغيره، أنه من أكثر العاملين القدامى إحاطة بعلاقات سيده القديم التي فاقت كل تصور، مبالغات عديدة تتردد، وتحولت الحكايات إلى ما يشبه الخرافات،

كل التفاصيل كان يلم بها أولاً بأول، مصادره عديدة ومختلفة، ولا تخطر على بال!

اليوم بالذات بعد ظهور اسم رشيدة النمساوية على جدار دورة المياه تذكر نصائح سيادته لأول رجال التحقوا بقسم الأمن الداخلي والذي تحول فيما تلى ذلك من سنوات إلى ما يشبه المؤسسة الأمنية المتكاملة، قال لهم إن حرية الصراخ يجب أن تترك بقدر للعاملين، أن يسجلوا ما يكتب ويرسم على جدران دورات المياه، خاصة تلك التي يستخدمها صغار العمال والسعاة، والموظفون على اختلاف درجاتهم، كانت النصوص المنقولة أو المصورة تقدم إليه في ملف أسبوعين، تمام الحادية عشرة والربع صباح الخميس، يقرأها بتمهل وإمعان، يتوقف عند بعضها.

في ركنه المتواري بالمقهى، في جلسته التي لا يقربها أحد إلا نادراً، يطرق الجواهري ممسكاً بمبسم النرجيلة الخاص الذي يحمله في جيبه دائماً تفادياً للعدوى.

يا سلام.. كأنه يرى المؤسس من خلال سحابات الدخان الصغيرة التي تعلق في الفراغ أمامه. يكاد يسمعه أثناء تنبيهه إلى أهمية رصد ما يكتب في دورات المياه. والحوارات الجانبية، والأماكن التي يقضي فيها العاملون أوقات فراغهم، وعلاقاتهم الخارجية وأحوالهم الأسرية، كان القسم الطبي الذي أنشأه لتقديم العلاج مجاناً، يرفع إليه تقارير شبه تفصيلية عن النشاط الجنسي للرجال، للنساء، لقواهم، وأمزجتهم.. يبتسم الجواهري..

كان مهتمّاً بجوانب غريبة، ولكن لم يكن لغرض أو لمرض، ثبت عبر الحقبة الطويلة أن كل ما أقدم عليه إنما كان لمصلحة هذا الصرح المهيب، هذا البنيان المشيد.. لماذا يلف، يدور ثم يعود إلى ما يخص دورات المياه؟

طبعاً بسبب ظهور إسم رشيدة صباح اليوم، لا يعرف بالضبط في أي طابق، عطية بك أسرّ إليه الخبر المكتوب بقلم حبر فلو ما ستر:

«رشيدة النمساوية اتصلت مساء أمس برئيس قطاع الحواسب».. لم تحو العبارة أي كلمة نابية، ولم يصاحبها رسم داعر، كتب تحتها التاريخ بأرقام إفرنجية..

ماذا يعني ذلك؟

من أين اتصلت؟

من باذل السويسرية حيث تعيش؟ أو من مصر حيث تجيء مرة في السنة، بالتأكيد من الخارج، لأنها بمجرد وصولها إلى القاهرة تأتي إلى هذاالمقهى، الحق أنها لم تنس أصلها، المكان الذي انطلقت منه، لكم عاشت هنا، راحت وجاءت، لم يهتم بأمرها أحد، ولكن ظهورها الآن يعد من العلامات، فيقولون في المقهى، بل.. وفي المؤسسة أيضاً: قبل ظهور رشيدة، وبعد سفرها.. هكذا الدنيا!

رغم شيخوخته، وهدده الروحي والجسماني، يستعيد بعضاً مما يتردد عنها فتسري في ظهره رعدة، كانت على مرأى منه، في المتناول، لكنه لم يسع، لم ينتبه إلى كنوزها الخفية، من كان يتصور أنها سوف تقتحم أوروبا بجسمها؟ من؟

حقاً.. أمرها عجب، عندما ظهرت في المقهى قال صاحبه: إنها بنت يتيمة من قلعة الكبش، وإنها تسعى إلى الرزق الحلال، بعد أن قسا عليها قلب أبيها بعد وفاة أمها وزواجه من امرأة لا تطيق وجودها، هجّت إلى بيت خالتها في بولاق ثم جاء بها جدع ابن حلال تقف تعد السندويشات التي قرر صاحب المقهى تقديمها إلى الرواد..

لم تكن رشيدة لافتة، أو مبهرة بملامح خاصة، أو جمال يميزها عن الأخريات، لكنها في النهاية أنثى، وعندما ظهرت في المقهى كان عمرها ثلاثة عشر تقريباً، وجهها مستطيل، كذلك فمها، شفتاها ممتلئتان، مكتظتان بالأنوثة، بشكل عام.. وجهها غلامي الحضور ويبدو أن هذا ما لفت إليها أنظار بعض من يفضلون مثيلاتها..

منهم شاب اسمه عفت الشبراوي كان يعمل مصمماً للإعلانات بمكتب له علاقة بالمؤسسة. دائماً صامت، في حاله، لم يغير عاداته، شرب القرفة باللبن شتاء، واليانسون صيفاً، وتدخين حجرين معسل طال مكوثه أو قصر.

عندما راحت معه كانت قضت حوالي سنة في المقهى، الحق أن الدهشة انتابت الجميع، كانت تبدو أنها مستعصية، لكم داعبها الكثيرون، أحياناً برقة، وكثيراً بغلاسة، ظن بعضهم أنها سهلة، ولكنها عاملت من تجرأ بحزم، وأحياناً بقسوة غريبة كانت تثير الخوف الغامض والخشية في قلوب سائقي عربات الأجرة بالنفر، وتجار الجمال الأثرياء العاملين بسوق إمبابة القريب، حتى الغرباء العابرين، ومنهم الحراس السريّون الموفَدون لمراقبة مدخل المقر الأصلي حرصاً وحذراً من أي محاولة تخريبية يقوم بها أعضاء الجماعات المتطرفة، باعتبار المؤسسة هدفاً استراتيجياً.. كلهم زُجروا بعنف منها، ومن صاحب المقهى الذي حنا عليها كأبنته..

متى اتصلت الأسباب بينهما؟ لم يلحظ أي إنسان نشوء العلاقة، لا تبادل نظرات، ولا مودة، ولا كلمة منها ورد منه، فجأة.. جاء يوم ولم تظهر فيه، تأسف صاحب المقهى وتحسر بعد مرور ثلاثة أيام وإرساله من يستفسر عنها عند خالتها التي قالت ببساطة إن البنت راحت مع واحد وعدها بالزواج اسمه عفت..

عفت أول من عرف خيرها، وقطف بشايرها، استمتع بقشدتها طازجة.

طبعا.. انقطع عن المقهى، لكن أخبارهما إستمرّت تتردد بشكل ما، ويبدو أن البعض كان يلتقي به في مقهى قريب من سيدي اسماعيل الأمبابي، مما رواه أمكن للكثيرين أن يمعنوا الخيال في محاولة لتجسيد الصورة.

من يصدق أن هذا كله كان داخلها؟

رشيدة؟ رشيدة ذات القوام الجاف مثل الصبي، لا صدر ناهداً، ولا ردف بارزاً، ذات الحضور الذكوري، بعضهم ظن أنه تصدق عليها بكلمات غزل أو مداعبة..

رشيدة تلك لا مثيل لها، أنثى انفجارية! ملكة الفراش، والعالمة بالطرق الخفية إلى مسام الرجال، لم يعرف عفت مثيلاً لها.. لا من قبل ولا من بعد. مع بدء المعاشرة تقيم مهرجاناً من المتعة، تعطي ما يطلبه منها بدون تلميح أو تصريح، ثم تبادر بما يناسب وما يوافق، زحمت وجدانه وأيامه وجسده حتى نسي كل ما عداها.

بعد سفرها مع صاحبه كاد يجن، لكنه السبب، في لحظة ضاق بها، خشي تلميحها المستمر إلى رغبتها في حياة أخرى، مختلفة، لكم كان أبله غبيّاً، ظنها تسعى إلى ما تتطلع إليه أي بنت في سنها، الستر والزواج. لكنها قصدت شيئاً مغايراً تماماً، وعندما جاءه صاحبه منعم الأدبجي زميل صباه، صافحها مطرقاً، لم يلمح أي شيء بينهما، لم يرصد أي علاقة تدل على وقوع تماس، لم تنفرد به قط، حتى فوجيء بورقة تحوي كلمات قليلة بخطها المضطرب تخبره بسفرها مع الأدبجي إلى أوروبا لتجرب حظها، لم تشأ أن تخبره مقدماً حتى لا تصدمه. أنه طيب، وحنون، وابن حلال، لن تنساه أبداً.

لعن اليوم الذي صاحب فيه الأدبجي، كان أقرب زملائه إليه في المدرسة الإعدادية ثم الثانوية، وعندما قرر السفر خرج وراءه إلى المطار، وعاد إلى المدينة بوحشة باردة، وإدراك وعر للفقد، وانتهاء صلة، في الأعياد ورأس السنة تسلم بطاقات ملونة أنيقة، كما كتب إليه عدة خطابات، يخبره عن صعوبة الأحوال، وتقلبه في أعمال شتى، من بائع صحف يخرج فجراً إلى شوارع تكسوها الثلوج إلى بيع الزهور في المطاعم ليلاً، وتوزيع الإعلانات على صناديق البريد في مداخل البيوت المتباعدة.

الغريب أنه شكا من صعوبة الحياة هناك. لم يذكر ما يحببها فيها، ولكنها كانت تواقة، وبدا منعم الأدبجي فرصتها السانحة.

كاد أن يجن، زلزله فقدها المفاجىء، أوقات وعرة مرّت به لم يكن قادراً على الوقوف أو الجلوس، على التزام الصمت أو الانطلاق في الحديث، على الاسترسال في الضحك أو الاستسلام إلى البكاء، كان يسعى إلى الجهات كافة في وقت واحد، ثم يتكومّ متضاماً، منهنهاً كاليتامى:

«تعودت عليها.. تعودتها».

ما كاد يدفع به إلى الهلاك حيرته، هل كشفت نفسها للأدبجي هنا في مصر؟، في بيته؟ أم إنه عرفها هناك؟ لو طاله، لو أمسكه بيديه..

لكنها لم تنسه، أرسلت إليه أخبارها عبر البطاقات والصور الملتقطة لها في مطعم للبيتزا لم تفارقه إلا وهي ترطن بالإيطالية، أما المطعم الفرنسي الذي عملت حارسة لدورة المياه به، ثم نادلة، ثم مضيفة تستقبل الزبائن بابتسامتها الرقيقة، الشرقية، الدافئة، فأنهت عملها به بعد إتقانها الفرنسية، كان عملاً هادئاً، أحبته، وأحبت العائلة الصغيرة المالكة له، الزوج يدير، والزوجة تطبخ، والابن يدبر

ما تبقى من أمور، خاصة البار الصغير، لم يضايقها إلا ظن الزبائن أنها جزائرية أو مغربية، لم تشعر في حياتها بالاستقرار الحقيقي إلا في المقهى المواجه للمؤسسة، وفي المطعم، لكن المرتب المرتفع لعاملة المصعد في الفندق الكبير ذي النجوم الخمس كان إغراء لا يقاوم. في الفندق أتقنت الألمانية لغة أهل البلاد تماماً، وألمت بطرف من الروسية، والمجرية، أما الإنكليزية فتنطقها كالعربية تماماً.

كل بطاقة أو صورة أو رسالة تنكأ عنده جراحاً ظن إندمالها، عندما تسلم صورتها، تقف بين مالكي المطعم، حدق طويلاً في ملامح الابن، بدا وسيماً، يفيض حيوية، هادىء البال. ما شغله، ما نكد عليه عيشه.. تساؤل ممض، هل ضاجعها؟ هل عرف ما أطلع عليه، ما خبره منها؟ ترى أين التقت بهذا الطبيب الثري؟ أو المهندس الكيمائي؟ لا يعرف وظيفته بالضبط، لكنه متأكد من ثرائه، كان يمتلك الدنيا التي حلمت رشيدة بها طويلاً، عنده بيوت مِلْك في باريس، في لندن، في نيويورك ومكسيكو سيتي، ها هي صورتها تقف عند سفح أهرام تشبه أهرام الجيزة، لكنها تصفها فتقول إنها ليست في مثل عظمة أهرام مصر وقدمها، وحضورها..

كيف تعرفت إليه؟

كيف ملكت عليه جهاته حتى صار يمتثل لها، ولا يظهر في مكان إلا بصحبتها؟

ما المراحل التي مرت بها العلاقة؟

لا يدري، لكن مع كل رسالة تصله يرتفع صوته أثناء جلوسه بالمقاهي التي اعتاد ارتيادها مشيراً إليها، مؤكداً أنه عرفها وهي في الثالثة عشر، وأنها كانت جائعة، أقصى أمنياتها أن تشبع مرة، وأنه أول رجل في حياتها، هو الذي..

نعم.. نعم بالضبط!

ثم يوغل في ذكر تفاصيل دقيقة، ينطقها متمهلاً، مستمتعاً حتى أنه أثناء حديثه تؤججه رعشات وخلجات، فكأنه يستعيدها باللفظ، مرة أصغى إليه شيخ ضرير، ضخم الجسد، غليظ الرقبة، كان مطرقاً كأنه نائم، لكنه علق على حديث عفت الذي كان يجلس بعيداً عنه، في أقصى المقهى بصوت جهوري:

«وهل يترك رجل عاقل امرأة بهذه الأوصاف؟»..

فوجىء الحاضرون، بُهت عفت لكنه قال بسرعة:

«النصيب.. النصيب يا مولانا»..

هز الشيخ رأسه من اليمين إلى اليسار، قال ماطاً شفيته..

«لا تشغل نفسك ولا تعذبها.. لا أنت لها ولا هي لك»..

عندما جاءت رشيدة في أولى زياراتها إلى مصر قصدت المقهى، لم يتعرف إليها أحد ممن عايشوها وعرفوها، أما عفت فاختفى كأنه فص ملح وذاب، بدت أنيقة، فواحة، فعلاً.. صيغت من جديد، حتى أن الجواهري تساءل عن العلاقة بين الإنسان في مرحلة وفترة أخرى من عمره، هل يمكن اعتبار رشيدة المقهى هي عينها؟

تصرفت ببساطة، وراحت ثم جاءت، تأملت المكان الذي أمضت فيه زمناً تعد الشطائر، أصرت على الوقوف أمام النصبة، صب الشاي بيدها، وعندما أبدى المعلم تأثره ربتّت كتفه، قبلته.

ابتسمت للجواهري، أقبلت عليه، حتى سبح في شذا عطرها الذي بقي عالقاً في المقهى يومين متتالين، إستفسرت عن أحواله، عن عطية بك، لم يستطع منع نفسه من إستعادة ما رواه عفت المجنون عنها، وحاش بصره عن التشبث بنصف جسمها الأسفل،

وما يحتويه من تكوين نادر، فريد، يؤكد عفت أنه السبب في انطلاقها، اقتحامها لتلك العوالم.. كان يصمت ثم يهز رأسه أسفاً: من يعرفها لا بد أن يعتادها. يدمنها، يتبعها، يلبي كل ما تطلب.

ربما تنتابه حالة حزن فنيطوي على نفسه، أو هياج فيلطم معلناً ندمه لتفريطه فيها، أو يقص بصوت يسمعه الجميع أدق ما كان بينه وبينها.

لو سمع المؤسس مثل هذه الأوصاف لسعى إليها. كان ذواقة مغرماً بغريب النساء، وأشدهن رغبة، وقدرة على المجاوبة.

لكن.. كيف ظهر اسمها على جدران دورات المياه؟

هل اتصلت حقاً بالمؤسسة؟

لو يعرف من خط هذه الكلمات لمضى إليه مستجوباً، بدون إفشاء أمره، لم يلحق الضرر قط بأي إنسان ينتمي إلى المؤسسة، تعرّف إلى عدد من الشخصيات التي أدمنت الصراخ وابداء الرأي على الجدران، لكنه.. وتلك شهادة لوجه الله لم يُلحق الأذى بأي منهم.

من يصدق الآن منحه فرصة لعامل إضاءة أتقن رسم العاملات عاريات. خاصة اللواتي ضاجعهن المؤسس، عندما اكتشف حقيقته أبلغ سيادته لكنه لم يصرح بالإسم إلا بعد إصغائه إلى وعد صريح، قاطع بعدم إلحاق الأذى، عندما نقل صورة من الرسومات إليه أبدى إعجاباً، وقال ـ رحمه الله ـ إن مثل هذا يجب إتاحة الفرصة له، ثم ألحقه بمعهد ليوناردو دافنشي. قسم الدراسات الحرة، وأوصى به الملحقية الإيطالية. بعد عودته من روما رسم عدة لوحات للمؤسس، يقتني متحف الفن الحديث أحدها الآن

كنموذج فريد لفن البورتريه.. الآن، له صيت، ومعارضه يفتتحها كبار المسؤولين.

من يصدق ذلك من؟

لم يخش المؤسس أي إنسان، بحث عن الجوهر في الركام المهمل والتقط الموهبة في أعتى الظروف. لكم بذل جهداً في البحث عن أصحاب الكفاءات، حتى بين من حملوا له مقتاً أو كراهية، لكن الذين خلفوه لم يقتدوا به تماماً وإن ادعوا غير ذلك. قال المؤسس يوماً: تعاملوا مع الكبار تنهضوا وتزداد قاماتكم طولاً، شجعوا ذوي المواهب تزدهروا.

صحيح أن كلماته معلقة في ممرات ومصاعد وصالات المباني، وفي ذكراه صدر مجلد يحوي ما تم تسجيله والتحقق من صحة نسبته إليه، ومعظمها لا مجال للتشكيك فيها، لكن هل يقتدون فعلاً بها؟

لا..

الجواهري يعي تماماً السعي المحموم الذي قام به رئيس المؤسسة الحالي لدفع البروفيسور إلى احتلال مكانه، الوضع تبدل الآن، يقع اختيار الخلفاء على الأضعف منهم، الأقل موهبة، يسعون إلى مخلوقات تتستر على الأخطاء الموروثة بدافع حفظ الجميل! ما من أحد يتعلم الدرس. أحياناً يظهر من الضعيف ما لا يخطر على بال.

على أي حال.. هو هادىء الآن، واهن، يوقن أن ما قام به نما بشكل ما إلى المؤسس، أُحيط به علماً في الأبدية وروحه ترقبه من موضع خفي *لا يُدرك بالحس!*

أثناء خطوه في ممرات المقر، عند دخوله المصعد أو خروجه منه

فكأنه يمضي إلى مقابلته، سيمتثل بين يديه بعد لحظات، وجوده بعد رحيله أكثف مما كان عليه أثناء سعيه حياً، ليس بالنسبة له فقط، لكن.. عند الأصلاء كافة الذين أسهموا بعرقهم وجهدهم لتشييد هذا الصرح. لو أن الأمر بيده لأمر بإقامة تمثال له فوق القاعدة الخالية. بميدان التحرير، قيل في البداية بعد الفراغ منها أنها مخصصة للملك الراحل فؤاد، لكن يبدو أن بعضهم أقنع الابن أنه أحق، قامت عليه الثورة، خلعته، بقيت القاعدة صلعاء بلا تمثال. حتى اعتاد الناس شكلها فظنه البعض مكتملاً، وإنه تكوين في حد ذاته. بعد رحيل الزعيم الخالد، وفي غمرة الحزن عليه بادر البعض إلى تبنى اقتراح باكتتاب شعبي لنحت تمثال يوضع فوقها، وذكروا أن الزعيم لم يسمح بإقامة أي تمثال له أثناء حياته، أما وأنه قد رحل.. فالواجب إذن حتميّ والضمير يُملي، ما إن شرع البعض حتى أقدم خليفته على الحركة التي وُصفت أولاً أنها تصحيحة، ثم إعتبرت ثورة، وهوجِمَ الزعيم الراحل، واتهم في ذمته، وطعن عليه البعض بالمؤلفات وما لا يُحصى من المقالات، ولمح الأشخاص عينهم إلى ضرورة تزيين القاعدة الخالية بنحت جميل لمصحِّح الثورة ومعدل المسيرة، غير أن ذلك لم يتم لمصرعه المفاجيء أثناء ارتدائه لباس مارشال البر، واستمرت القاعدة شاغرة حتى بدأ الفرنسيون ينفذون مشروع مترو الأنفاق. وكان لا بد من إزالة عدة مبان قديمة فوق الأرض مثل المتحف الجيولوجي وأيضاً الكعكة الحجرية التي تتوسط الميدان كما أطلق عليها شاعر جنوبي لم يعمر طويلاً..

إختفت القاعدة.

يمط الجواهري شفتيه تعجباً وأسفاً..

هل يعرف القوم معنى الوفاء حقاً؟

أحق الخلق بنحت تمثال شاهق له هو المؤسس، لكن من يدرك ذلك الآن من؟

كثيراً ما فوجىء بنفسه ينطق أفكاره وخواطره بصوت مرتفع.

يتطلع بعض الجالسين حوله، ربما يتعجبون.. ما لهذا الرجل يكلم نفسه مثل المجانين؟ لا يعرف أي منهم بالطبع أنها إحدى عادات سيادته، أخذ ذلك عنه، كثيراً ما يردد بعضاً من جمله وعباراته، أو يطرق فجأة مثله، أو يلامس جبته براحته، يدركه سرور إذا قال أحدهم: إنه أخذ بعضاً من ملامح المؤسس، إنه أقرب الناس شبهاً به.

كم يبلغ الجواهري الآن؟

تجاوز السبعين بعامين، أب لخمس بنات وجد لسبع عشرة حفيدة، مع ذلك فإن وعيه حاد باليتم كأنه فقد والده أمس، كان المؤسس أستاذة ومرشد، بث فيه من روحه، اقترب منه وعايشه أكثر مما خالط أهله..

للأسف.. ما من شخص يمكن أن يسد بعضاً من الفراغ الذي خلفه، بعض منه موجود في هذا، عناصر في ذاك، لكن مثله لا يتكرر بسهولة، الأخوة يختلفون وهم أبناء بطن واحدة، من أين يجيء صنوه؟ من أين؟.

كثيرون يبذلون الجهد الآن للوصول إلى الطابق الثاني عشر، يوظفون مهاراتهم، يجندّون صِلاتهم، بل إن ثمة قوى عالمية ترقب منتظرة، وربما تتدخل بشكل ما. في الخمسينات والستينات اتجهت الأنظار من الداخل والخارج إلى أي تغيير يجرب في قطاع ما من المؤسسة. إعتبر ذلك مؤشراً ودلالة تستدعي كتابة التقارير الدبلوماسية والتحليلات الصحفية وأحياناً.. التعليقات الإذاعية.

كانت الوجوه المحيطة بسيادته ذات دلالة على أمور أعم وأشمل.. ما البال إذن بمن يجلس في المكتب الدائري؟

صحيح أن المؤسسة الآن ليست مثل الزمن القديم، الآفل المولى، الذي اعتبره المؤسس في غمار محنته مرحلة ذهبية، سمع ذلك منه مباشرة، لكن.. للمؤسسة هيبتها، ومكانتها، ما زالت..

المؤكد الآن أن الجهات المعنيّة لن تأتي بشخص من خارجها، الأوضاع داخلها لا تحتمل ذلك، ولا خارجها أيضاً، بعد البرقيات التي انهالت على مراكز القرار تأكدت وحدة العاملين، وقدرتهم على اتخاذ موقف موحد.

لم يخلف سيادته غريب باستثناء هذا الضابط المتقاعد الذي يختلف بشأنه الآن المعنيون بتاريخ المؤسسة، هل يمكن اعتباره من الرؤساء المتعاقبين أم لا؟

كان القصد من تعيينه إذلال الجميع بعد بدء المحنة الكبرى لبانيها ومُشيدها حجراً فوق حجر، لم يستمر وضعه مع أنه جاء في زمن السطوة والهيبة الوافرة، فشل في إرغام عم صديق على إعداد فنجان قهوة له.. مجرد فنجان.

آخر أيامه ، قبل خروجه بلا عودة، قال المتقاعد إن روح المؤسس مثبوتة في كل شيء، حتى الجدارن والفراغ، وإذا سعى أي قرار إلى التغيير، فلا بد من استبدال الناس والجماد معاً يتسم الجواهري..

حتى لو تم ذلك، لو أزالوها تماماً، من يقدر على ردم الحفرة الدائرية التي حيّرت الجميع بمن فيهم العلماء والمتخصصون؟ من يجبر أهالي امبابة القدماء وبولاق الدكرود على محو قدوم سيادته إلى الناحية الذي يؤرخون به لوقائع حياتهم حتى الآن، فيقولون: قبل ظهور المؤسس بكذا أو بعده بكذا.. بل إن بعضهم يحيي هذه

الذكرى بتلاوة الأوراد والإذكار، وأدعية خاصة، لا.. لن يأتي إليها غريب أبداً..

من إذن؟

تشير الدلائل والمعلومات المتناقلة إلى اثنين لا ثالث لهما، الأول هو مدير قطاع البحوث، والثاني رئيس قطاع الحواسب الآلية، أما القائلون باحتمال تولية الدكتورة مديرة القطاع التجاري لصلتها الوثيقة بزوجة أحد المسؤولين الكبار، وقراءة كل منهما الفنجان للأخرى والأخريات، فهذا من قبيل التشنيع، إذ كيف يمكن أن تتولى امرأة هذه المؤسسة التي لا مثيل لها في المنطقة، صحيح أن كل شيء جائز، لكن هذا صعب.. صعب، لا بد أنها أمنيات الدكتورة نفسها.. إذ يذكرها الجواهري أو يتمثلها بقامتها الفواحة بالإنوثة، وسعيها الجميل، وتماسك ثمارها رغم تجاوزها الخمسين، فإنه ينتشي لكن هذا عنده شيء، ودخولها المكتب الدائري أمر آخر! قال عطية بك برزانته الثاقبة..

«لماذا تستبعد ذلك.. كل شيء متوقع»..

حقاً، إنه زمن العجائب، كل ما جرى يؤكد ذلك، ألم يكن البروفيسور قاب قوسين أو أدنى؟

البروفيسور قلقاسة، البروفيسور قرع أصلي، وأخيراً دكتور بليب.. ألم يغلق الباب على نفسه ويذرف دمعاً كالنساء بعد تسليمه الجهاز أمس.. لكن الأمر حسم، ما زال في العقول بقيّة قادرة على وقف مهزلة كهذه.

أكد عطية بك أنه يتمنى حسم الأمر بسرعة، الوضع المذبذب خطر، مكروه، ألم يقل المؤسس أنه يفضل لحظات الخطر اتخاذ

قرار، ليس مهماً صحته أو خطؤه، المهم القدرة على الحسم.. وافق الجواهري، لكنه قال..

«لا تبالغ»..

غير أن الانتظار لم يمتد، صباح اليوم التالي دخل عم صديق مقهى رشيدة النمساوية، اتجه مباشرة إلى الجواهري، لم يكن بدأ بعد رشف كوب الحلبة الذي يبل به ريقه صباح كل يوم.

قال عم صديق إن الخليفة ـ هذا ما يطلقه على ورثة المؤسس ـ جاء مبكراً على غير عادته وأنه يلم حاجته!

نبوءة مرورية..

ماذا يجري في الدنيا؟

من يصدق ذلك؟

من؟

يستعيذ الجواهري من الشيطان الرجيم، ظن حتى اليوم أنه عاش وجرب وخبر ما لن يدع عنده مجال لأي دهشة، لكنه ها هو يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع، في المقهى، في الطريق، أثناء طلوعه السلم.

في البداية لم يدرك العلاقة، كان مشغولاً بالإصغاء إلى رئيس اللجنة النقابية الذي زاره في مكتبه، وأفضى إليه باسم المسؤول الجديد الذي سيدخل المكتب الدائري اعتباراً من صباح الغد، مال إلى الأمام قال: إن القرار السيادي الجمهوري سيذاع في النشرة السادسة، وإن باقات الزهور بدأت تصل بالفعل حتى أنها زحمت المدخل الرئيسي.

بشكل ما لم يفاجأ الجواهري بتعيين رئيس قطاع الحواسب الآلية، صحيح أنه من جيل جديد، لم يتجاوز السادسة والثلاثين

بعد، لكنه مشهود له بالكفاءة النادرة، والذكاء اللامع، ليس بسبب حصوله عى درجتين علميتين في تخصصات وعرة، ولكن لتأسيسه هذا القطاع الهام المستحدث في مصر زمن بدء العمل فيه، وتحقيقه أرباحاً طائلة للمؤسسة، وسمعته الطيبة التي اكتسبها في الخارج، حتى قيل إنه يخضع لشكل خفي من المراقبة الأمركية بسبب حرص خبراء البنتاغون وحذرهم منه باعتباره أحد عشرة أشخاص في العالم ـ منهم امرأتان ـ يمكنهم النفاذ إلى الحاسب الآلي وفك الشفرات الخاصة به، وبالتالي الحصول على أدق أسرار القوة النووية الاستراتيجية التي لا يلم بها الرئيس الأميركي نفسه.

يا سلام!

لم تخب نظرة المؤسس قط، لمحه أثناء إلقائه محاضرة في الجامعة الأميركية، تعرف إليه، طلب منه الإتصال لتحديد موعد، أثناء اللقاء أهداه منحة علمية وصلت إلى المؤسسة من هيئة لنكولن الدولية، مخصصة لدراسة الحواسب الآلية بجامعة فيلادلفيا، هكذا أضاف سيادته هذه الكفاءة النادرة إلى المؤسسة، مع أنه لم يره إلا حوالي ربع ساعة، عبر لقائهما الوحيد. لم يعد المؤسس موجوداً في العالم بعد انتهاء البعثة وعودته ليبدأ العمل على الفور، من هنا لا يعتبره الجواهري دخيلاً مثل البروفيسور، إنه ينتمي إلى سيادته حتى وإن لم يعايشه طويلاً، لم يأخذ عنه مباشرة، لم يصاحبه، لكنه غرسه وثمره.

يدرك الجواهري ويعي أن المؤسسة سوف يتولى أمرها خلال سنوات قليلة مقبلة من لم يعرف بانيها وسيدها الأول، من لم يلتق به قط، هذا منطق الزمن وقانونه، لن يكون الجواهري أو عطية بك أو صديق النوبي في هذه الحياة الدنيا، لذلك من المهم الإبقاء على

روح تلك المنشأة الجبارة، على تقاليدها، على القيم التي زرعها سيادته في هذه التربة الخصبة.

ترى.. ما مدى إلمام الرئيس الجديد بهذا الموروث كله؟

لا يدري..

إنه ينفض عن وعيه ما نما إليه من أقاويل بثها الحاقدون، أعداء أي ناجح، ألم يقل سيادته في اجتماع صباحي يوماً عقد في الخمسينات، إنه كلما هوجمت المؤسسة أدرك ثباتها وصحة تقدمها؟

لا.. لا.. إن ما يتردد كلام فارغ، بعضهم يقول إن ما يتردد عن عبقريته وهم، وإنه كان في مهمة غامضة بالولايات المتحدة، يبدو أنها كانت أحد أسباب المحنة العظمى، بعضهم يقول إنه ابن غير شرعي لسيادته، بينما يقول آخرون إنه كان سبباً في دخوله السجن مع بدء الكارثة.. هل يستقيم هذا؟

يقولون إن الوحيد المطلع على سره هو عم صديق النوبي، إنه يعرف أمه التي ارتبطت بالمؤسس، وكان يضاجعها في الطابق الثاني عشر، في حجرة ملحقة بمكتبه، فيها علقت منه، لو نطقت جدران هذا الطابق لذهل القوم، غير أن الإنسان الوحيد الملم يظل صامتاً حتى الآن، هل يتكلم عم صديق يوماً؟

لا أحد يدري..

إذا قدم إليه فنجان القهوة المحوج فسيعد ذلك علامة رضاء وقبول، إذا امتنع ولزم الإنطواء فسيكون ذلك علامة شؤم وضيقة، سيتضح ذلك..

يلوح الجواهري بيده..

تموج المؤسسة بكلام فارغ كثير، وشايات، أحقاد، قال سيادته يوماً: إنهم بشر، وما ينطبق على غيرهم يسري عليهم..

يجب عليه ألا يصغي طويلاً إلى تلك الشائعات.

هذا ما ردده لنفسه حتى الظهر، لكنه بعد سماعه بما جرى اليوم يمكنه أن يصدق أي شيء، حتى لو قيل إن البغل يلد، وإن النار تشعل الماء.

إنه مضطرب، مقلقل.. هو من أحنت ظهره التجارب والأيام الصعبة. من كان يتصور وقوع ذلك من أقرب الناس إليه.. من؟ عندما تحركت السيارات التي تقل العاملين في تمام الثانية والربع، بعضها اتجه إلى ميدان سفنكس، والآخر إلى شارع جامعة الدول العربية. لكنها جميعاً لم تتحرك إلا أمتاراً معدودات، كان الزحام غير عادي، مئات المحركات تهدر، أبواق قلقة تتردد، دخان عارم كثيف يتصاعد مختلطاً بحر الظهيرة والغبار القادم من الفراغات الصحراوية المحيطة بالمدينة، وتلال المقطم الشرقية، أدرك السائقون المتمرسون أن التوقف سيطول فأوقفوا المحركات تماماً، بينما بدأ بعض الركاب يشعرون بغثيان وتدركهم دوخة..

صحيح أن توقف المرور طبيعي في ساعة الذروة تلك، لكنه معتاد بدرجة ما، أما هذا التكدس فبدا غريباً، خاصة أنه لم يمر موكب رسمي، آخرون قالوا إنه ما من مناسبة قومية تستدعي خطاباً في مجلس الشعب الذي يقوم مقره وسط المدينة، أي احتفال به يصاحبه موكب وتشريفة يربك المرور من حلوان إلى عين شمس، الشوارع مثل الأواني المستطرقة، لا يوجد الآن زوار كبار من الملوك أو الرؤساء، أما وصول بعضهم فجأة فلا يترتب عليه ذلك!

مؤكد.. أن الأمر غير طبيعي!

في المقعد الخلفي للسيارة روسية الصنع تململ عبده النمرسي مدير العلاقات العامة، إنه مشغول منذ الصباح الباكر في تقصي

المعلومات المتاحة كافة عن الرئيس الجديد، انزعج عندما اكتشف لأول مرة أنه لا يعرف ملامحه. غير متأكد منها، في ذهنه إطار عام، لكنه مهما اجتهد لا يستطيع إدراك علامة مميزة، كيف يمكنه الإطلاع على مزاجه الخفي، ميوله التي لا يدركها الآخرون؟

ما يحيره.. من أين يبدأ، وكيف؟

لا بد أن عم صديق يعرف عنه الكثير، لكنه لا ينطق، أما ما عدا ذلك فأوهام وشائعات يرددها البعض من تلقاء أنفسهم، إما بحسن نية أو سوء قصد، ينتجه إهتمام بعض الأجهزة الأمنية المختلفة، ودوائر أجنبية بأوضاع المؤسسة وشؤونها. المهم بالنسبة له الآن أن يحاول الإطلاع على جوانب وزوايا لا يهتم بها أحد. لو أنه اهتم به من قبل، لكنه بدا خاملاً، نائياً، منطوياً، لا يظهر في مآتم، ولا أفراح، ولا يجامل أحداً ببرقية عزاء، أو تهنئة، مع أن اللوحة الكبرى في المدخل الرئيسي لا تخلو يومياً من نبأ ميلاد أو زواج أو شفاء من عملية جراحية أو رحيل أحد الأقارب أو أحد العاملين عن العالم. قيل إن طبيعته هكذا، وإنه لا يلتقي بأحد، وعند وصوله يغلق الباب ولا يفتحه، عنده قدرة على الاستمرار في الحديث بدون إلتفاته إلى رنين هاتف، أو أي مصدر إزعاج، يروي أحدهم ثباته عندما كان يتناول اللحم المشوي في مطعم لاتيني بمكسيكو سيتي، عندما إقتحمت عصابة مسلحة وأغلقت الأبواب، وكان هدفهم عقداً من ألماس، يحلي جيد امرأة أربعينية فارهة، مكتملة الثمار، لم يرفع عينيه عنها منذ جلوسه، أشاعت العصابة رعباً، خاصة بعد إطلاق النار في الهواء، الوحيد الذي لم يهتز له جفن، لم تختلج في وجهه عضلة، استمر بتذوق الطعام متمهلاً، متطلعاً إلى الأمام وكأن الأمر لا يعنيه، مع أن شركاءه الثلاثة انبطحوا أرضاً. في اليوم التالي أشارت الصحف إلى ثبات أعصابه،

وعلق أحدهم قائلاً: إنه لولا ثبوت أجنبيته، وجنسيته المصرية، ومجيئه بدعوة رسمية من أكبر مركز للحواسب الآلية لتمسك البعض في صلة ما بالمجرمين الملثمين الذين اختفوا وكأن شيئاً لم يكن. مثل هذا.. هل يزعجه رنين هاتف، أو فرقعة جوفاء، أو صخب ما، يبدو أنه اكتسب بعض ملامح وصفات العقول الآلية، والحواسب التي أمضى عمره خبيراً فيها، وربما كان هو نفسه حاسباً على هيئة آدمي..

على أي حال سنرى.

لا يتم الاتصال به إلا من خلال مديرة مكتبه الآنسة انتشار، لكنه.. رد عليه مرة عندما أدار الرقم الداخلي، في الأيام التالية حاول مراراً لكن.. لم يجبه إلا رنين أجوف.

الآنسة انتشار؟

هل تكون هي المدخل؟

ربما..

سيبدأ من الغد إهتمامه بها. يبتسم.. يستعيد لحظات مماثلة، عندما يشرع تجاه أنثى معينة، هذا التحدي الممتع، تتضاعف متعته كلما اشتدت مناعتها، وصعبت ظروفها، مهما بدت إحداهن مستحيلة، فلا بد أن ثمة ثغرة لا تستعصي، المهم.. تلمس الطريق، ثم.. النفاذ إلى اللب مباشرة.

في البداية ظن ذلك قاصراً على بنات الجمالية والباطنية وقلعة الكبش، لكنه اكتشف فيما بعد أن أصل الموضع واحد، وهذه البيوت الأنيقة، الثرية، تخفي فجائع جمة، المهم.. مجال حركته، وإدراكه مفتاح القضية.

في الجمالية يقولون إنه قادر على غواية أي مصونة، إخراجها

من خدرها، ترويضها وتطويعها ثم اللعب بها كالخاتم في الأصبع، أجمل الجميلات، اللواتي استعصين على رجال أصحاب جاه ونفوذ استسلمن له.

إن منظره يبدو منفراً للوهلة الأولى، قصر ملحوظ مع امتلاء في منطقتي الصدر والأرداف، صلعة برّاقة لا مثيل لها في المؤسسة إلا صلعة البروفيسور، غير أنه يبدو مائلاً إلى الوراء عكس جبهة الآخر المنكفئة إلى الأمام وكأنها واجهة إعلانات، شفتاه مضمومتان، مزمومتان، إذ تحدث طالتا قليلاً وكأنه يصفر، كان قادراً على اكتساب ثقة النساء بسرعة، ثمة شيء ما أنثوي في تكوينه، ربما يسهل أموره معهن، كلهن.. المثقفات، شبه الأميات، الثريات والفقيرات، خصيصة غامضة تجعلهن يفضين إليه بالمكنون المستتر، يثقن فيه، ماذا جرى؟

يتطلع عبده النمرسي حوله، يسأل، يجيب السائق مشيراً إلى توقف المرور تماماً، يتطلع إلى الساعة، يخشى التأخير، إنه على موعد هام في نادي القاهرة الرياضي، لم يدخله من قبل، هناك سيلتقي بإحدى قريبات الآنسة انتشار، أول خطوة عملية تجاه سيادته، غداً صباحاً سوف يمضي إلى أرشيف الصور، وأرشيف المعلومات، سيطلب عشرة ملفات، من بينها ما يخصه هو، لا يريد لفت أي أنظار إلى تحركه، طبعاً.. وظيفته كمدير علاقات عامة غطاء جيد، مقنع، يمكنه الحركة في جميع الإتجاهات، المهم.. أن تبدأ الحركة، إنتهاء هذا التوقف..

تذكر سائق عربة أجرة اليوم الذي توقفت فيه الحركة تماماً، حاول الدخول إلى طرقات جانبية لكن كل المسالك سدت، فيما بعد عُرِف السبب، إذ قامت قوات الحراسة الخاصة بإجراء مناورة في غاردن سيتي خلال ساعات الذروة، إفترض المخططون وقوع

هجوم ضد المركز الثقافي التابع للمؤسسة، والمخصص لإطلاع الباحثين في الأدب والتاريخ والآثار والاقتصاد، ويقصده عدد كبير من الأجانب القادمين والوافدين.

أربع سنوات وبضعة شهور مرت منذ تلك الظهيرة، كثيرون استعادوها، خاصة لحظات ظهور الجنود المرتدين سترات سوداء شاهرين أسلحتهم في وجه المارة متخذين الأوضاع الاستعدادية القصوى، توقفت الحركة تماماً حتى تخوم المدينة، لم تستطع عربات الإطفاء الوصول إلى مكان الحريق رغم إطلاق صفاراتها باستمرار، ولجوء رجالها إلى قرع الجرس التقليدي، لكن.. بلا فائدة.

ما من بادرة تلوح الآن بانفراجة قريبة، بل إن بعض العابرين قالوا أن الوضع عينه في شارع ستة وعشرين يوليو، وفوق كوبري اكتوبر، وجسر مايو.

ماذا يجري إذن؟

لا أحد يعرف على وجه الدقة، حتى الشائعات التي تسري في مثل هذه الحالات، والأخبار مجهولة المصدر لم تتردد، ما من إجابة دقيقة، البعض يمط الشفاه، بينما يهز آخرون رؤوسهم نفياً أو حيرة، أما أولئك الذين اعتادوا الظهور في مثل هذه الأحوال قرب المفارق لمساعدة رجال المرور فلم تفلح جهودهم، بدا الأمر غير طبيعي، لم يعهده أحد من قبل خاصة في منطقة الإسعاف، وميدان الأوبرا، وميدان التحرير حيث تواجهت مقدمات العربات وتقاطعت المسارات.

خرج من المدخل الرئيسي للمقر الأصلي بعض رجال الأمن الخاص، اتجه كل منهم إلى إحدى العربات التي لم تبتعد كثيراً، وجه كل منهم سؤالاً: هل رأى إنسان عم صديق النوبي؟

بدوا مكلفين بالعثور عليه، والواقع أن المؤسسة تلقت عدة مكالمات متتالية من خلال أجهزة الهاتف العادية، وأجهزة الاتصال البديلة، وقيل إن الهاتف الأحمر الحساس رن مرتين في الطابق الثاني عشر، وكان المتحدث في جميع المرات منتمياً إلى إحدى الجهات الأمنية السيادية، كما نشطت الحركة في برج الاتصالات الدوّار. إضطرت سكرتيرة مدير قطاع البحوث إلى إبداء غضبها وقلقها المكتوم، الأسباب الباعثة للكدر عندها عديدة، أهمها الآن، إنتظار أطفالها الثلاثة في الطريق، هكذا رتبت أمورها يومياً على وصول العربة إلى ناصية شارع خسرو بضاحية حلوان البعيدة، في الرابعة تقريباً، أوصت الأولاد بالوقوف بعد خروجهم قرب مدخل المدرسة، ألا يتحركوا من أماكنهم، ألا يبتعدوا حتى ظهور السيارة، ألا يلعبوا الكرة فوق الرصيف، أن يحذوروا أي غريب، خاصة الصغير، الولد أبيض وممتلىء عكس أخويه، في الأسبوع الماضي أدركها رعب عندما أنبأها باقتراب رجل يرتدي طاقية، ابتسم له وقال له: تعال لتحصل على الجائزة، عندما ظهر شقيقه الأكبر ابتعد، إنها في خوف دائم أن يضحك أحدهم على الصبي، من قبل عانت رعباً على شقيقيه، تحاول مرة بالتلميح، ومرات بالتصريح، تحذرهم من ممارسة الألعاب التي ينحني فيها الأولاد أو يقفز بعضهم فوق البعض، كل أسبوع تتلقى خطاباً من زوجها المدرس المعاد منذ ثلاث سنوات إلى جمهورية اليمن، محافظة ذمار، ينبهها إلى المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها الأولاد، أن يضحك عليهم أحد، أن يصاحب أحدهم الأكبر سناً، ألا يشتروا حلوى من أكشاك الطريق، خاصة المحيطة بالمدرسة، ألا يقبل أحدهم أي زهرة تقدم إليه من قريب أو غريب، إنهم يضعون البودرة المخدرة في الحلوى والورود.. فلتنتبه! إن قلبها ليهفو الآن،

العربات مسرعة والعقول طائشة.. ربنا يستر..

عندما تصل العربة يصعدون إلى السيارة، أوصتهم بمصافحة السائق وجميع زملائها، وكثيراً ما تبرز شطائر أو حلوى من حقيبتها، تصبيرة سريعة حتى وصولهم إلى البيت. في أيام الشتاء يصلون إلى البيت في المنطقة السادسة بمدينة مايو والغروب مكتمل، كان الله في عونهم.. وعونها أيضاً، الدروس كثيرة، والواجبات ثقيلة، وحِمْلها كله صعب، خاصة بعد سفر الرجل.. كان الله في عونه هو الآخر، حقاً.. اشتاقت إليه!

انتظار الأولاد وركوبهم معها يوفر عليها الاشتراك السنوي في الحافلة المدرسية، يكلفها كل منهم ثلاثمائة جنيه.

ألف جنيه في السنة.. هم أحق بالمبلغ.

إنها تتطلع إلى الساعة، الرابعة وخمس دقائق..

تضطرب أمعاؤها، تتولى دقات قلبها، الأولاد بمفردهم الآن، معرضين لجميع الاحتمالات، ماذا سيفعلون؟ كيف سيدبرون أمورهم؟ الولد الكبير عاقل، إنها فزعة لقلقهم وخوفهم عليها.

ما لهذا اليوم يبدو أغبراً منذ الصباح؟

بعد التأكد من صدور القرار السيادي بتعيين رئيس قطاع الحواسب الآلية رئيساً أدركها غم وكدر، لكم منت نفسها بوصول الرجل الذي عملت معه إلى الطابق الثاني عشر، كان من أقوى المرشحين، بل بدا واثقاً، متمكناً، بعد الإطاحة بمشروع البروفيسور، ماذا جرى؟ لا تعرف، هذه أمور علوية لا تدرك إلا أعراضها أو ما يمر تحت عينيها من سطور يُتاح لها الوقوف عليها، والنفاذ إلى خباياها.

ضاعت الفرصة!

لو أنه أصبح رئيساً للمؤسسة لصعدت هي أيضاً إلى الطابق العلوي، لحق لها المطالبة بعربة خاصة لتوصيلها من وإلى البيت، عربة بسائق ينتظرها أمام البيت، تلتقط أنفاسها عند النزول صباحاً، تتحكم هي في الموعد، ولا يتحكم فيها كما يحدث الآن، وعند العودة يقطع الطريق مباشرة، لا يتوقف في دار السلام، والمعادي، والمعصرة، يمكنه انتظارها إذا أرادت شراء خبز من الفرن الأفرنجي لإعداد سندويشات الصباح، أو قضاء بعض الحوائج من هنا أو هناك..

حظ!

لا تدري ما ينتظرها خلال الأيام المقبلة، لم يخف عليها اكتئاب المدير وغمه طوال اليوم وإعتذاره عن عدة مواعيد، لا أحد يعرف نوايا سيد المؤسسة الجديدة ربما يصدر قراراً بنقله إلى أحد الفروع الإقليمية.. ماذا يكون مصيرها عندئذ؟

عقارب الساعة تتقدم بإصرار لا يمكن رده، مع كل ثانية مولية يتصاعد جزعها، وشعورها باتساع المسافة بينها وبين الصغار، توشك على البكاء..

لم يطرأ أي تغير، حتى الحركة الضئيلة التي كانت تقدم عليها بعض العربات توقفت، في الفراغ العلوي حلقت طائرة مروحية، تطلع إليها البعض، قالوا إن القوات المسلحة تراقب الوضع، وتُبدي النصح، بينما أكد مدير أمن المؤسسة أنها تُقلُّ عم صديق النوبي بعد العثور عليه أثر عمليات بحث مكثفة جالساً في أحد المقاهي قرب مسجد السلطان الحنفي بالناصرية.

لم يعد التكدس قاصراً على وسط المدينة، إنما امتد حتى

الأطراف، وصل إلى طريق المطار، وإلى مدينة الملاهي الجديدة التي يُعلن عنها يومياً في التليفزيون بعد نشرة التاسعة مساء، تراصت العربة في جميع الاتجاهات، فوق جميع الجسور الواصلة بين ضفتي النيل، من إمبابة شمالاً حتى كوبري الجامعة جنوباً، أما مسار القطارات فتوقف أيضاً بسبب محاولة بعض العربات المحملة بخضار سوق روض الفرج التقدم فوق الخط الحديدي، وتعطل أحدها فوق النيل مباشرة، اضطر مدير الحركة الرئيسية إلى وقف القاطرات القادمة من الجنوب، ولكنه رفض فتح أبواب القطار التوربيني القادم من الاسكندرية قبل وصوله إلى رصيف المحطة بسبب مخالفة ذلك لاتفاقيات التشغيل الموقعة مع الجانب الفرنسي والتي قد تؤدي إلى وقوع تلفيات تفسد مدة الضمان الدولية. توقف القطار قرب المساكن الشعبية بغمرة التي أنشئت للفقراء آخر العصر الستيني الشمولي، كما تصفه المقالات الافتتاحية الرسمية، ومعظم هذه المساكن أقامها الفرع المعماري التابع للمؤسسة.

المهم.. تعطل التكييف داخل التوربيني، مما حول العربات إلى ما يشبه الأفران، وأغمي على قاضي المحكمة العليا الذي اعتاد السفر صباح كل إثنين إلى الثغر في قطار الثامنة، والعودة في توربيني الثانية والنصف، كما ارتبك أمين المكتبة الشبابية، عندما أخبرته زميلته التي أمضى بصحبتها ثلاثة أيام كلها متعة وهناء في مدينة الاسكندرية أن الدورة الشهرية بدأت منذ لحظات، وأنها تنزف دماً، تشعر بنفاذه إلى ثوبها، أنها في حاجة ضرورية إلى قطن، إلى فوط صحية، إلى أي شيء.. كيف يمكنها أن تمشي؟ هل يمكنه التصرف؟

في الوقت عينه تجري اتصالات على أرفع مستوى سيادي، خاصة بعد فشل خبراء المرور، وبعض المتخصصين الذين تم

الاستعانة بهم سراً من السفارة الأميركية، مثل هذا الوضع خطير، خاصة في المرحلة الأولى التي لم يعرف فيها أحد السبب الحقيقي، يعني هذا التكدس شل الحركة في قلب العاصمة النابض، عندئذ يمكن للجماعات الإرهابية، والمناوئين الحاقدين ومن بقلوبهم مرض تنفيذ بعض العمليات، مثل مهاجمة الأماكن الحساسة، أو محاولة السيطرة على مقرات البث الإذاعي الموجه على الموجات العاملة، القصيرة بأنواعها، والمتوسطة والـ F.M.

كل شيء ممكن..

هذا ما ردده البروفيسور لنفسه أثناء جلوسه منزوياً في المقعد الخلفي. إنشغاله بما يمكن أن يحدث له، ولكن امتلاء مثانته قليلاً مع صعوبة لجوئه إلى دورة مياه، أو مغادرة السيارة وإنزوائه هنا أو هناك، جعله أكثر تململاً وقلقاً، تذكر يوم تمرد جنود الأمن المركزي، عندما انطلقوا هائجين يدمرون كل شيء في طريقهم بعد سريان إشاعة لا يدري أحد من أطلقها حتى الآن؟ تقول إنهم سوف يمضون ستة شهور إضافية في الخدمة الإجبارية، في ثوان اشتعل الموقف، لا يذكر البروفيسور من قال على مسمع منه إن الأمور في مصر تقع فجأة، ويمكن لأسباب تافهة جداً، أن تفجر أموراً طال تراكمها... ترى من قال ذلك؟ أو.. أين قرأ هذا المعنى؟ يتلفت حوله، يتحرك جالساً عند حافة المقعد ليخفف الوخز السفلي المؤلم.

ماذا يجري بالضبط؟

لكنه صباح اليوم التالي، عند وصوله إلى مكتبه، وبعد سماعه السبب نسي غمه وهمه وتوقعاته لما يمكن أن يلحقه الرئيس الجديد به، ضحك غصباً عنه!

الحق أن الجميع، سواء خارج المؤسسة أو داخلها أدركهم

عجب وذهول، كما أن الأنظار كلها إلتفتت إلى المقر الأصلي، وسعى إليه المراسلون الأجانب المتربصون، المتحفزون دائماً لأي صغيرة أو كبيرة تعكس إضطراباً كامناً، أو خللاً دفيناً، لكنهم لم يتمكنوا من مقابلة أي مسؤول، المهتمون بتاريخ المدينة أضافوا إلى أيامها الاستثنائية المستقرة في ذاكرتها الجماعية يوماً آخر مماثلاً للسادس والعشرين من يناير/كانون الثاني والتاسع والعاشر من يونيو/حزيران، والسابع عشر من يناير/كانون الثاني، ويوم تشييع جثمان الفريق عبد المنعم رياض، وجنازة الزعيم عبد الناصر، غير أن الفرق جوهري، فالأيام السابقة كلها نتجت عن ظروف عامة وأسباب متشابكة، منها الاقتصادي والاجتماعي، والسياسي، لكن ما جرى أمس سببه شخص واحد، شخص فقط لا غير، يعتبر من رموز المؤسسة..

نعم.. إنه من القدامى، من الجيل الأول، واحد ممن عملوا عمرهم كله في هذا الصرح المتين.

مرة أخرى يستعيذ الجواهري بالله من الشيطان الرجيم، بعد إدراكه السبب الذي تهامس به الجميع، ولم يجرؤ أحدهم على البوح به، أو التصريح، إنتابته شفقة، حتى إنه سأل عن الجهة المعنيّة بالتحقيق الآن ليمضي إليه زائراً ومطمئناً ومستفسراً إذا أمكنه ذلك.

سيرة صاحبه على كل لسان الآن، كل صغير وكبير في المؤسسة يردد ما يحلو له الآن، إنشغلوا بما تناقله البعض أمس عن فضيحة العثور على سروال بنفسجي اللون معلق أمام المصعد الرئاسي المخصص للطابق الثاني عشر، كتب عليه أنه يخص رشيدة النمساوية، عندما كانت تسعى في المقهى المواجه، وأن مسؤولاً مهماً في المؤسسة احتفظ به في درج مكتبه حتى عصر أمس! كان

السروال رقيقاً، أنيقاً مثيراً للفتنة، يحمل علامة مصنع يقع بمقاطعة شرقية أصبحت الآن جزءاً من ألمانيا الموحدة.

إذن.. عطية بك هو السبب!

عطية بك أقرب الناس منه وأعزهم عليه، لم يُعرف عنه طوال خدمته عوج أو ميل، الكل ينهشون فيه الآن، حتى الذين يجهلونه.

لو التقى به، لو أتاحوا له مقابلته، لن يلومه.. لن يؤنبه بل سيعاتبه: كيف أخفى عنه هوايته ومهاراته؟ عطية بك القديم، العارف بالأصول، الذي تلقى عن المؤسس مباشرة، أحد اثنين لا بد من مقابلتهما، والإصغاء إليهما في المكتب الدائري، قبل إصدار أي قرار، أو إجراء أي إتصال، كيف ستتم هذه المراسم.. كيف؟

من أجل المؤسسة هجر تخصصه النادر في اللغات القديمة، الآرامية والسريانية والهيلوغرفية، والكتابة المسمارية، فارق الجامعة في سن مبكرة وتبع المؤسس الذي تعرف إليه أثناء زيارته لقطب برلماني شهير وقتئذ. منذ دخوله الخدمة لم تقع منه مخالفة حتى إعتبر مثلاً يحتذى، كان خفيف الظل، مقبول العشرة، بادي المودة، عنده قدرة على بث الثقة في محدثه، لذلك لعب دوراً هاماً في مفاوضات ومناقشات هامة ومصيرية، كان قليل اللفظ، لا ينطق إلا بحساب، يذكر الحراس وعلى المبنى القديم أو الفروع الأخرى أنه لم يكتف بالتحية، بل كان يتقدم مصافحاً من يجهله ومن يعرفه، غير أن أهم خصاله التي اكتشفها المؤسس قدرته على توليد الإشاعات، وتأليفها، وأيضاً.. نشرها بين الناس.

يقولون الآن إنه أخفى هوايته تلك عن ولي نعمته، عن المؤسس، لكن عم صديق النوبي ينفي ذلك تماماً بهزة صارمة من رأسه، فيما بعد قال إنه صارح سيادته بحبه وميله إلى رجال المرور، وفي أول لقاء جرى بينهما، وأثناء تقديم فنجان القهوة الخاص إليه، سمع عم

صديق بأذنيه قوله أنه قد يضطر إلى النزول يوماً لإشباع رغبته. عندئذ أومأ المؤسس موافقاً ومجيباً، تذكر عدد من العاملين أنهم قرأوا عن صديق المرور، الرجل الذي يرتدي ثياباً مدنية، يظهر في أوقات الذروة عند النواصي، ونقاط الاختناق، يتحرك بهمة بادية، وحماس، مقدماً المساعدة لرجال المرور، وبين الحين والحين يلوح مبتسماً لتلاميذ المدارس الذين يعرفونه ويتحدثون عنه.

أكد ثلاثة موظفين في قطاع التصدير أنهم شاهدوه في رمضان الماضي عند تقاطع شارع الأزهر بطريق صلاح سالم، لكن لم يخطر لهم قط أنه عطية بك، يبدو أنه كان يجري تغييرات في ملامحه، ويرتدي ملابس لا يظهر بها أبداً عند تردده على المؤسسة، قال بعضهم إنهم لمحوه لمدة ثوان معدودات غير كافية للتحقق من شخصه.

بعض الصحف أشارت إليه في أخبار المجتمع باعتباره مواطناً صالحاً، يتجاوز ذاته، ويبذل من جهده، جريدة الأخبار أطلقت عليه لقب «صديق المرور»، لكنها لم تذكر اسمه قط، كما صرحت باسم أشهر قارىء صحف، عيسى متولي، ونشرت مرات عنوانه في إمبابة، كما أجريت معه مقابلة إذاعية في برنامج الظهيرة الشهير قبل إقصاء مقدمته نتيجة وشاية استجاب لها مركز قوة مؤثر عظم نفوذه خلال العهد الشمولي.

يبدو أنه نجح في إخفاء شخصه، ألم يخفِ هوايته عن أقرب الناس إليه، عن صنوه الجواهري.. إذن، هل سيعجز عن إخفاء شخصه أو تمويه حقيقته.

متى وكيف أصبح صديقاً للمرور؟

بعد أيام عديدة من وقوع الزحام المدبر كما أطلقت عليه إحدى الوكالات الأجنبية، أمكن للجواهري لملمة أطراف الخيوط

المتباعدة، ما كان يراه منها، وما خفى عنه، لم يسع من أجل تقديم هذه المعلومات إلى جهة ما، أو لكتابتها في تقرير خاص، إنما حاول أن يدرك ما أخفاه عنه.

يقول الجواهري: إن صاحبه لم تبد منه بادرة تدل على معاناته من أمر خفي، لم ينطو قط، ولم يذهب ليعالج عند طبيب نفسي كما ردد بعضهم مؤخراً، بل إنه كان اجتماعياً، ودوداً، متواجداً في المناسبات السارة والمحزنة التي مرت بالمؤسسة، لم يخلف جنازة تمّ خلالها تشييع أحد العاملين، أو قريب لهم، كذلك الأفراح، لم يكتف بالحضور، إنما يشارك في الترتيبات والإجراءات.

في المآتم يقف ليتقبل العزاء. وعند الدفن يناقش الحانوتية والتربية يدخل في التفاصيل الحرجة التي لا يقدر على خوضها الأقارب المذهولون بحزنهم، في الأعراس كان هو الحجة والمرجع في معرفة التكاليف الدقيقة هنا أو هناك، في صالات الفنادق أو النوادي، أو أندية القوات المسلحة، بل يضع الترتيبات ومحتويات القوائم التي ستقدم بما يحقق وفراً في التكاليف، في درب البرابرة يعرفه أصحاب محلات الحلوى، والعلب التذكارية المصنوعة من المعدن أو الخزف، وعندما احتفل بخطوبة ابنته، أعد بنفسه مائدة بهرت المدعوين، وقف على قدميه ثلاثة أيام بلياليها، أثنى عليه المؤسس الذي حرص على حضور الحفل من بدايته حتى نهايته، كان أول الحاضرين وآخر المنصرفين، وتلك منزلة ولفتة لم يحظ بهما الجواهري نفسه.

كل من يتردد على المقهى يعرفه، كان موضع ثقة رشيدة قبل سفرها، وإليه أفضت بسرها ومكنونها، كان يحضر مبكراً، يأوي إلى الركن عينه، لم يبدله قط، يجلس بالقرب من العمال وصغار

العاملين الذين أنهوا نوبتهم الليلية أو القادمين من بيوتهم النائية ولم يتمكنوا من تناول إفطارهم لبعد مقار إقامتهم، وعدم اشتراكهم في حافلات المؤسسة المخصصة تقريباً للفئات الوسطى من العاملين.

عطية بك لم يخجل قط من جلوسه إلى أصغر العاملين ولعب الطاولة وتدخين النرجيلة، إستراحوا إليه بعد إستقرار ثقتهم به وتأكدهم أنه لا ينقل عنهم إلى الإدارة العليا، بل نما إليهم أنه تعرض لضغوط شتى أثناء الحقبة الشمولية الستينية، خاصة قبل وبعد وقوع المحنة الكبرى، لكنه لم يستجب وأبى، أيضاً.. حظي بثقة النساء، معظمهن كن ينفردن به ويفضين إليه بأدق شؤونهن، كان يجيد الإصغاء إليهن، مبدياً الاهتمام الشديد، مصمصاً بشفتيه بين الحين والحين، أو محركاً يديه تماماً كما يفعلن..

كيف يمكن اعتبار شخص مثله منطوياً، أومصاباً بالفصام، أو مقامراً على استقرار الدولة؟

غير أن ما كتمه الجواهري ولم يعبر علانية عنه، ألمه لإخفاء نشاطه عنه، وحيرته لقدرته على إبقاء هوايته بعيداً عن متناول أي شخص.

متى بدأ نشاطه كصديق للمرور؟

لا بد أن ذلك جرى في فترة مبكرة من حياته، بالتأكيد.. قبل إلتحاقه بالمؤسسة، ألم يصارح سيادته بهوايته، فضل الاعتراف والتصريح بدلاً من تطوع أحد الوشاة بإبلاغه.

الضباط الذين وصلوا إلى رتبة لواء الآن سمعوا عنه أثناء دراستهم بكلية الشرطة، يقول مسؤول مروري كبير إن الإدارة تحتفظ بملف شرفي له، إلى جانب ملفات رجالها، لكنه لا يحمل رقماً مسلسلاً، بعد أن جرى منه ما جرى تمَّ فحصه بدقة، لم يعثر

فيه أحد الأخصائيين على ورقة واحدة تشينه أو تضعه في دائرة الشبهة.

بدأ عطية بك نشاطه شاباً غضاً في ميدان النزهة، كان يعيش في أحد البيوت القديمة، الفسيحة التي بناها البارون أمبان بداية القرن عند تشييد ضاحية مصر الجديدة، كان يتأنق، لم ير يوماً طويل اللحية قط، دائماً تفوح منه رائحة عنبر، اعتاد شراءه من عطار قديم في سوق الحمزاوي، إلى جوار مسجد برسباي.

كان يقف وسط الميدان، قرب جندي المرور، في الأربعينات كان القدامى بمفردهم في الخدمة، لكل منهم هيبة وعلم بالأصول، لا يقبلون الرشوة مهما كان مصدرها، كلمتهم مسموعة، بمجرد ارتفاع يد الواحد منهم تتوقف أي سيارة مهما كانت شخصية راكبها، لا يعنيهم التهديد أو الوعيد، لم يجرؤ أي إنسان.. مصري أو أجنبي على أن يفتح عينيه في مواجهتهم، أو النطق بجمل مثل، «أنظر لتر إلى من تتكلم».. «ألا تعرف من يقف أمامك»؟ «كم نمرتك.. كم»؟

عرف عطية بك الوقفة الشماء من هؤلاء المؤصلين، منهم تعلم كيف يبرز الهيبة؟ كيف يقف وسط الطريق؟ متى يدير ظهره إلى العربات، ومتى يرفع يده الممسكة بعصا قصيرة، يد تسمح وأخرى تمنع، متى يتقدم ليساعد طفلاً أو عجوزاً على عبور الطريق.

للأسف.. انقرض أولئك المجربون، القدامى، كان الواحد منهم يقف كأنه قائد يستعرض جنداً أو قوماً، أو عظيماً يتأهب لأداء قسم، عرف بعضهم في أيام الحر المبكرة خلال مارس/آذار أو أبريل/نيسان، أو موجات البرد المفاجئة في أكتوبر/تشرين الأول، تغيير الملابس يتم أول نوفمبر/تشرين الثاني، وأول مايو/أيار، المهم هو التاريخ وليس الطقس، وقديماً التزم كثيرون من المواطنين

الصالحين بتلك المواعيد، لكم رأى عدداً منهم يتصببون عرقاً أو يرتجفون برداً، فلا يبدو عليهم أي أثر لإرهاق أو نصب.

أين ذلك من جنود هذه الأيام، هزال القامة، صفر الوجوه، مضطربو الثياب، معظهم مجندون، يمضون المدة الإلزامية، قادمون من الريف إلى صخب المدينة وضجيجها، يهابون العربات الفارهة وركابها المتجهين، الممسكين دائماً بسماعات الهاتف، والحافلات السياحية الفارهة، وركابها الأجانب المتطلعين بدهشة وفضول إلى الموجودات كافة بما فيهم هؤلاء الجنود.

واظب على الكتابة في بريد الصحف، موقعاً بأسماء مستعارة ـ جارى متابعتها الآن وحصرها ـ منبهاً إلى ضرورة إصلاح أوضاع رجال المرور كبداية للنهضة الحديثة، ملمحاً إلى أنهم رمز للدولة، وأوضاعها، ليس كل منهم مقصود في حد ذاته، لكنهم عنوان بارز، واضح في الطرق طوال الليل والنهار لهيبة الحكم، وحالته أيضاً.

كيف يتركون مهملين هكذا؟

هكذا تساءل أثناء التحقيق معه، غير أنه نفى بشدة أي دافع عنده للفت النظر إلى أحوال هؤلاء الغلابة.

نعود إلى صلته بالمرور، بعد ظهوره في ميدان النزهة واشتهار أمره بين رجال مرور المنطقة الشمالية، انتقل إلى ميدان الاسماعيلية، ثم إلى العباسية، كان ظهوره في هذا الميدان بالتحديد نقلة كبيرة في حياته وممارسة هوايته، الطرق المؤدية والمتفرعة عديدة، ولا بد من اليقظة التامة، حتى بعد إدخال نظام الإشارات الآلية، لم يكن ذلك كافياً للتقليل من أعداد الرجال المدربين، لم يسترح أيضاً للوقوف في الكشك الخرساني الجديد المرتفع، المهيمن على الميدان كله، موقعه المفضل، الأثير عنده في زحام الشارع، عند النواصي،

في قلب الميدان، عندما يضاء الأحمر يدرك ذلك تلقائياً بدون تطلعه إلى مصابيح الإشارات، قبل تغير اللون إلى الأخضر يتراجع خطوتين رافعاً يده، مشهراً علامته، بينما الصفارة بين شفتيه، صفارة انكليزية الصنع، متينة، يستخدم مثلها الكشافة الحاصلون على الشارة الخشبية، تتدلى منها سلسلة ذهبية الطلاء، طرفها مثبت في حزام بنطلونه الجلدي، لا يعرف أحد متى حصل عليها؟ هل أهداها إليه المؤسس، أو أنه أحد الكونستبلات الأنكليز، أو أوصى أحد أصدقائه بشرائها من المتاجر المتخصصة في بيع لوازم المرور بلندن؟ من الثابت أنه لم يسافر إلى الخارج قط.

صفارة مستطيلة، أسطوانية، عالية الترددات، عند ظهوره في الصباح يتوقف طلبة المدارس الصغار للفرجة، أحياناً يبتسم لهم، ويوزع عليهم حلوى «الفوندام» التي أدمنهامنذ الثلاثينات، وعندما اختفت الأنواع الممتازة منه آثر سياسة الإنغلاق كاد يجن، لكن المؤسس أمده بكميات صغيرة من فترة إلى أخرى، كان طعمها إذ يعبق به فمه، يعيد إليه الزمن الجميل المنقضي، يرد روحه التائهة، للأسف.. بعد انتهاء الزمن الستيني، وبدء سياسة إنفتاحية، موسعة، بعد ظهور الزبادي السويسري بالفواكه، والجبن الكامامبير الفرنسي، وثمار الأناناس الآسيوية، قوى أمله في عودة «الفوندام» القديم، أعلن التليفزيون عن حلويات شتى، أشكال وألوان لكن.. ليس بينها «الفوندام»، مما ألحق به ضيقاً وكمداً وحنيناً إلى أيام زمان.

شب الصغار وكبروا، بعضهم لم ينسه، تفرقوا على مهن شتى، بعضهم أصبحوا نجوماً بارزين في المجتمع، في الجيش، الخارجية السلك القضائي، النقل البحري والبري، أحدهم يصر على إيقاف سيارته السوداء، المسدل على نوافذها ستائر قاتمة، يفارقها متجهاً

إليه على قدميه، يصافحه مسبباً بتصرفه المفاجىء ارتباكاً مرورياً، ولحرسه الخاص الذي اعتاد الجلوس إلى جوار السائق وعربة الحراسة التابعة بركابها الأربعة المرتدين ملابس مدنية متشابهة، المحملقين إلى الآخرين بتحد وعدوانية، لا يخفون أسلحتهم سريعة الطلقات.

يستعد لإعلان أمرٍ جلل.

مرة قال إنه أدرك ضعف الدولة ومضيها إلى النازل منذ بدء ملاحظة هوان جندي المرور..

جملة عابرة سمعها الجواهري بنفسه لكنه لم يربطها بأي دلالة، عطية بك هذا، قصير الخطى، بادي الشيخوخة، متمهل النطق، لم تنل السنوات من نشاطه عند وقوفه في إشارات المرور والقيام بعمله التطوعي، لم يكل قط، بعد وقوفه عدة ساعات في ذروة الزحمة كأنه بدأ للتو، لا شك أن أمتع اللحظات عنده أثناء تقدمه عبر الطريق مشيراً بيده، غير عابىء بالعربات التي يقبل بعضها بسرعة كبيرة ثم يُسمع صرير الفرامل المفاجئة عند احتكاك العجلات بأسفلت الطريق بعد تجاوزها الخطوط البيضاء الفاصلة، حتى تلك العلامات لم يهملها، كان يشتري الطلاء على نفقته ويخرج في الليالي مرتدياً لباساً خاصاً، يجدد اللون بحذق نادر.

عبر السنوات التي صاحب فيها رجال المرور وأدى مهامهم، بعد تعاقب عديد من النظم الإدارية والفنية عليه، تراكمت عنده خبرات، بدءاً من التلويح بالعصا القصيرة، حتى التعامل بالأجهزة اللاسلكية الصغيرة، المحمولة بالأيدي.

كان يظهر في اللحظة الحرجة، خاصة أوقات الظهيرة، وليالي رمضان التي يشتد فيها الزحام بمنطقة الأزهر وفي الليالي الكبيرة للموالد العظمى، سيدي الرفاعي، والسيدة زينب، والإمام الشافعي، وسيدي البيومي، وقبل وبعد المباريات الهامة التي تقام في الاستاد

الكبير، بمدينة نصر، ويصاحبها زحام يتحسب له الخبراء، مع بلوغ الأزمة ذروتها يظهر صديق المرور، حضوره مهيب ونشاطه فوار، فعال، ينتقل من هنا إلى هناك، من ناحية إلى أخرى، لا تكف يده عن التلويح، مرة ممدودة ومرة منثنية، ومرة تتحرك في تتابع منظم، متقن، تندر رؤيته الآن.

خلال ثوان.. يسيطر على الموقف، تنتهي الأزمة، يفضل بعض ضباط المرور الفرجة عليه من مسافة، إنه تاريخ بالنسبة لهم، قام بالواجب الأتم مع كل منهم، لم ينقطع عن زيارتهم، التردد على مكاتبهم. لا ليطلب حلولاً إستثنائية، أو إعفاء من مخالفات متراكمة، أو إصدار رخصة بغض النظر عن الشروط والقواعد..

لا.. لم يقدم على أي شيء من ذلك، مع أنه لو فعل للقي كل استجابة، كان يزورهم ليهنيء بالأعياد، بالمواسم، ويذكر مناسبات نسيها القوم، ولم يعد الإعلام يهتم بها، مثل عيد الجلاء الأول، والبدء في بناء السد العالي، والانتهاء منه، وعيد الجهاد الوطني في الثالث عشر من نوفمبر/تشرين الثاني، يشرح أحياناً المناسبة التي تغمض عليهم، لم يفته عزاء، أو تهنئة وإرسال الورود إلى المرضى منهم أوعند ترقية ضابط إلى رتبة أعلى، أو زفاف أو مجيء مولود أو عند النقل من إدارة المرور إلى إدارة أخرى بالوزارة. ومن خلال علاقته الخاصة بالمؤسس أمكنه حل عدد من مشاكلهم، مثل إلحاق طفل بمدرسة لغات، أو التدخل لتعديل قرار بالنقل لا يتفق مع الوضع والمصلحة. من جهتهم كانوا يبدون له الود، ويحرصون على دعوته إلى مأدبة الإفطار الرمضاني بالمقر الرئيسي في الدراسة، وجلوسه بالصدارة، كثيراً ما أفضى بخبرته الطويلة إلى من يطلبها منه، لم يبخل بجهد قط، وعندما أقدم عضو مجلس شعب مؤخراً على إهانة ضابط برتبة نقيب وحمله على مقدمة عربته، جند

إتصالاته كافة، حمل بطاقة هذا إلى ذاك، واتصل بمسؤولين كبار في بيوتهم، وانتظر ساعات طويلة ليقابل بعض كتّاب الأعمدة المشهورين، يرجع إليه الفضل في تأليب الرأي العام، والتعاطف مع الضابط الشاب، كان الخبراء الكبار يلجأون إليه عند تعقد الحالة المرورية فيلبي، أثبت أنه أكثر كفاءة من طائرات الهيلوكبتر الحديثة التي تحوم فوق المدينة، عند حدوث ارتباك.. لكن.. لم ينتبه إنسان قط إلى أن خبرته تلك يمكن إنقلابها إلى الضد..

هذا ما جرى بالفعل.

ما السبب الذي جعله يقدم على هذا الفعل الخطير؟

استمر ملتزماً الصمت بعد وصول ضابط قديم أحيل إلى التقاعد منذ سبع سنوات، يعرفه، أكل معه الخبز والملح، كانا من مريدي السيدة نفيسة، في صباح كل جمعة يذهبان معاً ويكنسان الضريح وساحة المسجد، أبدى الضابط المتقاعد تأثراً ورقّة بالغة، طمأنه، وطلب منه أن يشرح له، أولاً.. كيف اهتدى إلى هذا الموضع بالذات الذي يعتبر عقدة المرور في القاهرة كلها؟ حتى أن وزير الدفاع طلب من الصحف عدم ذكره في الصحف، أو حتى الإشارة إلى المكان الذي وقف فيه عطية بك لأنه يعد من أسرار الدولة العليا، فمنه يمكن شل الحركة في الطرق الرئيسية والفرعية كافة، ولا يحتاج الأمر إلا خطوات سبع متناقضة..

ثانياً.. ما هي تلك المراحل التي أقدم على تنفيذها حتى أمكنه وقف حركة المرور في المدينة خلال عشر دقائق، بحيث أصبح من المستحيل على أي سيارة أو مركبة أن تتقدم إلى أي اتجاه، كان المشهد عجيباً بحق كما وصفه طيارو المروحيات من الجو، وهم ينقلون تفاصيل الموقف إلى غرفة العمليات الموجودة تحت الأرض على عمق كبير بمكان ما.

كان الهدف.. الوصول إلى الخطوات التي نفذها صديق المرور ومقارنتها بالمعروف منها عند القيادة وغرفة الطوارىء السيادية.

غير أن عطية بك تطلع بعينين فيهما قدر كبير من اللوم إلى صاحبه المتقاعد، مريد السيدة الطاهرة، مما دعاه إلى الإنسحاب فوراً، والاعتذار لكبار المسؤولين المنتظرين في الخارج وبينهم مندوبو الأجهزة الأمنية الحساسة.

سيظل ما جرى له خلال الإستجواب غير معروف، إلى أن يكتب أحد القائمين به مذكراته أو اعترافاته، كما أن اللجنة المحلية لحقوق الإنسان ليس بوسعها الإحاطة بما يجري في الغرف المغلقة، المبطنة بعوازل الصوت.

الجواهري يثق أن صاحبه القديم لم ينطق بكلمة، وأن آخر الفاظه المسموعة تلك التي خاطب بها صديق النوبي الذي صحبوه من المقهى القريب من مسجد السلطان الحنفي بعد جهود مكثفة شاركت فيها المؤسسة، عندما وصل إلى حيث يقف عطية بك، تطلع كل منهما إلى الآخر، بدا تأثر على ملامحهما، تعانقا، ثم رفع عطية بك يده مشيراً إلى عم صديق بالكف، ألا يتكلم، قال: إنما أردت أنذر.. واحذر.. ما بنيناه.

لم نقم بالسهل!

ثم استدار على الفور، وبعد سبع إشارات بالضبط من يده، صاحب كل منها حركة، وصدى، بدأت العجلات تدور، والحركة تتدفق، وعندما وصلت تقارير طيّاري المروحيات إلى غرفة العمليات العليا بانتظام الحركة المرورية. صدر القرار العلوي باعتقاله..

فصل ..

حقاً، ما أصدق عم جويلي أقدم السائقين المحال الآن إلى التقاعد، لم يكفّ يوماً عن ترديد مقولته التي أصبحت الآن شائعة، يرددها الكثيرون.. لكن خفية، فالجو غائم، وبداية الحقبة الجديدة مضطربة، لا يمكن تشبيهها بأي فترة سابقة، إن خوفاً غامضاً وحذراً يسيطر على المقر الأصلي، والفروع التابعة، يهز البروفيسور قلقاسة رأسه أثناء الاجتماع، إذا سأله أحد الحاضرين، يسارع بالنطق حذراً، مؤكداً أنه ما من شيء، ما من أمر محدد، لكنه في الحقيقة يستعيد ما ردده عم جويلي دائماً، قوله إن كل شيء يمكن أن يحدث في المؤسسة، وأي شيء يمكن ألا يحدث..

حقاً ..

من تصور يوماً أن عطية بك، الرجل العاقل، المتزن، الذي لم تصدر عنه العيبة يوماً، الذي لم يخطىء في حق إنسان قط، من أطلق إشاعات متقنة حمى بها المؤسسة ونفعها في أوقات حرجة، من يصدق أنه قابع الآن في الحبس، يواجه اتهامات عديدة، المعلن منها، تعمد تعطيل المرور، والإضرار بالمصلحة العامة، وتهديد الأمن

العام، أما الاتهامات الخفية فعديدة، يعرف كل من عنده أدنى خبرة أن الجهود تبذل الآن لجمع الأدلة والقرائن، أبسطها.. العمل لحساب جماعات إرهابية تهدد المجتمع لفترة ليست بقصيرة، طبعاً يمكنها القيام بعمليات خطيرة، مستغلة إنسداد الطرقات، وعجز قوات التدخل السريع عن الوصول إلى الأماكن المستهدفة، طبعاً الاتهام بالجماعات المسلحة يمكن أن يمتد ليشمل جهات خارجية تكن العداء للوطن والدولة.

لا يعرف أي شخص المدى الذي يمكن أن تصل إليه الأمور، غير أن دهشة العاملين في المؤسسة لم تكن خفية أو مستترة، عطية بك هو صديق المرور؟

كيف؟

لماذا أخفى هويته، لأي سبب؟

طبعاً .. كانت دهشة الجواهري تتجاوز الجميع، فهو الألصق، لكنه لم يطلع على شيء من هذا، غير أنه كان منتبهاً إلى ما يخشى الجميع الخوض فيه، ما أقدم عليه عطية بك مرتبط تماماً بمجيء رئيس قطاع الحواسب الآلية، بدخوله الطابق الثاني عشر، إنها رسالة أراد توجيهها إلى من يهمه الأمر، إنه إنذار يرفعه إلى الجميع، ومن يدري.. ربما اتفق مع المؤسس على الإعداد للحظة كهذه!

من يدري .. ماذا يخفيه الغد؟

لماذا لم يطلعه عطية بك على ما أخفاه؟ على دوافعه؟ على الأسباب التي جعلته يقدم على تصرف خطير كهذا؟ لماذا؟ الجواهري حائر، لا يجد تفسيراً مقنعاً، ولا يمكنه تقديم شرح لما جرى، في المقهى سمع من يقول إن أصواتاً غامضة، تشبه الدبدبة، شمعت منذ منتصف الليل وحتى صباح اليوم، منبعثة من الحفرة

الدائرية، كل من مرّ قربها أفزعه ذلك، بل أكد بعضهم أن هذه الأصوات توالت مع إعلان قرار تعيين الرئيس الخامس، أو الرابع إذا استثنينا الضابط المتقاعد الذي دخل المكتب الدائري عقب وقوع المحنة الكبرى.

لاحظ الجواهري أيضاً وقوف الأبله أمام المدخل الرئيسي، ظهر أمامه بعد استقراره زمناً عند الساحة الخلفية قرب الفتحة الدائرية. وعندما حاول حراس الأمن إبعاده، ومعظمهم شباب لا يعرفونه، جأر بصراخ مدوٍ، وكشف عن عورته، أجبرهم على الإبتعاد عنه، ويبدو أن مسؤولاً ما نصحهم بتجنبه، يحار الجواهري في تلخيص ما يجري في جملة دالة، موجزة، ما يحدث يخرج عن طوعه، لا يقدر على لملمة أطرافه، لكنْ ثمة شيء خطير على وشك الوقوع، أو تلوح بوادره، لا يمكنه إدراكه أو تحديده، أو تعيينه بالضبط.

إنه حزين.. يتمنى لو يذرف دمعاً، يحسد النساء لقدرتهن السريعة على البكاء، على إبداء الحزن، لكنه مقبوض، معكوم من الداخل..

أستر يا كريم ..

لأول مرة منذ قيام ذلك الصرح، لا تتم المراسم الأصلية، لا يتجه بصحبة عطية بك إلى المصعد العتيق، الذي لم يتسع إلاّ لهما، لا ينتظرهما عم صديق في الطابق الثاني عشر، الرجل لم يظهر اليوم، لا يقف الرئيس الجديد عند حافة السجادة التبريزي، ما من فاتحة على روح المؤسس، ولا شرب قهوة في فناجين تحمل شارات آخر القياصرة الروس..

أين عطية بك أين؟

الجواهري نفسه تمّ تجاهله تماماً، لم يرن جرس الهاتف في

مكتبه، لم تتصل به السكرتيرة لإعداد نفسه، حتى لو اتصلت به فأين صاحبه؟

كما يقولون فإن الشدائد لا تأتي فرادى،في اليوم التالي، بعد اجتياز الجواهري مدخل المقر الأصلي، اتجه كعادته إلى موقع الساعة الأوتوماتيكية، إنكليزية الصنع، التي يوقع فيها كبار العاملين وأصحاب المناصب المتوسطة، حتى رؤساء الأقسام الفرعية، هذا تقليد قديم بدأه المؤسس نفسه عندما كان يتجه فور دخوله ليوقع ثم يدير اليد المعدنية ذات الزخارف القوطية. لو أن الجواهري لم يوقع فلن تحاسبه إدارة شؤون العاملين، ليس لأنه احتل مواقع رفيعة، منيعة، ولكن لأنه محال على التقاعد، واستمراره نتيجة وصية المؤسس التي لم تعلن بنودها حتى اليوم، بخطواته المتمهلة، الوقورة، وإنحناءته على الساعة، وتوقيعه الرصين، إنما يؤكد الأصول، ويحيي المراسم غير المدونة.

الأهم .. أنه يذكّر الجميع بولي نعمتهم، السبب في فتح بيوتهم وجريان أرزاقهم.

بعد إخراج قلمه الحبر «الترويين» القديم، الذي يطمئن عليه مرات في اليوم الواحد، وينظفه بالماء الدافىء أسبوعياً، ويبذل جهداً حتى يعثر على زجاجات الحبر الأسود الآخذة في الانقراض الآن بعد انتشار أقلام الحبر الجاف والغلوماستر.. لا يطيقها، لم يرَ المؤسس يستخدمها قط، وصباح أحد أيام الخمسينات الجميلة أطال النظر بدون قصد إلى قلم أسود فوق المكتب، فوجىء بسيادته يتناوله، يقدمه إليه، أبدى شكراً وامتناناً واعتذاراً، لكنه قال بلهجة يعرفها جيداً كل من تعامل معه، «هذا لك».. منذ تلك اللحظة لم يفارقه القلم.

قبل إدارة الغطاء، فوجىء بمن يلمس ذراعه.

الأشموني؟

يوشك على ملامسة ذراعه، لم يخطر بباله قط أي احتمال معكر أو مفاجىء، الأشموني قصير القامة، نحيف، أشقر، مستطيل الوجه، ثعلبي الملامح، مهذب أكثر من اللازم، يعرف الجميع أنه لم يركب إلاّ الترام منذ أربعين سنة، حتى بعد تغيير الخط رقم ثلاثة وثلاثين من العباسية إلى إمبابة بالترولّلي باص، رفض المواصلة الجديدة وآثر المشي مسافة حتى محطة ترام العجوزة رقم خمسة عشر. بعد بدء إزالة خطوط الترام زادت معاناته لكنه تحمل المسافات المتزايدة المضطر إلى قطعها مشياً، نشرت أخباره في بعض المجلات الأسبوعية، لكن الأنظار اتجهت إليه بعد مقابلة أجرتها معه القناة الثانية الفرنسية، بعدها التقى به رئيس المؤسسة الثالث، وأهداه آنية زجاجية، ومنحه إذناً كتابياً بالإنضمام إلى جميعة محبي الترام والحفاظ عليه، كل اسبوع يمضي إجازته متنقلاً ما بين المطرية والسيدة زينب، آخر خط ترامي متبقٍّ حتى الآن، علل البعض حرصه هذا بعشقه الالتصاق بالنساء والاحتكاك بهن من خلال أوضاع متقنة لا تعرّضه أبداً للحرج، وأنه يحقق نشوته بذلك، وهذا ما أعاقه عن الزواج.

الجواهري لم يهتم به، سنوات طويلة لم يتبادلا خلالها إلاّ إيماءات عابرة، بشكل ما لم يرتح إليه، وكلما رآه تداعى إلى ذهنه كمساري قصير القامة، كان معروفاً في ترام رقم تسعة عشر الذي يصل الأزهر بميدان العتبة، وكان يقترب متمهلاً من الركاب وكأنه سينقض عليهم فجأة، حتى أن بعض النساء كن يفزعن منه، ويصدرن أصواتاً فزعة لكن في مويجاتها دلع وشهوة خفية، وإذا تصادف ركوب الشيخ الأجلّ، المهيب، العالم صالح الجعفري،

رحمه الله رحمة واسعة، يعلو صوته ناهراً، آمراً بالتزام الحشمة، وخفض الصوت، فيسود على الفور صمت.

دائماً الأشموني يذكره بهذا الكمساري، لأول مرة ينتبه إليه، إلى ملامحه التي يراها عن قرب، إنه أقدم موظفي الاستعلامات أو كما تعرف في الأوراق الرسمية والأوامر الإدارية بالمكتب الأمامي، دائماً كان بمثابة معبر إلى الإدارات أو القطاعات المختلفة، يلتحق حَمَلَة المؤهلات المتوسطة، ثم يحصلون على شهادات جامعية، وأحياناً درجات علمية رفيعة وهم في موقعهم المتقدم هذا، وفي لحظة معينة يصدر المؤسس قراراً فينتقلون إلى الداخل، إلى مستويات أرفع، بعضهم الآن في مراتب عليا، أو يقود منشآت أخرى هامة، لم يمكث أحد في هذا الموقع إلاّ الأشموني حتى اعتبر علامة، وجزءاً من مدخل المقر.

حقاً .. كيف لم ينتبه إليه من قبل مع أنه من أقدم العاملين، العينان الضيقتان، والبصة المستهانة الشاردة، والشعر الأصفر الخفيف الذي لا يمكن معرفة ما إذا كانت الشقرة لونه الأصلي، أم صبغة متقنة.

«تفضل معي لحظة ..».

هل استمر في مكانه بسبب قدرته الفذة تلك على النطق، إمكانية الجمع بين التهذيب العميق، والأمر الصارم، والقسوة الكامنة، واللطف البادي.

مقدرة .. حقاً مقدرة!

لفترة طويلة لن ينسى الجواهري إيقاع الصوت، لا .. سيذكر اللحظة ما تبقى له من عمر، ألم تحدد النهاية؟ على الأقل من حيث المظهر، على مهل. بحزم أمسك الأشموني ذراعه، قاده إلى اللوحة

المخصصة للأوامر الإدارية والتعليمات الداخلية، وتلك غير اللوحة القريبة من المصعد التي يعلق عليها أخبار العاملين من وفاة وزواج والإعلان عن رحلات أو مكافآت فردية أو جماعية، أشار الأشموني بأصبع مستقيمة، صارمة الإشارة، فيما بعد استعادها الجواهري كثيراً، ولكم آلمه ذلك، هو من تنضح جدران المؤسسة بعرقه وجهده، هل تصوب نحوه مثل هذه الاصبع..

«من فضلك اقرأ ..».

على الفور أدرك ما ينتظره، إنه موظف قديم، ومثل هذه الإجراءات ليست بعيدة عن توقعاته، حدث ذلك مرات في العصر الملكي، والجمهوري والشمولي، لكنه لم يتصوّر أن يوجه إليه ذلك، أن تحين اللحظة التي يوقفه فيها الأشموني، هو نفسه الذي أدى الدور نفسه مع الآخرين. تلك لحظات سوف يذكرها العاملون، يعي توقف الحركة تقريباً في المدخل، والشرفة الدائرية المطلة، حراس الأمن، الموظفون الذين تصادف مرورهم، عليه أن يتماسك، أن يشد قامته، أن يرفع رأسه، كل تصرف يبدر منه الآن محسوب عليه، ليحذر.. أما الألم فأمامه وقت طويل بمفرده، هكذا تصرف المؤسس عندما اقتحمت قوة مدججة بيته وأحاطت به مع بداية المحنة الكبرى، لم يبدِ جزعاً، إنما وقف ثابتاً، مهيباً حتى إن قائد القوة انحنى له وكفّ أفراده عن عبثهم بمحتويات المكتبة، لم تهتز منه اصبع وهو يعقد ربطة عنقه.. طبعاً ما أبعد الفارق، وما أشد اختلاف اللحظتين، ولكنه لم يتصور حدوث ذلك قط.

خلع النظارة الطبية على مهل، استبدلها بنظارة القراءة، بقدر الإمكان حرص ألا ينحني بدرجة كبيرة، أن يُبقي ملامحه جامدة، ألا يدع سبيلاً لدقات قلبه المتهارعة، وما انفغر داخله من هوات لا قرار لها، التمويه.. الإخفاء ضروري الآن في مواجهة ما لم يدر

بخلده يوماً، ما رد فعل المؤسس لو أنه عاش حتى اليوم الذي يسمع فيه مثل ذلك؟ أي تعابير تبدو على ملامحه، وأي الألفاظ سينطق..

إلى المقهى، إلى ركنه الأثير، المهم ألا ترتجف الخطى، ألا يهن، لن يسمح بارتجافة يد تهز كوب اليانسون الساخن، كلهم يتطلعون إليه بصمت مدوٍ، كأنهم يعرفون السطور القليلة جافة الألفاظ، حادة الصياغة، سطور أجهزت على عمر امتد، وضنى بُذل.

لكم يفتقد عطية بك الآن، جلسته، سماحته، رد الله غُربته وأنهى سجنه وفك ضيقه. لو ظهر أمامه لتطلع إليه صامتاً وذرف دمعاً عزيزاً، كل منهما يفهم الآخر بالصمت.

لحظة اجتيازه عتبة البيت خبطت امرأته صدرها بيدها:

«ما لك .. ما لك يا سِيدي ..».

أم البنات لم تخف جزعها ولهجتها النادبة، الراثية ما قبل الأوان، كأنها أدركت بدء نهايته، أحاطت رأسه. قربته كطفل، عندئذٍ بدأ يبكي، ينهنه، يرتجف، تتوالى شهقاته، بينما تربت ظهره مهدئة..

كل العاملين مروا وتوقفوا أمام اللوحة، كثيرون بوغتوا، لم يعلقوا، إجراء مفاجىء وغير متوقع، خاصة أن الجواهري أحد اثنين يقومان بمراسم خاصة عند تعيين رئيس جديد، هذا ما أوصى به المؤسس، صحيح أنه لا يوجد نص مكتوب، خاصة أن وصية سيادته لم تعلن كاملة حتى الآن.

بعض العاملين في قطاع الحواسب الآلية تهامسوا، ضحكوا، غير أن القدامى غصت حلوق معظمهم عدا قلة، معظمهم من المسؤولين عن الفروع المختلفة.

عندما تسلم البروفيسور صورة من القرار بادر باستدعاء

سكرتيره وأمره بتصوير عدة نسخ وتعليقها في أماكن بارزة من الكراج والأماكن التابعة له، لم يكتف بذلك إنما تعمد المرور أكثر من مرة في الكراج والتوقف أمام كل من يتوقع صلته بأمن المقر، أو الطابق الثاني عشر، مؤكداً أن القرار جاء في موعده تماماً، وأنه فاتحة عهد جديد، وهكذا تُدار الأمور حتى يتسع الطريق أمام الأجيال الصاعدة التي حان الوقت لتسلمها المسؤولية في المؤسسة.

بدأ البروفيسور مبالغاً في تعليقاته، وعُد ذلك خفة منه، ورأى كثيرون ممن يعملون بالكراج أن تصرفاته تعكس ذعراً خفياً يحاول التمويه عليه، معظمهم أخفى ضيقه، للجواهري منزلة خاصة عندهم، إن لم يساعد فهو لم يضر، لم يسعَ إلى إيذاء مخلوق، بالعكس.. تدخل لإنصاف كثيرين وشرح مواقف كانت تبدو صعبة، مستغلقة، لا.. لا يصح هذه المعاملة لمن أفنى عمره بالمؤسسة!

لم يجهر أحد بذلك، غير أن المشاعر صعب مداراتها، لفت الأنظار وجوه مدير قطاع البحوث، ومديرة الصادر والوارد، وكلاهما كان مرشحاً للطابق الثاني عشر، تردد اسمه، وهذا يجعلهما عرضة لأي تطورات مفاجئة، وأن ما واجهه الجواهري يمكن أن يلقاه هذا أو ذاك.

في الواحدة والربع أقدم البروفيسور على خطوة لم يفكر فيها أحد، أراد من خلالها أن يطمئن نفسه، إذ بدأ داخله خوف غامض، لم يعرفه من قبل، ربما لأنه في المواجهة، ألم يكن أقوى المرشحين لدخول المكتب الدائري؟

من الطبيعي أن يطاله إجراء ما خلال تلك البدايات المفاجئة، بل إن القرار الذي استهدف الجواهري كان منطقياً جداً أن يحمل اسمه.

صحيح أنه لم يتجاوز السن القانونية، أمامه أحد عشر عاماً من الخدمة، لكن الإجراءات الضارة كثيرة، أقلها.. نقله إلى أحد فروع النشاط النائية بالصحراء الغربية أو الجنوب أو البحر الأحمر، أو إسناد مسؤولية تبدو من ناحية الشكل أكبر، لكنها في الحقيقة أقل بكثير، وفي كل الأحوال سوف يصبح مضغة في الأفواه.

كأنه يهرب من ذاته، يود لو بدل بشخص آخر، ملامحه مختلفة، حياته مغايرة، لا يدري ما يُحاك ضده الآن في الطابق الثاني عشر، ولا سبيل عنده للإطلاع عليه.

أثناء حديث عبر الهاتف هفا لسانه بلفظ أصيب بعده بقلق، إذ قال «بليب» بدلاً من «بلاء»، على الفور أوضح لزميله القديم في مدرسة خليل آغا الثانوية أنه لا يقصد، لم يذكر «البليب» من قريب أو بعيد، الغريب أن محدثه سأله عن «البليب».. ماذا يعني به؟ ليس لديه فكرة. خشية البروفيسور من طرف ثالث يتنصت عليهما، مجرد ظهور اللفظ في قاموسه يعني أنه يفكر بشكل ما في إمكانية الحصول عليه مرة أخرى.. طبعاً.. يتمنى ذلك، مازال يشعر بوجوده الملاصق لبطنه، بل إنه قام فزعاً من نومه ظناً بفقده «البليب»، وعندما اكتشف أنه سلّمه منذ فترة راح يغمغم..

«اللهم اجعله خيراً ..».

يتمنى محو تلك الفترة القصيرة التي عاشها ممتلئاً بطموح الاستقرار فوق..

طموح؟

لقد دنا فعلاً .. اقترب..

على أي حال، منه إلى الله من تسبب في ذلك، سواء بإشعال جذوة الأمل عنده، أو بوقف المساعي، أما الآن فيجب أن يخفي

كل ما له علاقة بتلك السويعات الآفلة، وأن يعلن ولاءه بكل صورة ممكنة، المهم.. توضيح موقفه، من هنا أقدم على الاتصال بالسيدة انتشار سكرتيرته، وأبلغها تأييده الكامل للقرار الذي أعلن اليوم..

عندئذٍ استفسرت بتأن: أي قرار تعني؟

أخفى اضطرابه وحيرته، أي قرارات أخرى؟ هل هناك شيء يجهله؟ بسرعة قال إنه يود إبلاغ سيادته بتأييده لإنهاء خدمة الجواهري، وأن ذلك يفتح أبواب الأمل للشباب.

قالت بلهجة محايدة إنها ستبلغ رسالته تماماً كما هي..

قال إنه يمكن أن يكتب ذلك ..

قالت: كما تشاء ..

هل بدا صوتها ساخراً؟ هل رصد فيه ملامح غضب؟ بالتأكيد كانت هادئة جداً، محايدة، هل تعامل معها من قبل؟

لا ..

وكأنه يكتشف لأول مرة أن سيادته لم تخصص له سيارة من الكراج، كان يستخدم عربة خاصة، ألمانية الصنع، يقودها بنفسه، كيف غاب عنه ذلك؟

الحقيقة أنه لم يخطىء، لم يرتكب مخالفة، لم يهمل، ذلك أنه لم يطلب، البروفيسور يجهد ذاكرته في استعادة ملامحه، مثل كثيرين في المؤسسة يتضح لهم شيئاً فشيئاً أنهم لم يلتقوا قط بالرئيس الجديد، لم يتحدثوا إليه وجهاً لوجه، بل إنه نادراً ما حضر الاحتفالات العامة، أو المناسبات الخاصة بالعاملين، كما أنه لم يشهد جنازة، ولم يقدم تهنئة، أو يرسل برقية إلى أحد..

حقاً .. من هو؟ ما علاقاته؟ من أقرب الناس إليه؟

كيف عاش هذه السنوات كلها لا يشعر به أحد، ولا يتعامل معه إلاّ عدد محدود جداً، بل إن الاجتماعات التي حضرها مرغماً لأهميتها القصوى، لم يفتح خلالها شفتيه بكلمة، ولم يبد حتى إيماءة.

لم يشاهد أيضاً أي مسؤول في طريقه إلى الطابق الثاني عشر لتقديم التهنئة، أما باقات الزهور التي توالت على المقر فلم يتم رصها في المدخل كما جرت العادة، إنما تم إرسالها أولاً بأول إلى جهة لا يعرفها إلاّ الأشموني الذي كان يوقف العمال القادمين، وينزع البطاقة التي تحمل اسم المهنىء، ثم يلتفت إلى أحد مساعديه الأربعة فيتناول الباقة، يحملها بعيداً.

قيل إن الزهور كلها ألقيت في الحفرة الدائرية، وحار البعض، هل ثمة علاقة بما تردد عن سماع أصوات هدير غامضة تشبه تلك المصاحبة للهزات الأرضية العنيفة، وأنها بدأت في اللحظة نفسها التي أعلن فيها قرار تعيين سيادته على قمة المؤسسة.

المصير نفسه الذي انتهت إليه الزهور، لاقته أيضاً برقيات التهنئة الملونة التي وردت من جهات شتى داخل مصر، ومن خارجها، منشآت مصرفية، وشركات تصديرية، وأخرى استيرادية، ومراكز إعلامية، وجهات حكومية، نجوم سينما ورياضة ورؤساء أندية رياضية واجتماعية وشركات طيران أجنبية، وشخصيات دولية بارزة، وأسماء مجهولة، ولم ينقطع رنين جميع أجهزة الهاتف في مركز الإتصالات الخاص بالمؤسسة، ولم تكفّ أجهزة الفاكس عن تلقي رسائل التهنئة من القطر والبلاد الشقيقة والصديقة، تلك البرقيات كافة حُملت إلى الأشموني الذي وضعها في أكياس من البلاستيك ثم أرسلها خارج المقر كله.

صباح اليوم التالي أقدم البروفيسور على الاتصال بالطابق الثاني عشر للمرة الثانية، عندما أصغى إلى انتشار القليوبي خيِّل إليه أن صوتها.. استفسر مبدياً اللهفة.

«مالك؟ كفى الله الشر ..».

قالت بهدوء إنها متعبة قليلاً.

«كان الله في العون .. المهام ثقيلة وعديدة..».

تنهدت متثاقلة، هنا نفذت نبراتها إلى سلسلة ظهره مباشرة، إقشعر جلده، كأنه تمدّد مستلقياً في وقوفه، حاول لملمة نفسه، ألا يبدو في صوته ما يجزي داخله.

قال إنه يتمنى لها توفيقاً دائماً، يرجوها إبلاغ سيادته تحياته، إنه ينتظر التعليمات لإعداد السيارات المناسبة التي يحتاجها سعادته، إنه جاهز من اللحظة.. لكنه في انتظار التعليمات، كما توجد عربة أخرى مخصصة لسيادتها..

«أنا؟».

ياه .. صوت بضّ، يتلوى، يركز حرارة الرغبة في مويجات تلهب الفراغ المؤدي إلى داخله، أي متعة هذه؟ إن دواراً يدركه. كيف لم ينتبه من قبل..

«ط .. طبعاً.. عربة مزوّدة بهاتف..».

ضحكت، ضحكة متقطعة، متموجة، ليست صادرة من مكتب وإنما من صميم مخدع، كأنها لحيظات الملاطفة الأولى، قبيل التوالج الأتم، أو.. بعده، كأنها تعي ما تفعله به، ما يجري عنده.

تهمس فيما لا يستقيم فيه ذلك النبر المؤجج برخامته، وتمهله، ونفوذه الأنثوي الفواح، إنها تشكر له أهتمامه، لكنها تفضل

أستخدام عربتها المزودة بجهاز هاتف متصل بالدائرة الدولية، أما بخصوص سيادته فليس لديها أي تعليمات الآن، إنها مشغولة في مصائب الجواهري.

ينتبه من نشوته الأخّاذة، إنها توحي إليه أمراً، ينتبه.. إن إيقاع صوتها يتغير، يفارق الحالة الحذرة، كأنها تشكو إلى إحدى صديقاتها..

«هل تتصور كم كان يكلفه علاجه سنوياً؟ أكثر من مائة وخمسين ألف جنيه.. تصور.. أكثر من مائة وخمسين ألف جنيه.. لماذا تتحمل الميزانية مبلغاً كهذا لرجل، لم يعد في الخدمة..».

بدا صوته غاضباً، مستفزاً وهو يردد:

«غير معقول .. هذا تخريب..».

بعد انتهاء المكالمة، رغم خدره الجثماني، وذلك الحذر الغريب الذي أحدثه صوتها داخله، إلاّ أنه تلقّى الرسالة وأدرك الإشارة، كل من تردد عليه، أو التقى به، أو اتصل به عبر الهاتف سمع منه في عبارات متشابهة تقريباً، دهشته واستنكاره لتكاليف علاج الجواهري المحال إلى التقاعد، وشغله حجرة فسيحة مزوّدة بأحدث أجهزة الإتصالات، أما البدلات التي يتقاضاها فتقفز بمرتبه إلى مستوى لم تعرفه المؤسسات من قبل.

هل هذا معقول؟

هكذا يُنهي البروفيسور كلماته، ثم يسكت على الفور، أو ينصرف مبتعداً، ثمة مهمة ما عليه أن ينفذها، وهذه فرصته ليثبت أنه أخلص العاملين، وأنه نسي تماماً أمر ترشيحه، ولم يعد لديه أي أثر لضيق، أو عثرة في النفس، يجب أن يُبدل مظهره وملامحه طبقاً لما يرغبه سيد الطابق الثاني عشر وليس كما يريد، يكفيه خوفه

من لحظة كتلك التي واجهها الجواهري، يقولون إن الرجل حاول التماسك، ولكن فكه تدلى ولم يعد إلى مكانه، وأنه حافظ على تماسكه عند خروجه من المقر، ولكنه يبكي كالنساء، يبدو أن بعض قدامى العاملين زاروه سراً، وأنه كان متأثراً جداً من صيغة القرار، لصالح العمل!

تُنهى العلاقة القائمة ...

كان يشير إلى نفسه، يلمس صدره بطرف أصبعه.

«طردي أنا لصالح العمل .. طردي أنا؟».

عندما يتأكد البروفيسور أنه بمفرده في البيت، أنه بعيد تماماً عن كل مخلوق، حتى زوجته، عندئذٍ يرفع يديه ضارعاً، مبتهلاً، أن تمر هذه الأيام على خير!.

غير أن كل يوم حمل إلى العاملين جديداً، مثيراً، إذ تمّ تعليق أمر داخلي جديد في اليوم التالي مباشرة لإنهاء عمل الجواهري، لكنه لم يوضع فقط في لوحة المدخل المجاورة للأشموني، إنما في مصاعد المباني المختلفة، وفي الاستراحات المخصصة لشرب الشاي والقهوة، وكان الرئيس الثالث أصدر قراراً حازماً بمنع تقديم المشروبات الساخنة أو الباردة في المكاتب، وخصص أمكنة في الطابق السادس من كل مبنى.

علّق الأمر أيضاً في الممرات الطويلة المنحنية داخل المقر الأصلي، وعند بدايات الدرجات المؤدية إلى أعلى، كما وجده رؤساء القطاعات فوق مكاتبهم.

أصدر سيادته قراراً بإنهاءه التعاقد المبرم بين المؤسسة وفرقة معهد الموسيقى الشرقية، والذي يقضي بعزف بشرف سماعي رصد لمحمد القصبجي، وإنشاد الموشح الأندلسي.

جادك الغيث إذا الغيث همى

يا زمان الوصل بالأندلس

مساء كل خميس عند قبر المؤسس تنفيذاً لوصيته. إلاّ أنّ القرار تضمن غير ذلك في الشرح المطول الملحق به، وتلك سمة جديدة لم تعهد من قبل، إذ جرت العادة على الصيغ المقتضبة المركزة، بحيث لا يتضمن أي قرار تفاصيل عديدة، أو شرحاً، غير أن الأوامر والتعليمات الصادرة من الطابق الثاني عشر إتخذت شكلاً مختلفاً منذ استقرار سيادته، فهو يوجه خطابه مباشرة إلى العاملين، بصيغ شبه شخصية، بحيث يشعر كل منهم أنه المعني بهذا الخطاب، لا يشير إلى أرقام قرارات سابقة أو مواد قانونية أو لوائح متبعة، إنما يذكر مادتين فقط. الأولى تحوي القرار المتخذ، والثانية تتضمن شرحاً مفصلاً، قيل إنه يكتبه بنفسه على حاسب آلي متطور جداً أقل حجماً من علبة السجائر، لكنه يحوي إمكانات لا حصر لها، منها الاتصال بأي مكان في الكوكب، وتوجيه الحديث من خلال أجهزة الاستماع العادية، والتليفزيونات، والهواتف، وأحياناً الدخول في الدوائر الكهربائية، عندئذٍ يسمع الصوت في كل مكان ولكن بدون تحديد المصدر، وعندما جرى ذلك بعد توزيع الأرباح المكثفة حدث ذعر في المؤسسة، ولكن اعتاد العاملون ذلك وأصبح مصدراً لفخر الكثيرين منهم، غير أن الخوض في تلك التفاصيل أمر سابق لأوانه.

تضمن البند الثاني من الأمر الجديد تشكيكاً في نسبة الرغبة إلى المؤسس، ذلك أن الوصية ما تزال سراً حتى الآن، فكيف يمكن الاستناد إلى نصوص لم تعلن، واتخاذ إجراءات يترتب عليها تشويه الوجه المؤسسي الذي يجب أن يحرص الجميع على إبقائه نظيفاً، متوهجاً، خالياً من كل سوء. لقد قام معهد الموسيقى بأداء التزاماته

بالفعل في العامين التاليين لتوقيع الاتفاق، وبالفعل كانت الفرقة المكونة من اثني عشر عازفاً تصطف عند القبر بالزي الكامل، وتعزف البشرف والموشح، حتى إن بعض سكان القبور اعتادوا القدوم، والإصغاء، ثم التصفيق وتلقي بعض الصدقات التي كان يوزعها المقربون والمحبون ومجهولون أحسن إليهم المؤسس ولم يعلن عن هوياتهم، ثم الأهمال يسري إلى الفرقة، فلم يجتمع أفرادها طوال العام الثالث إلاّ مرة واحدة، ثم بدأ تغيب معظمهم حتى أن بعض الأسابيع حضر اثنان منهم فقط، ويبدو أن المعهد أوكل الأمر إلى بعض الموسيقيين الفقراء من رواد مقهى التجارة بشارع محمد علي بعد انشغال فرقته في العمل مع المطربين الشبان الجدد، والذين استخدموا تقنيات حديثة لا تستدعي حضور الأعضاء كلهم معاً، هكذا أصبح الأمر مثيراً للسخرية، بل إن بعض سكان المقابر صاروا يقابلون العازفين بالسخرية والصياح، خاصة أنهم لا يرون من ورائهم لا أبيض ولا أسود.

هل يليق ذلك بسيرة المؤسس؟

هل يتناسب ذلك مع الحضور المهيب الذي تشكله وتكونه تلك المنشآت الجبارة التي تضع البلاد كلها في عصر مغاير؟

هل يعرف العاملون تكلفة هذا البشرف وذلك الموشح؟

لكل تلك الأسباب مجتمعة تقرر إنهاء هذا الوضع بكل ما يترتب عليه من التزامات.

لا يبالغ البعض عند تأكيدهم أن ما لحق الجواهري عند سماعه ذلك يفوق ما حلّ به لحظة إطلاعه على قرار إنهاء مدته لمصلحة العمل.. لمصلحة العمل؟

قال الجواهري لامرأته بعينين منتفختين من غزارة الدمع، وبقلب

موجوع على عمر مضى، وزمن آتٍ لا يعلم ماذا يمكن أن يحدث فيه لبناته بعد تيتّمهن؟ قال إنه يجب أن يعد نفسه لما هو أدهى وأمرّ، وأن ما سوف يسمعه غداً أشد فظاعة مما يجري اليوم، هذا ما لم يتوقعه قط، لكنها مشيئة الله، لقد كان على وشك الوصول إلى انتزاع قرار من وزارة الأوقاف باعتبار ذكرى المؤسس مولداً يحتفى به سنوياً في يوم معلوم..

ليس صحيحاً أن الناس يسخرون من عزف البشرف وغناء الموشح، بالعكس.. في البداية كانوا يتجمعون ويصغون صامتين مستمتعين، وفي الأيام القليلة التي تغيَّب فيها بعض العازفين أو المنشدين، قام السكان والزوار المجهولون بالحلول أماكنهم، هكذا اكتسبت المقطوعتان معاني ودلالات مغايرة دفعت أساتذة كلية الفنون إلى التردد أكثر من مرة وتسجيل الأمسيات كلها. كما اهتم بعض الأجانب المقيمين، وبعضهم يجري دراسات أنثروبولجية..

لا .. ليس صحيحاً أبداً ما يتردد علناً الآن، أما ما يقال عن الوصية فغير دقيق، إن البند الوحيد المؤكد، المعلن، هو الخاص بهذا الأداء الموسيقي، في فترة سابقة سعى البعض لإلغاء الفرقة واستبدالها بمسجل وشريط عليه المقطوعتان، غير أن الجواهري قاوم ذلك، وأصرّ بمساندة من عطية بك ـ فك الله سجنه ـ على احترام رغبة سيادته، وبالفعل.. تمكنا من ذلك، إلى أن جاء واحد من أبناء المؤسسة، الذين أعطاهم سيادته الفرصة، ودفعهم إلى الأمام، وبدأ يهدم الأسس ويقوّض المقدسات. كان عطية بك على حق عندما أعلن احتجاجه المدوي بطريقته الخاصة، ويبدو أنه على علم بما لم يصرح به من قبل.

الجواهري مقهور، وشائعات عديدة بدأت تتردد عن صحته، لكنه رغم كل شيء، رغم المساس بالثوابت العليا، فهو يعتبر وقفته

ضد البروفيسور صحيحة، وأنه أنقذ المؤسسة من كوارث أعمّ وأشمل، ثم إن ما بذله لم يتبدد عبثاً، يعرف معنى اتصال عدد من العاملين به، وما ينطوي عليه ذلك من تحدٍ للرئيس الجديد القابع في الطابق الثاني عشر منذ صدور قرار تعيينه، وعندما أصغى إلى رشيدة النمساوية تتحدث من مكان ما في العالم، قال متأثراً:

«يا أصيلة يا بنت الأصول..».

قالت إنها ترجوه ألا يغضب، وألا يدع للمرارة سبيلاً إلى نفسه، إنه أكبر من أي إجراءت، وجهده وروحه مبثوثان في كل موضع، حتى المنشآت الجديدة تحمل آثاراً منه.. أما عن علاجه أو احتياجاته فلا يفكر في هذا كله أبداً..

تحشرج صوته، وتذكر بعض من تقدموا في العمر وكيف يتصرفون كأطفال صغار في مواجهة أبنائهم، لو أن رشيدة أمامه الآن لبكى، لكنها مجرد صوت، غير أنه حمل إليه الونسة والألفة وبث عنده طمأنينة، لم يقل لها إن ما تردد عن تكاليف علاجه كذب وافتراء، وثائق الإدارة الطبية موجودة، يمكنها أن تسأل، ما يزعجه لهجة الحديث، والمعنى الكامن، أي إنسان بذل جهداً وقدم عمره من أجل المؤسسة يُلفظ مثل الكلب الأجرب، لا يحق له العلاج على نفقة الإدارة، هذا ما يعنيه الإجراء، والتشنيع، وهذا ما انتبه إليه أولئك الذين لم يتبق أمامهم إلاّ سنوات خدمة قليلة.

رشيدة أجدع من مائة رجل، مثل ابنته، يلوم نفسه لأنه إشتهاها يوماً، خاصة بعد رحيلها وبدء هذيان عفت الشبراوي، بعد أن سمع أوصافها وقدراتها، كان الشبراوي المجنون يفيض في وصف حنانها، وإقبالها على الرجل، كانت تدرك بالنظر طبيعة من يواجهها وماذا يرضيه، فتلبي وتغدق بعد أن ترضى وتقرر، جسد نحيف لكنه ممتلىء، فياض، معطاء، قادر على الهدهدة، إذا ما

بدأت الاحتواء تقبض فلا تفلت، يداعب داخلها الآتي، القادم، يمس برهافة ولين، أو يلف الخناق، وأحياناً يبدو كأصابع عازف الناي الماهر إذ تتنقل من أعلى إلى أسفل، أو العكس فتخرج النغمات نشوى، راضية، مرضية.

لن ينسى يوم وقوفه في وسط المقهى. وصفه الدقيق، البطيء، لخروجها كما ولدتها أمها، تطلعها إليه بعد بلل جسده إثر انتهاء حمامه، دنوها، تجفيفها له بطرف لسانها..

أنثى كهذه .. أيطيق فراقها؟

لعن الله صاحبه الأدبجي، من أغواها ودفع بكنوزها إلى أوروبا، إلى البعد، كل من دنا، كل من عرف أتونها، قبضها وبسطها، لا يمكنه النأي أو الفكاك، وإذا أدارت له ظهرها سعى إثرها إلى أبد أبيد.

لا بد أن هذا الطبيب الثري الأجنبي، ذهل عن نفسه عندما عاين تكوينها الفريد، صار إليها، وسكن.

يبتسم الجواهري، لأول مرة تنفرج ملامحه منذ وقوع الغمة، لم يغب ذلك عن امرأته المتأهبة لتلقي أي إشارة منه، حمدت الله وكتمت فرحها خشية أن تحسده إذا أعلنت وفسرت، بينما كان يحاول تخيل رشيدة عارية متسائلاً: أي أنثى هذه؟ لم يسمع عن شبيهة لها، وما حكاه الشبراوي المجنون يعني أنه لم يعرف جنس النساء، وأنه لم يتبق له الآن إلاّ التخيل أو التمني..

صباح اليوم التالي ظهر الجواهري في المقهى، لم يتجه إلى ركنه المعتاد، إنما اختار منضدة صغيرة تحت مرآة مستطيلة، موقعها يمكنه من رؤية مدخل المقر الأصلي عبر الطريق. جلس بمفرده متطلعاً إلى الناحية الأخرى، مبتدئاً طوراً جديداً..

الآن .. يبدو كل من ينتمي إلى المؤسسة وكأن عينيه في وسط رأسه!

لا يعرف أحد ما يجري أو ماذا سيقع غداً أو بعد ساعة، كل لحظة ربما تحمل مفاجأة، أو حدثاً غير متوقع. أو تغير حال هذا أو ذاك.

ماذا يجري فوق؟

الكل يتطلع إلى الطابق الثاني عشر خفية أو علانية، حتى هذه اللحظة لم يُبلغ الأشموني بأسماء زائرين حتى يمكنه مقابلتهم كما ينبغي وتكليف بعض رجال الأمن بمصاحبتهم حتى المصعد الخاص، لكن الأغرب، ما لم يصدقه البعض في البداية أن العاملين في المكتب الأمامي، ونقاط الأمن المتقدمة لم يلمحوا سيادته، لم يروه داخلاً أو خارجاً منذ صدور القرار العلوي، حتى سكرتيرته إنتشار القليوبي توارت.

قال بعضهم إن آخر مرة شوهد فيها خلال ذروة الإشاعات القائلة بتعيين البروفيسور رئيساً للمؤسسة، شوهد يجتاز المدخل متجهماً، بينما أكد الحراس الخصوصيون أنه بدا باسماً سعيداً. لكن الجميع بما فيهم عامل المصعد الخلفي المؤدي مباشرة إلى أعلى أجمعوا على بقائه في الطابق الرئاسي، لم يغادره، إنه مقيم لتدبير الأمور واستيعاب الأوضاع، والإحاطة بتخصصاته وتقويم الأشخاص الذين ستسند إليهم المهام الأساسية. علمتهم التجربة أن كل قادم جديد يختار الأقرب. من يرتاح إليه ويثق به، المحير هذه المرة أنه لم يعرف عن سيادته حبه أو كرهه لهذا أو ذاك. غير أن التجربة تقول أيضاً إنه لن يمضي وقت طويل حتى يظهر للجميع شخص معيَّن ـ أو أكثر ـ يدرك الجميع أنه المقصود.

غير أن عدم ظهور المهنئين وتوقف الزوار، وصدور القرارات

التي لم يعتدها الجميع، خاصة في الفترة الأولى، واتصالات السكرتيرة الحسناء برؤساء القطاعات، هذه الأسباب كافة جعلت التوجس والحذر والرهبة عوامل تخيم على الجميع.

استعاد الكثيرون ما تردد طويلاً عن تركيب الطابق الرئاسي، وتصميمه الفريد، وغرفه السرية التي حيّرت رجال الأجهزة الأمنية، خاصة أولئك الذين اقتحموه عقب بدء المحنة الكبرى للمؤسس، وإقامتهم به أربعة أسابيع متصلة ليلاً ونهاراً، يجسون الجدران، والزوايا، والأبواب، وما وراء اللوحات المعلقة، يفتشون ثنايا الوبر الكثيف للسجاد النادر القديم، خاصة الطراز الصيني منه، بارز الزخارف، ثم فحصهم تصميمات المبنى وتشكيل لجنة مشتركة من أساتذة كليات الهندسة القاهرية والإقليمية، وبعض كبار الفنانين، انتهوا جميعاً إلى أن ما خطّ على الورق شيء وما قام في الواقع شيء مختلف تماماً، هذا ما أكده الجواهري بعد انتهاء المحنة الكبرى، وقال أيضاً إن جميع الخبراء أعجبوا بفرادة المبنى، خاصة أساساته التي لا مثيل لها في بر مصر إلاّ أساسات الأهرام التي ما تزال تقديرية، لم يحسم العلماء أمرها بعد.

ما يتعلق بالطوابق التحتية لا يعد من أسرار المؤسسة، بل من الأمور التي تتعلق بأمن البلاد، والتي لم يحن الوقت المناسب بعد لإفشاء تفاصيلها، تلك أحوال لم يقترب منها أحد، ولم يحاول إنسان الخوض فيها، يشعر الجميع بوجودها، بمثولها في حيز ما، في زمن معيّن، لكنهم لا يخوضون فيها، يجري التلميح إليها بمناسبة ما يجري وما يمكن وقوعه خاصة زمن التحولات الأساسية، أما الطابق الثاني عشر فيظل محور الأفكار وهدف الأنظار باستمرار.

زمن المؤسس كان متاحاً الصعود إليه لكل شخص ينتمي إلى المؤسسة، حتى طلاب الحاجات وأرباب المصالح الذين سعوا إلى

مقابلة سيادته. بالنسبة للعاملين كان المطلوب فقط الإستئذان من عم صديق، كان الطلوع مسموحاً به عبر السلالم والمصاعد الرئيسية باستثناء الخلفي. علل الجواهري ذلك بقدمه وضيق مساحته وفرادة طرازه، حتى أن الشركة الفرنسية المنتجة له عرضت شراءه مقابل مبلغ ضخم، لكن سيادته ـ رحمه الله ـ رفض بشدة، وأوصى ببقاء هذه التقنيات، يكفي أن يتردد وجودها في المقر، إلى جانب قيمتها التاريخية والفنية، ومثل هذا كثير.

غير أن قلقاً عمَّ بعد ظهور عربات ضخمة، تجر كل منها مقطورة مصمتة، مغلقة، لا تفصح عن محتوياتها، يقودها عمال ملامحهم آسيوية، قيل إنهم يتبعون شركة مقاولات كورية، لكن غير معروف، شمالية أو جنوبية، وتردد أنها الشركة نفسها التي شيدت المبنى الشاهق في صحن مقر السفارة الأمريكية بجاردن سيتي، واكتمل في سرعة قياسية أقل من الوقت الذي يستغرقه جفاف الخرسانة مما دعا بعض كتّاب الصحف اليمينية إلى التهكم على شركات التشييد الوطنية وضربوا مثلاً بإصلاح مطلع كوبري أكتوبر جهة المتحف المصري والذي أغلق عدة شهور بحجة الخلخلة الشديدة التي لحقت دعائمه نتيجة تبوّل المواطنين وتفاعل النشادر القوي مع المكونات الخرسانية.

ليس الجواهري وحده الذي أبدى إنزعاجاً، إنما قدامى العاملين، وبعض الشباب المتحمس، إنها المرّة الأولى التي تمتد فيها أيدٍ أجنبية إلى المبنى العتيق، إن ذلك لا يؤثر على المؤسسة فقط باعتبارها من بيوت الخبرة المتينة، وحجم أعمالها في البلاد العربية مشهود به، لكن سيلحق الأثر السلبي بقطاع التشييد الوطني كله، هذا القطاع الذي شيّد السد العالي، والمصانع العظمى، لكن. نقل عن عبده النمرسي في إشارة لا تخفى توحي أنه سيصبح من المقربين قوله بأن

الزمن تغير، وأن كلمة أجنبي لم تعد تخيف، ما يهم حساب التكاليف، ومقدار الأرباح والخسائر. هذا كلام جديد لم ينطق به عبده النمرسي من قبل، لم يكن يجرؤ على التفوه به لولا تلقيه إشارة علوية.

في اليوم التالي فوجيء العاملون بستائر ضخمة تغطي المبنى كله، تحيطه لمنع تساقط أي أحجار أو شظايا بعيداً، أما الطابق الرئاسي فاختفى تماماً تحت سقالات ومواسير معدنية. عند الظهر تم رفع صناديق ضخمة ولفافات ومعدات بواسطة ونش ضخم.

إعادة صياغة الطابق الثاني عشر.

هذا ما تناقله الجميع، يعرف المعمرون منهم ضرورة قيام الرئيس الجديد بتغييرات ما، لكنها ظلت محدودة، لا تنال الجوهر، أما تبديل طابق بأكمله.. وأي طابق؟ فهذا يجري لأول مرة.

هل يتم العمل أثناء وجود سيادته؟

لا يعلم أحد على وجه الدقة، شواهد عدة تؤكد أنه باق، مستقر فوق، سكرتيرته لم تتوقف عن الاتصال ليلاً ونهاراً، كأنها لا تعرف النوم أبداً. كثير من تعليماتها كانت مثيرة للصدمات والقلاقل، الوحيد الذي كان يتطلع إلى الهاتف بصبوة ورغبة دونها حجب شتى هو البروفيسور الذي بدأ يعرف متعة لم يعهدها من قبل، حتى إنه لم يعد يقرب امرأته مدخراً قواه وطاقته للحظات إنسكاب نبرات الصوت اللَّدن المتراخي في سمعه، ما يشغله عند بدء الاتصال كيفية إطالة الحوار. اختلاف موضوعات وطرح استفسارات، حتى يستمر ترديدها لآهات إجاباتها المضمومة، المدثرة.

«آه» «آه» «أُم».

يخشى أن يبدر منه ما يمكن أن ينم عن وضعه المستغرق «المنتشي» وهذه لذة مستحدثة عنده. غير أن هذا الصوت نفسه كان يثير الخشية والحيرة عند آخرين، خاصة هانم الدمياطية مديرة الصادر والوارد، والمهندس راسم الدمنهوري مدير قطاع البحوث، والمهندس رسمي الأبوتيجي، وآخرين كثر، جميعهم لم يعتادوا هذه المكالمات المتوالية، خاصة أثناء الليل.

أشدهم حذراً الآن المهندس راسم الذي بدا في مرحلة معينة قاب قوسين أو أدنى من الاستقرار في الطابق الثاني عشر، بعد تردد الأقاويل عن نشاط شقيقه صاحب معرض السيارات الحديثة وتكثيف جهوده مع ضيوف قعدته الليلية، تضم اثنين من المقربين للقيادة السياسية، غير أن راسم لم يكن مرجوفاً خفيفاً مثل البروفيسور الذي أثار سخرية المحيطين به وصغار العاملين تحت رئاسته بما صدر عنه من أقوال وإرسال برقيات وتأكيد للولاء بمناسبة وبدونها.

راسم الدمنهوري أرسخ، أمتن حضوراً، ملامحه لا تعكس ما يدور داخله، معروف بعده عن الدسائس والوشايات، تستغرقه تفاصيل العمل، عينه دائماً على التصميمات وخبايا المشروعات، وتحقيق أقصى قدر من الأرباح للمؤسسة، لا يفوته فرض، وإذا حان موعد الصلاة أثناء اجتماع يفارق مقعده ويفرد سجادته التي يحتفظ بها معه دائماً، إذا فارق مكتبه فإنه يمضي لتفقد مشروع جارٍ تنفيذه أو للإطمئنان على إتفاق يتم. لم يُعرف عنه مطاردته لأنثى أو إيثاره إحدى العاملات دون أخرى. مرة قال عنه عبده النمرسي إنه يعلم عنه تفاصيل لو أذاعها لغيرت الصورة المتناقلة عنه، لكن.. لا داعي، إنه مثل الخباز الماهر.. لا يأكل ولا يسرق من فرن يعمل فيه.

يحيط بحياته الخاصة غموض، ولكن المؤكد أنه تزوج بعد الخامسة والثلاثين، وأنه أمضى عدة سنوات بدون إنجاب، طاف خلالها مع زوجته على أطباء مختلفين، وزار مقامات الأولياء والصالحين، ونذر للسيدة نفيسة نذراً كبيراً. أوفى به بعد وصول ابنه الوحيد، والذي جاء بعد صبر طويل، وعملية جراحية كبرى أجريت لامرأته، حاول البعض مناقشة الأوضاع الجديدة معه، لكنه لم يستجب، كان يتطلع هادئاً ثم يقول:

«قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا..».

أو:

«قل اعملوا، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون..».

لم يبد أي رد فعل واضح، لكنه بدا أكثر جدية من قبل، وصار يمكث في مكتبه وقتاً أطول، أما ما تردد عن تمزيقه أوراقاً عديدة بعد إغلاق بابه جيداً لمدة خمس ساعات، أو تخطيطه للاستقالة فلم يتأكد.

الحقيقة أن الإشاعات طالت الكثيرين، وتوالى ترددها، خاصة مع بدء الغموض الذي أحاط بما يجري في الطابق الرئاسي، ودفع ذلك بعض أجهزة الدولة إلى الاهتمام.

في اليوم التالي لإنهاء خدمة الجواهري، فوجىء رؤساء القطاعات المركزية، وأعضاء المجلس الدائم بصور نصيّة لخطاب موجه من سيادته، إلى الجواهري، يطالبه بالكف عن التحرك المريب الذي بدأ القيام به ضد المؤسسة، وبعد التحذير الذي صيغ بعبارات قاسية، يذكر وقائع المفروض أنها جرت خلال السنوات الماضية ولم يردعه أحد بعدها، وما تزال بعض آثارها السلبية سارية ولا يعلم أحد إلاّ الله كيف يمكن معالجة ما ترتب عليها.

وقف البروفيسور وسط الكراج، صاح معلناً أن ما ظنه القوم لسنوات طويلة موسى طلع فرعون. وحذر من أي اتصال بالجواهري الذي يجلس الآن في مقهى رشيدة.

غير أن ما جهر به البروفيسور قرأه المسؤولون في خطاب تالٍ وتم توزيعه على نطاق أوسع، شمل رؤساء الأقسام، جاء فيه أن عطية بك والجواهري أصبحا يمثلان خطراً حقيقياً على الكيان المؤسسي، وأن تصرفاتهما طوال سنوات عديدة لم تواجه بما يجب وأنهما دأبا على إرجاع أمور غير موثوق بها، مشكوك فيها إلى بعض من يكن له الجميع محبة خاصة.

هكذا .. تمت الإشارة بصيغة المجهول إلى المؤسس في أول سابقة من نوعها، ليت الأمر توقف عند ذلك، بل تم رفع اللوحات التي تحمل عبارات منسوبة إليه كتبها مشاهير الخطاطين.

أحدث ذلك صدمة، خاصة بعد أن عرف الجميع كيفية إزالة اللوحات، بعد منتصف الليل ظهرت مجموعة من العمال الكوريين عند المكتب الأمامي، يرتدون خوذات بيضاء معدنية تشبه المستخدمة بين رجال المناجم. عدا أحدهم، كانت خوذته صفراء، بعد أن أبرز أمراً موقعاً من انتشار القليوبي ـ التي مُنحت صلاحيات إضافية ـ تقدموا إلى جميع الحجرات بمختلف الطوابق، وبمفتاح واحد تمّ إيلاجه في الأقفال التي لا يشبه أحدها الآخر، دخلوا الغرف كافة، أزالوا الإطارات المعلقة، جمعوها في صناديق، بعد إغلاقها بإحكام دفعوا بها إلى جوف مقطورة صماء.

ماذا يجري؟

إلى أين تمضي المؤسسة.

كيف يحدث هذا لذلك الكيان الراسخ القديم؟

لم تكن هناك فرصة كافية للدهشة، للغضب، لإبداء الاحتجاج إذا توفرت الشجاعة والعزيمة.

في التاسعة صباحاً فوجىء كل من دخل إلى مقره بمنشور إما معلق على الأبواب أو فوق المكاتب، يحذر من التعامل مع الجواهري أو عطية بك، يطالب الجميع بالحفاظ على التضامن المؤسسي، لفت الأنظار هذه الجمل والعبارات الجديدة مثل «الروح المؤسسية» «الهدف المؤسسي» «النقاء المؤسسي».

نص هذا المنشور أرسل إلى سائر الصحف القومية والحزبية، تولى عبده النمرسي متابعة نشره كإعلان، أضيف إليه ما يعني أن هذين الاثنين لم تعد لهما صلة، وأن المؤسسة تحذر من التعامل معهما، هل يصدر هذا كله عن الرئيس الجديد الذي لم يُسمع له صوت طوال مدة خدمته الماضية؟

كيف؟

أين التقاليد التي حرص المؤسس على بثها ورعايتها، خاصة فيما يتعلق بالزمالة؟ واضح أن هذا كله لم يعد له اعتبار، بدأ الكثيرون يحاولون استعادة ما يتعلق به، اجتهد البعض في محاولة تذكر صفاته فوجدوا أنفسهم في حيرة.

هل هو قصير أو طويل؟ أي ملامح كانت تبدو؟ أي انفعالات؟ الذين عملوا معه عن قرب، قالوا همساً إنه لم يرَ ضاحكاً، أو غاضباً، وعند الحديث إليه لا يمكن التنبؤ بما يجري داخله، إنه يصغي، يصغي جيداً، ربما ينطق لفظاً أو اثنين ثم يعود إلى صمته، لا يواجه إنساناً قط، لكنه إذا خلا بنفسه أخرج الحاسب الآلي الذي يصحبه معه باستمرار، يشبه حقيبة صغيرة، يكتب رسائله ومذكراته عليه، لا يستخدم القلم إلاّ في التوقيع على القرارات والأوامر، توقيعه متداخل، غريب، يصعب تقليده. أكد المقربون

السابقون أنه لا يناقش ولا يجادل، وليس بإمكانه نطق جملتين متصلتين، لكن غضبه لا قبل لأحد باحتماله، غضب لا يعبر عنه بزعيق أو كلمات إنما بتصرفات تتجسد على الفور كقرارات لا راد لها، وما من سبيل إلى مناقشتها لأنه لا يلتقي بأحد، ولا يقابل إلاّ من يرغب رؤيتهم أو من يثق بهم، لا يرد على هاتف، لكن اكتشف البعض أنه يفتح الهاتف الخاص به في أوقات يحددها هو، لا يمكن رصدها أو التنبؤ بها أو معرفة دوافعه، عندئذٍ يمكن الحديث إليه، يجيء صوته هادئاً، ذا طبقة واحدة، لا يعلو ولا ينخفض.

نقل البعض عن انتشار القليوبي أنه رقيق جداً، يجيد معاملة الآخرين إذا وثق بهم، وأن المرأة التي تعرفه لا بد أن تتعلق به، له علاقات عديدة لكن لا يمكن لإنسان الإطلاع على تفاصيلها، لكنه عندما يقود السيارة بمفرده فإنه يكون متجهاً للقاء امرأة. تساءل الأشموني أثناء حديثه مع صاحبه مفتش الصحة: كيف أقام علاقاته مع القيادة السياسية؟ ما هي الكفاءات التي رشحته لتولي صرح متين كهذا؟ حتى لو قيل الوفاء المطلق، فكيف أبداه، ومتى أعرب عنه؟

لا أحد يدري، ما من تفسير شافٍ وإن كان أقربه إلى التصديق عند كثيرين صلة قديمة نشأت مع جهاز أمن سيادي، كلمته مسموعة في العهود كافة، ومهما تقلبت الأحوال وتغيرت الظروف، يؤكد الأزميرلي أنه ما من مسؤول يتولى موقعاً قيادياً إلاّ برضاء هذا الجهاز وثقته التي تقتضي صلة، هذه الصلة بدأت ـ كما يؤكد ـ خلال بعثته إلى أوروبا لدراسة الإتصالات الحديثة، كان يقوم بمهام مختلفة، منها مراقبة الطلبة المبعوثين وكتابة ملاحظات على سلوكهم واتصالاتهم، كذلك نشاط بعض القنصليات الأجنبية وشؤون أخرى.

أياً كانت الحقائق، فإن حذراً بدأ يسري عند الجميع، وصل عند البعض إلى خوف مكين، أصبح الطابق الثاني عشر مصدر رهبة بعد أن ظل مقصداً لكل من له صلة، خاصة زمن المؤسس. لم تستغرق الأعمال التي قام بها الكوريون إلاّ اسبوعين، تمّ خلالها طلاء المقر كله، أما الطابق الرئاسي فجرت به تغيّرات جوهرية، وشهدت نظم الاتصالات تطورات هامة، الفروع كافة حتى المخازن النائية أصبحت مرتبطة بنظام داخلي دقيق يماثل أي منشأة كبرى في اليابان أو الولايات المتحدة، بل إن بعضاً من النظم المستحدثة لا يوجد مثيل لها إلاّ في البنتاغون الأميركي و«ناسا» الفضائية، وتأكد وصول خبراء سابقين من جهاز الـ«كي.جي.بي» سُرّحوا من أعمالهم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وفقدانهم وظائفم، أحدهم يحمل رتبة مارشال، ولأن المؤسسة على صلة قديمة بالدول الاشتراكية سهل عليها الاستعانة ببعضهم، قال البعض إن مجيء هؤلاء الخبراء ليس لوضع نظام أمني خاص يحمي المؤسسة، ولكنه ستار لأمور أخرى لم يخض أحد في تفاصيلها. أكد آخرون أن القيادة الجديدة للمؤسسة تولي جمهورية روسيا، وجمهوريات آسيا الوسطى أهمية خاصة، وأن جزءاً كبيراً من النشاط المؤسسي يوجه لاستقطاب خبرات نادرة لم تعد مطلوبة في الكيان المتبدد. بالطبع أزعج ذلك بعض الجهات الغربية وكثفت جهودها لمعرفة ما إذا كان ثمة خبراء لهم علاقة بتخصيب اليورانيوم، أو تركيز الماء الثقيل، باختصار أي خبرة تتعلق من قريب أو بعيد بتصنيع السلاح النووي، ربما لهذا السبب تم تعديل بعض الهوائيات غريبة الشكل غير المألوفة فوق مباني السفارات الأميركية والإسرائيلية والألمانية، وسفارة هولندا الملكية بالزمالك. بعض هذه الهوائيات على هيئة أطباق استقبال البرامج التليفزيونية وبعضها يشبه شباك الصيد، إن

تحريكها وتغيير زوايا ميلها تمّا بهدف رصد الإتصالات الخاصة بالمؤسسة، وربما ما يجري داخلها أيضاً، لكن المؤكد أن هذه المحاولات تواجه بصعوبات جمة، لأن المسؤول الأول عن المؤسسة خبير في هذا المجال، مما دفع السفير الأميركي الجديد الذي يتقن العامية المصرية كأبنائها إلى التلميح خلال لقائه بمسؤول كبير إلى القلق الساري بسبب حجم معاملات المؤسسة في هذا المجال والذي يفوق طاقتها، قال إن هذا القلق ربما يجد طريقاً للتعبير عنه خلال مناقشة الكونغرس الأميركي لبرنامج المعونة الغذائية!!

لم يعرف أحد إجابة المسؤول، كما لم يحط أحد بطبيعة ما جرى في الطابق الثاني عشر، تردد أن هؤلاء الآسيويين ينتمون إلى كوريا الشمالية ـ وليس الجنوبية ـ هم مجندون في الجيش النظامي، يخرجون في ملابس مدينة إلى أماكن شتى من العالم لأداء مهمات ظاهرها مدني وباطنها خفي لا يلم به أحد، لكن يبدو أن ما أقلق المرجعيات الغربية اشتراك عدة مؤسسات عالمية في تكوين نظام الإتصالات الجديد، بحيث لا تنفرد إحداها بمجمله وتفاصيله. كذلك القدرة على التوفيق بين أنظمة مختلفة، مغاير كل منها للآخر، يضاف إلى هذا جوهر العلاقة بين المؤسسة وجمهوريات الكومنولث.

صحيح أن المؤسس كان عدواً لدوداً للشيوعية في الداخل، لكنه أول من أقام علاقات تجارية خاصة، واسعة النطاق مع مؤسسات الاتحاد السوفياتي، وهو أحد أعضاء الجانب المصري في المفاوضات التي انتهت بإبرام صفقة الأسلحة التشيكية بعد نصيحة شو اين لاي الشهيرة لناصر في مؤتمر باندونغ.

ماذا جمع بين الشامي والمغربي؟

ماذا يوفق بين البري والبحري؟

من هو الجواهري؟

من أين استمد عطية بك تلك القدرة والخبرة اللتين مكنتاه من شل حركة المرور في عاصمة ضخمة معقدة يعيش فيها ويتحرك ستة عشر مليوناً؟

لماذا تبدو بعض أنشطة المؤسسة متناقضة والأخرى غامضة؟

ما الدافع الحقيقي للحملة ضد الجواهري وعطية بك، مع أن كليهما بدون تخصصات حقيقية، وجودهما معنوي، هل يستحقان نشر هذا الإعلان التحذيري يومياً ولمدة أسبوع كامل؟

عندما قرأه الجواهري لم يجزع، ماذا يمكن أن يحدث أكثر مما وقع بالفعل؟ ما يعنيه الآتي، ما سيجري، أحد همومه الطابق الرئاسي، تتردد أقاويل عديدة تصل كلها إليه، أيسرها أن معالمه القديمة تبدلت تماماً وأنه يحوي الآن مستويين، وبه غرف تضم كل منها حجرات متعددة، بعضها يدرك بالحواس والآخر من الصعب مثوله إلاّ وفق شروط معينة، لا يدري أحد من يتحكم فيها، ومن يديرها. لهذا لا يمكن وصف محتوياته أو الوقوف على مضمونه، إذ يمكن رؤية جدران ماثلة ونوافذ لكنها تخفي جدراناً أخرى ومكونات مغايرة لا يمكن الكشف عنها إلاّ بقدر، أو طبقاً لترتيبات مسبقة.

سمع باختفاء السجادة التبريزي، والساعة البرونزية، والفناجين الثلاثة التي تحمل علامة أسرة رومانوف. الرائحة المميزة، الخاصة التي شكلت ملمحاً من الحضور القوي في ذاكرة كل من سعى إليه اندثرت. المكتب الدائري اختفى حلّ مكانه آخر، يبدو من الخشب وأحياناً من المعدن، لا يمكن تعيينه، في الصباح بيضاوي وعند الظهر مستطيل وفي المساء دائري.

أغرب ما نما إليه أن الطابق كله لا يحوي إلاّ قاعتين، الأُولى مدخل إلى الثانية، كلتاهما خاليتان من الأثاث، فراغ فسيح أشبه بقاعات المعارض، لكن.. ما من لوحات معلقة!

أين يستقر إذن؟

من أي مكان تمارس انتشار القليوبي مهامها واتصالاتها، وتصدر تعليماتها المتعاقبة. أحياناً يتردد صوتها في مكانين مختلفين بموضوعين مغايرين في توقيت واحد.

آه .. لم يعد الثاني عشر موقعاً مهاباً، منيع الجانب كما ظل دائماً، الذي يركن إليه كل صاحب حاجة، ومن ألمّ به ضيق، ومن يأمل في المستقبل، يبدو الآن غامضاً، محيراً.

من يتصور هذا المكان العلوي بدون عم صديق؟

بعد الجواهري وعطية بك حلّ دوره، صدر قرار بإنهاء علاقته وقطع مكافأته الإضافية. ومنعه من دخول المقر كله وليس الثاني عشر فقط، صودرت متعلقاته الخاصة ومنها البن المحوج والملاعق الصغيرة التي تحمل الحرف الأول من اسم المؤسس، والصينية الألباستر. علّق البروفيسور مؤيداً.

«لا يمكن للمؤسسة أن تصبح مخزناً للتحف.. لا بد أن نلحق بالعصر».

أي تحف؟

عم صديق تحفة؟

الوفي، النبيل، المهيب، أكثر الناس قرباً من المؤسس، حتى لتتشابه أنفاسهما، ويقوم إذا قام حتى لو كان في مكان بعيد عنه، ويمرض إذا مرض ويصح إذا شفي، عم صديق الصامت، مجمع الأسرار، المؤتمن، قديم المودة.. هل يطرد هكذا؟

مرة أخرى ترددت أصوات مزعجة، مربكة، صادرة عن أعماق الحفرة الدائرية. سمعها العاملون في النوبات الليلية وأفراد الأمن المرابطون، وتكررت نهاراً عند الظهر، لكنها لم تستمر.

حتى الأرض تضج لما يجري، هذه علامات يجب ألا تهمل، لا بد من الانتباه، غير أن هذا كله لم يلق أذناً صاغية في الطابق الرئاسي، بل جرى التلميح في أول منشور يُعلق باللوحة الرئيسية إلى ضرورة تخلص المؤسسة من الأعباء الثقيلة المتوارثة من عهود سابقة. وعُد ذلك تلميحاً قوياً إلى حقبة المؤسس.. بل إليه شخصياً. ثم ترددت إشاعات قوية عن كشوف تُعد لإحالة عدد غير قليل من مختلف التخصصات إلى التقاعد، وأنه يجري تكليف المستشار القانوني لتجهيز المبررات، سبَّب ذلك خوفاً وحذراً، وخيّل لكثيرين أن أيامهم أصبحت معدودة.

لم يكن ذلك من قبيل التحذير أو التهويش، إذ سرعان ما أذيع أمر بصوت يُسمع لأول مرة تردد في أنحاء المقر الرئيسي والفروع التابعة كافة حتى دورات المياه والمخازن البعيدة عبر مكبرات صوت خفية، ظنه الكثيرون أنه صوت سيادته شخصياً، وقال العاملون في قطاع الحواسب الآلية إنه مُخلق بالكومبيوتر ولا يمت إلى مخلوق حي. صوت غريب، غير مألوف، فيه رنة معدنية ونذير. أصاب البعض بالخشية والحزن، ومع تكراره اضطر عدد غير قليل إلى استخدام مضادات الاكتئاب وأقراص مضادة للخوف.

في أول مرة يُسمع فيها طلب من السعاة كافة التوجه إلى إدارة شؤون العاملين، عمت الطوابق والمقرات حالة أسى، وارتفع بكاء رجال، وأغمي على آخرين.

معقول هذا؟

أن تلفظ المؤسسة من أفنوا أعمارهم بين جدرانها وطرقاتها؟

صحيح أن كلمة الفصل لم تتردد، لكن ثمة عبارات أخرى أشد وقعاً وأكثر إثارة للحيرة والتشتت مثل «ترشيد العمالة» «فائض القوى» و«إعادة التأهيل».

ترشيد، تأهيل .. من؟

إلى أين يذهبون؟

كأن هاتفاً خفياً دعاهم أجمعين للتوجه إلى مقهى رشيدة بعد أن أمضى الجواهري أياماً معدودات وحيداً، لا يقربه إلاّ القدامى العتاة الذين تقلبوا عبر ظروف شتى وخبروا الاستجوابات المثيرة للفتيان، ومحاضر التحقيق في المكاتب المليئة بظلال صفراوية.

إلتف السعاة العجائز وصغار السن حوله، أنهوا إليه ما جرى علناً وعلى مسمع، مع علمهم الأتم أنه مرصود وممنوع الإتصال به. ولا حول له ولا قوة الآن، هذا تصرف أثار حيرة المتابعين!

طلبوا منه النصيحة، إنه قديم، عنده دراية، وهم لا يعرفون الطرق الموصلة إلى أصحاب الكلمة المسموعة. من أين لهم وقد أفنوا أعمارهم في أروقة المؤسسة وعلى أبواب مكاتبها.

أصغوا إلى نصائحه بهدو.. ثم فارقوه متأثرين، مضوا إلى دور الصحف، وحاول أحدهم عبثاً دخول مقر التليفزيون، لم يلتق بهم أحد. لكنهم أودعوا الشكاوى والإستغاثات في المكاتب الأمامية، أرسلوا صوراً منها عبر البريد إلى كتّاب مرموقين، ومقدمي برامج إذاعية وتليفزيونية، وبعض أعضاء المجلس النيابي، بل شرعوا في جمع أموال لرفع قضية، لكن.. هذا كله يستغرق وقتاً وربما ينتهي إلى خسران مبين. حقاً.. هل نجح أحد في مواجهة المؤسسة من قبل؟

هكذا .. تمّ التخلص عملياً من مئات السعاة، بعضهم قدامى

شاركوا في بناء المقر الأصلي، حملوا المقاطف والمؤن، بعد تمام البناء استجاب المؤسس وأبقاهم، وصار بعضهم من العلامات، وركناً في تمام المسيرة.

منهم عبد الله القناوي، كان طويلاً، راسخاً، مهيباً، هاجر من بلدته لسبب لم يفصح عنه، وإن خمن الجواهري أنه يتعلق بثأر، كثيراً ما ردد القناوي أنه لم يرغب العمل الحرام، ولو قبل ما عُرض عليه لأصبح شأنه مغايراً، تنقل من عمل إلى آخر، من مركب في النيل تنقل الجرار الفخارية إلى سقالات البناء، إلى تحميل عربات نقل الأثاث. كان يمكنه حمل برميل زيت ممتلىء أو بالة قطن تزن قنطاراً كاملاً، لم تهن قدرته حتى تجاوزه الستين. كان بمجرد رؤيته المؤسس يسارع محاولاً تقبيل يده، مع أنه لم ينحن لأي مسؤول آخر، بل أدركه الغضب الوعر عندما طلب منه موظف بإدارة الشؤون القانونية كوباً من الشاي والوقت رمضان. الحقيقة أنه اعتبر ذلك مهيناً له سواء في رمضان أو الشهور الأخرى. يقول إن المؤسس طلب منه نقل المراسلات فقط من إدارة إلى أخرى ولم ولن يقوم بأي عمل خلاف ذلك. وعندما بدأت أحداث المحنة الكبرى أقدم على ما اعتبره الكثيرون طيشاً وجهلاً، إذ مضى إلى ليمان طرة الذي سمع باعتقال سيادته فيه، ورابط أمام الباب جهة النيل حتى أقنعه سجان قديم برتبة باشجاويش أن يبتعد عن مصدر الأذى بعد أن وعده بإبلاغ السلام والدعوات. لم ينقطع عن زيارة الأولياء، وأضرحة الصالحين، خاصة سيدنا الحسين وسيدي البيومي الذي كان يسكن على مقربة من ضريحه جهة الحسينية.

لا يذكره الجواهري إلاّ ويترحم عليه، يبسط يديه ويقرأ على روحه الفاتحة رغم كثرة الهموم وجفاء الوقت.

السعاة الذين يشردون الآن، كانوا موضع رعاية المؤسس،

يصغي إليهم، يهش ويبش لهم، يستفسر عن الأبناء والأحوال التي كان يُلم بها في دقة عجيبة، ويستوعبها بذاكرة أثارت الدهشة وبقيت مثلاً. أمر لهم بكساء في الصيف، والشتاء، أنفق من ماله الخاص لمساعدتهم، وخصص منحاً دراسية للمتفوقين من أبنائهم أوصلت بعضهم إلى الجامعات الأوروبية، لذلك.. حمل معظمهم الود الجميل له، رفعوا أيديهم بالدعاء، فتح بيوتهم وساعد مرضاهم، تمكنت محبته من قلوبهم.

منهم عم إسماعيل القبرصي، تجاوز الثمانين الآن ولم يتغير سواد شعره وإن خفت كثافته، ما زال يدّعي أنه يسقي الأرض ثلاث مرات أسبوعياً، لم يتخلف مرة واحدة إلاّ بسبب نوبة روماتزم حادة أقعدته عن الحركة ومنعته اسبوعاً واحداً لا غير قلق خلاله على امرأته التي تجاوزت الستين لأن المرأة كما يعودها الرجل. الحق أنه لم يقصر، وهي أيضاً لم تتأخر عنه طالما بقيت قادرة، فهمته وقدمت إليه ما يرضيه، اعتادها واعتادته، حتى أن مسامهما لتتطابق فتحاتها، معها لا يعرف البرد، إذ تحيل ليالي الزمهرير الخارجي والداخلي إلى دفء متصل بصهدها المشع، يتكلم عم إسماعيل ببساطة عن أدق أموره، وكثيراً ما يقص وقائع الليلة الماضية أثناء وقوفه مع زملائه بصوت مرتفع، مما دعا الآنسة ابتهال الساملي إلى تقديم شكوى ضده، ولولا تدخل الجواهري شخصياً لكبر الأمر. يومها مال عليها. قال إنه لا يكن لها بغضاً بعد أن علم بسوء بختها وميل حظها، في المرة الأولى انتهى زواجها بعد سنتين، خرجت منه عذراء لم تمس، أما الثاني فسافر بعد عقد القران وقبل أن يدخل بها إلى الخليج وهناك وافته المنية ولم يعرف السبب، أما الثالث فألعن حالاً من الأول، قال مشفقاً، معاتباً..

«لو أنها عرفت الـ ..»

قاطعه الجواهري:

«يا رجل حرام عليك ..».

لا يمت عم إسماعيل إلى قبرص بأي صلة، بل إنه لا يعرف موقعها من العالم. وعندما قال الأستاذ حسنين الرسام على مسمع منه أنه أمضى المصيف في بلطيم، مكان هادىء، جميل، وفي الليالي الصافية يمكن رؤية أضواء قبرص، أبدى اهتماماً، قال إنه لم يتصور قربها هكذا، خاصة أن سكانها لا يوحّدون الله!

كان والده يبيع الزيتون الأسود لسكان مقابر قايتباي ولسبب ما أطلقوا عليه القبرصي، ربما نوع منه، لم يكن عند عم إسماعيل تفسير آخر، غير أن شهرته في المؤسسة ترجع إلى أمانته التي ضُرب بها المثل، وتحدثت عنها صحف الخمسينات قبل التأميم، عندما عثر على حقيبة صغيرة قرب خانقاه فرج بن برقوق، احتوت على فصوص ماسية نادرة أحدها يخص ملكة هولندا الجدة والذي اختفى قبل نشوب الحرب العظمى الثانية مباشرة، قدرت القيمة بمليون وربع مليون دولار أميركي، وهذا مهول بمقاييس الوقت، قام بتسليمه إلى نقطة الشرطة الفرعية،بادر قائدها ـ برتبة نقيب ـ واستدعى الصحفيين. عندما ظهر صاحب الحقيبة النمساوي الأصل، القاهري الإقامة، وتمّ التحقق من شخصه وما يثبت ملكيته للمجوهرات النادرة، أعيدت إليه، عدا الفص الملكي النادر الذي نشبت بسببه أزمة دبلوماسية ليس هذا مجال التطرق إلى تفاصيلها أو خباياها، غير أن المثير في الأمر هو رفض عم إسماعيل للنسبة القانونية واعتذاره عن قبولها بحجة أنه لم يعرق من أجلها ولم يتعب فيها مع أن المبلغ كان هائلاً، مما دفع البعض إلى اتهامه بالجنون أو العته، لكنّ كتّاباً مرموقين أشادوا به ودللوا على أن القيم الأصيلة ما تزال سارية، وأن الدنيا بخير رغم كل ما يقال. ما أثير

حوله من ضجة كان السبب الذي أدى به إلى إلحاقه بالمؤسسة. بعد هدوء الضجة وعودته إلى النسيان المألوف الذي يسعى فيه، إلى بيع الزيتون القبرصي والنوم ظهراً في صحن مسجد قايتباي، جاء سيادته شخصياً بحثاً عنه، لم يتردد عم إسماعيل في قبول العمل، إلتحاقه بالمؤسسة عين الراحة عنده، أن يضمن عملاً شهرياً، ثابتاً، يتقاضاه في يوم معين، هذا حلم وأمل كل بائع متجول أو سريح أرزقي لا يعرف ماذا سيأتيه غداً؟

قالت إحدى جاراته.

«مبروك يا عم إسماعيل .. بقيت مثل موظفي الحكومة ..».

عندما ذهب إلى المخزن ليتسلم الزي الرسمي واجهته مشكلة، جميع المقاسات المعروفة للأحذية أضيق من قدميه، قال أمين المخزن إنه لم ير مثلها في الفلطحة وكبر الحجم، لم يكن ممكناً السماح له بالتردد حافياً كما اعتاد طول عمره.

ضحك سيادته ـ يا سلام على لطفه ورقته ـ عندما سمع بذلك وأمر صديق النوبي بمصاحبته إلى إسكافي قديم، دكانه عند ناصيتي شريف وعبد الخالق ثروت، باشوات مصر من قبلي ومن بحري كانوا يلبسون من صنع يديه، قام بتفصيل ثلاثة، رغم تجهمه الدائم إلاّ أنه ابتسم مرات عندما رأى القدمين الضخمتين، سلّمه اثنين وعرض الثالث في الواجهة الصغيرة لمدة أربعة أشهر، كثيراً ما استفسر الزبائن منه وكذلك بعض الفضوليين.

«حذاء حقيقي أو نموذج للدعاية؟».

ومنهم خميس القفطي، كان ضئيل الجسم، كبير الدماغ، لم تعرف المؤسسة شبيها له إلاّ البروفيسور مع اختلاف التكوين، كان، خفيف الظل، كثير الدعابة، سريع النكتة، قادر على توليدها خلال

حواراته، ويقال إنه مصدر العديد من النكت المتداولة في المؤسسة والتي تخضع أحياناً لتحليلات الجهات المعنية. التحق بقسم المراقبة القديم، إذا غضب عليه رئيسه وبدأ مضايقته يلجأ إلى وسيلة غريبة لمضايقته، يحلق شعره بالموس، جلد رأسه ذو لمعة تميل إلى حُمرة غريبة. بمجرد ظهوره حليقاً هكذا ينتاب رئيسه هياج ممتزج بخوف غامض، يغادر المكتب على الفور، يبقى في بيته لا يظهر إلاّ بعد تأكده من ارتداء القفطي لقلنسوة.

غير أنه انطفأ بعد وفاة زوجته فجأة، لم ينجب منها، وأبى الزواج من أخرى رغم إلحاحها، لكم ردّد بحسرة ما تزال ماثلة في أذهان الكثيرين.

«كانت مريحاني».

آوى إلى صمت غميق، لزم مكانه في الممر وأبى الحركة في مواعيد الإنصراف، اضطروا إلى نقله للعلاج في المستشفى، ما زال حياً يرزق، لكنه لا يفارق مدخل بيته في حارة سيدي معاذ، يتطلع دائماً إلى نقطة مجهولة من الفراغ، أما دماغه فتضاءل.

ومنهم صابر الرفاعي، بدأ ظهوره في المقر عند استدعائه من بلدته ناحية أبو النمرس، لاستخراج الأفاعي التي ظهرت في المقر الأصلي عقب افتتاحه، تسربت إليه من الشقوق الغائرة زعموا أن مصدرها الحفرة الدائرية، لكن.. لم يثبت ذلك. لم يمض أسبوع إلاّ وشوهد جالساً أو مقرفصاً أو منحنياً في مواجهة صوان، أو شق، يتلو تعاويذه ويحرك أصابعه، في لحظة معينة تطل الرأس، يبرز منها اللسان المشقوق، أحياناً يُسمع فحيح الكوبرا.

أنواع عديد تم تحنيطها أو إهداؤها إلى حديقة الحيوانات بالجيزة، إحدى الحيات بلغت من الطول حداً أذهل القوم، استغرق خروجها

المتمهل البطيء ما بين صلاة الظهر وآذان العصر، خلال المدة لم يغير وضعه، ولم يكف عن تلاوة التعاويذ الغامضة. مع مرور الوقت خفت الثعابين، ربما لانتشار العمران أو لدبيب القدم البشرية، غير أن المؤسس لم يصرفه ولم ينه علاقته، عندما حدثوه في أمره يوماً، قال ملوحاً بيده، مبدياً العطوفة.

«خلوه يأكل عيش ..».

أخاف مظهره الصامت الكثيرين، وتلاوته المستمرة للتعاويذ، وتجنبه معظمهم لقدرته المؤكدة على استدعاء ما يشاء من الأفاعي. وانفراده بالسيطرة على نوع معين من الحيات لا يوجد إلا في مصر، وتوجيهه لمسافة خمسة وعشرين ميلاً بحرياً، أثار ذلك ذعراً خاصة بين النساء عندما ردد حمدي الأزميرلي أنه ينوي توجيه إحدى هذه الحيات التي تعد صغيرة الحجم، شديدة الفتك، حتى يستقر بين فخذي إحدى العاملات التي شاء حظها أن يكن لها إعجاباً مكتوماً لم يجرؤ على إعلانه أو البوح به، وأكد الأزميرلي قدرته على إبقاء الحية في هذا الموضع مدى الحياة.

ضحك المؤسس عندما سمع ذلك، قال إن هذا مستحيل، ورفض وقف صابر أو نقله إلى مكان آخر، قال إن من وضعوا اللبنات الأولى في المقر يجب ألا يلحقهم أذى غير مبرر. غير أن اضطهاد الأزميرلي له لم يتوقف لأسباب غير مفهومة، حتى تمكن من الزج به في المعتقل، تماماً كما فعل مع كيرلس القبطي وفهيم الشتوتي وعباس المنياوي فيما بعد، قيل إن صابر اتهم بعضويته للجهاز السري للإخوان المسلمين منذ طفولته، وإنه كان على وشك تجهيز قنابل من الأفاعي، بسلال مستديرة داخلها الأنواع الأشد فتكاً، يرميها على الموكب الرسمي، أمضى ثلاث سنوات وشهرين في السجن، خرج قبل حرب الأيام الستة بأسبوعين، لكنه

لم يرجع إلى المؤسسة، لم يدخلها قط، إنما مضى مباشرة إلى بلدته، استقر هناك لا يتلو التعاويذ ولا ينطق، يعيش مما يجود عليه القوم، وما يرسله إليه الجواهري. لكن المؤكد أن علاقته بالأفاعي لم تنقطع - كما قال عطية بك - والدليل ما جرى للأزميرلي فيما بعد.

ومنهم نفير الدلنجاوي، عُرِف بالأخرس لطول صمته، كان عضواً في عصابة أدهم الشرقاوي خلال العشرينات، شوهد المؤسس يصافحه بود مرتين بعد قيام الثورة، أمضى في المؤسسة أربعين عاماً، لم يحل إلى التقاعد حتى وفاته، أنجب ثلاثة عشر ذكراً وستة وثلاثين حفيداً، والمؤكد أنه تجاوز الثمانين.

ومنهم عبد الله العربي المقيم بنزلة السمان ناحية الأهرام، ورث فداناً عن أبيه يؤجره للزراعة، في بداية الستينات اقترب العمران، وبدأ بيع الأراضي بالمتر للبناء، أثرى بسرعة، بدل ملبسه ودار إقامته وأيضاً.. أم عياله، وبعد اختفائه من المؤسسة شوهد راكباً عربة رمادية اللون، محلية الصنع، ويدخن سيجارة أجنبية. وقيل إن الأمر لا يتعلق بارتفاع سعر الأرض، لكنه عثر على خبيئة من الزمن الفرعوني، ويبيع محتوياتها قطعة.. قطعة، هو الآن من أرباب المقاولات، ولكل من أبنائه الثلاثة نشاط معروف في السوق، كلهم من الأولى أما الثانية فلم تنجب.

ومنهم مصطفى السريني، كان طويلا، نحيلاً، الوحيد الذي سمح له بارتداء الجلباب والمعطف، حظى بمنزلة خاصة، لم يطلع أحد على أسبابها، ولم يعرفها حتى الجواهري، لزم مكاناً قريباً من الممر الخلفي المؤدي إلى الفتحة الدائرية.

حكايات عديدة تُروى عن كيفية إلتحاق بعضهم بالمؤسسة، مثل الشبراوي الذي جاء لزيارة أحد أقاربه يوماً، ثم استمر تردده وانتظاره في الممر الرئيسي بالطابق الرابع. في أحد الأيام وأثناء مرور

سيادته رآه، سأل الجواهري الذي كان يلازمه، يمشي دائماً إلى يمينه.

«من هذا؟».

«عباس الشبراوي ..».

«مع من يعمل؟».

«مع الإدارة القانونية».

«لا .. أنقلوه إلى الحسابات».

يبدو أن الجواهري لم يعرف موقفه بالضبط فأجاب طبقاً للإدارة التي تقع بالطابق، لكنه بعد أن استفسر فوجىء أن الشبراوي لا يمت إلى المؤسسة بصلة، ولأنه لم يخف أمراً قط عن المؤسس طلع إليه، أصغى سيادته ثم ضحك، تلقى الأمر ببساطة قال:

«إذن اعتبره معيناً .. المهم أن يقبل».

وإذا كان الشيء يُذكر بنقيضه فلا بأس من ذكر نادرة تُروى عن سيادته، إذ حدث أثناء تفقده لأحد أجنحة المؤسسة أن انتابته حالة غضب عاصف، صاح.

«أنت مفصول ..».

قال الشاب حديث التخرج.

«لكنني غير مثبت ..».

لوّح ـ رحمه الله ـ بأصبعه الشهيرة التي هابها الكبير قبل الصغير.

«إذن .. عينوه وافصلوه ..».

قام الجواهري بتنفيذ الشق الأول وتحدث في الثاني، أشار إلى ذكاء الشاب، والخطأ غير المقصود، والمستقبل، تغاضى سيادته عن الفصل، بقي الشاب في المؤسسة، أصبح مسؤولاً عن العلاقات

بسائر الموانىء، في مصر، وجميع أنحاء العالم، أوتي ذاكرة عجيبة حتى أنه ألمَّ في فترة قصيرة بكافة المعلومات المتاحة عن الموانىء، غاطس كل منها، وعدد الأرصفة المتاحة، وأماكن التخزين، وأسماء المتصرفين في شؤنها، عد حجة في ذلك. رعاه الجواهري كثيراً ولكنه لم يُعمر طويلاً إذ وافاه الأجل بعد تناوله قرص دواء يخص أمه على سبيل الخطأ. لم ينقذه علاج مكثف لمدة أربعة أيام في معهد السموم. حزن عليه عطية بك.

وجوه عديد عبرت أو أقامت مدداً متفاوتة، غير أن القول الذي تردد كثيراً على الشفاه أن المؤسسة فتحت بيوتاً، وأن كثيرين من أبناء العاملين مدينون لسيادته، لولاه لما أصبحوا أطباء ومهندسين وأخصائيين في علوم شتى، هؤلاء ما كان ممكناً لهم أن يفكّوا الحرف لولا المنح التي رصدها سيادته، وتشجيعه أبناء الفقراء خاصة. بعد صدور القرارات التي تمّ بموجبها إحالة السعاة القدامى إلى التقاعد، وإخلاء المؤسسة منهم بطرق شتى، ترددت أقاويل عديدة ـ وهذا شأن تكرر كثيراً مع صدور القرارات ـ منها كثرة عددهم، حتى زعم البعض أنه لا يوجد إحصاء دقيق بهم، وأن بعض من أقاموا سنوات يحملون الرسائل وأكواب الشاي وفناجين القهوة لم تكن لهم أي علاقة رسمية بالمؤسسة، بعضهم مطلوب للعدالة، وآخرون تجسسوا على أدق أسرار القرارات ونقلوها إلى منشآت أخرى.

ليس باستطاعة أحد تحديد مصدر معين لتلك الحكايات والوقائع التي تنتشر بسرعة عقب كل قرار يصدر، أو تحول يجري في النظم والمعاملات. البعض يرددها بتلقائية غامضة ظناً منهم أن ذلك يرضي القيادات العليا. وآخرون يتظاهرون بتصديق ما يقال ويضمرون خلاف ذلك. تزايدت كثافة التفاصيل عقب ما جرى

للسعاة، وطال بعضها المؤسس نفسه، بل ألحقت به ما بدا مصدماً، متناقضاً تماماً مع كل ما قيل وبدا ثابتاً. مثال ذلك اعتقاد سيادته بساعٍ من الصعيد اسمه جودة الضبع.

كان أبا لثمانية، أربعة ذكور وأربع إثاث،. كلهم أنهوا دراستهم الجامعية، كان الضبع ملازماً لمقام الإمام الحسين، يكنس أرضه، وينفض تراب أبسطته ويطوف بالضريح قبل الغروب وبعد صلاة الفجر، يرفع صوته أحياناً بالدعاء أو يتمتم بما يعسر فهمه أو التنبؤ بمضمونه. كثيراً ما شوهد المؤسس يقف أمامه كالطفل أمام والده، أكد البعض أنه لم يتخذ قراراً إلاّ بعد نوال بركته، ولم يسافر خارج البلاد إلاّ بعد استشارته، وكم ألغى مهام كانت مقررة أفقدت المؤسسة فرصاً هائلة للاستثمار، والسبب كلمة أو إيماءة من الضبع.. هذا هو الرجل الذي كان اليابانيون يحسبون له حساباً، والأميركيون يسعون للتقرب منه، والروس يحاولون التأثير عليه..

بمعنى آخر غير معلن، تلك حقيقة المؤسس الذي تحاك حوله الأساطير، يعلق الجواهري:

«حرام والله حرام ..».

أو يردد مقهوراً، مغموماً:

«حسبي الله ونعم الوكيل ..».

كان يتابع اختفاء السعاة من المؤسسة، وقيام السكرتيرات بإعداد الشاي والقهوة، وتخصيص أماكن معينة لشربها في كل طابق، ومنع دخول المأكولات من الخارج تماماً، إلاّ أن المؤسسة شهدت ظهور شخصين يمتان إلى الطابق الثاني عشر، لا يمكن اعتبارهما سعاة، ولا يمكن إدراجهما بين الموظفين.

الأول أكبر سناً، تجاوز الخمسين، عريض الكتفين، مدبب

الذقن، أفطس الأنف، أمامي النظريات، مشيته عسكرية إلى الأمام والأخرى إلى الخلف، خفيف الخطى، يسري ولا يمشي، يظهر فجأة أمام من يقصده، لا يفعل أي شيء سوى تسليم تلك المظاريف زرقاء اللون التي تحمل شعارات المؤسسة، ولا تحتوي إلاّ خطابات يكتبها سيادته شخصياً على ورق أخف زرقة وتحمل توقيعه بالحبر الأسود، أما الرسائل نفسها فمكتوبة بالحاسب الآلي الخاص به.

لم يعرف للرجل اسم، كما أنه لم يتحدث إلى أحد، ولم يبتسم مرة، ولم يعلق على أي قول سمعه، وشيئاً فشيئاً أصبح له اسم متداول خفية، «الطويل» قياساً إلى الآخر «القصير»، إنه أكثر شباباً، ربما في الخامسة والثلاثين، بعينيه جحوظ خفيف، وشفتاه مفرجتان دائماً، كأنه يعاني صعوبة ما في التنفس.

إن الأوامر والقرارات والإرشادات المختلفة تبلغ الآن بطرق شتى، وبوسائل حديثة جداً، لكن مجرد ظهور «الطويل» أو «القصير» القادمين من الطابق الرئاسي، مجرد وقوف أحدهما أمام أي مسؤول، مهما كان مستواه المؤسسي، كفيل برفع سرعة النبض، وزيادة إفراز القلوب لمادة الإدرانيل، والخشية مما سيقع ويحدث..

الى الطابق الرئاسي ..

بعد اسبوعين من صدور القرار الذي انتظره العاملون، والمتصلون، وأرباب الحاجات، وترتب عليه نتائج عديدة مؤثرة في السياق، بدأ عبده النمرسي يهدأ ويستقر لأول مرة منذ تولي سيادته. راحة لم يعرفها بسهولة، إنما بعد جهد وكد كديد. فحص ملفات عديدة، استقصى واستفسر، أحياناً بحذر، مرات بالتصريح، التقى برجال أعمال وأصحاب مشروعات في مدينتي السادس والعاشر، وعاملين في المناطق الحرة، وخبراء جمارك، ورجال أمن سابقين، وآخرين في الخدمة، ومندوبين لمؤسسات غامضة، ومقدمي برامج إذاعية، مسموعة ومرئية، وقوادين محترفين، وعاهرات مسجلات، وموظفات في بنوك أجنبية وشركات سياحية، ممثلات ذائع صيتهن وأخريات ما زلن في الظل، وأصحاب شقق مفروشة، ومديري فنادق بالبحر الأحمر والساحل الشمالي، ومسؤولي حجز بمكاتب طيران وفنادق مشبوهة. أمضى ساعات طويلة في الأرشيف المركزي لصور المؤسسة. يفحص، يتمعن، يقارن ويستنتج. غير أن منطلقة ومفتاح بدايته تلك الصورة.

بعد إمساكه بها، وقوع بصره عليها، تأملها لساعات متتالية مستنفراً أدق ما في ثنايا خبرته، محاولاً إحياء اللحظة المحنطة بالظلال وضوء شاحب، ليس من أجل إدراك ظاهرها، إنما للنفاذ إلى ما تخفيه الملامح، إلى الدلالات الكامنة التي يصعب على الماثلين في الصورة النفاذ إليها. فما البال بالمتفحص من بعيد؟

إنه هادىء الآن، لم يخنه تقديره قط، لذلك لم تفلت منه امرأة، كل من سعى إليهن استجبن، المهم.. معرفة المدخل الصحيح، بعضهن صارحنه أنهن كن ينتظرنه، كم من منيعات، محصنات أصبحن عجينة لينة مطواعة في يده.

الصورة منحته الإشارة. لم تكن إلاّ تسجيلاً لاجتماع ما، عقد في زمن معين، في المقر الأصلي عندما كان سيادته مجرد موظف في قسم الحواسب الآلية محدودة الطاقة والسعة. البيانات المدوّنة على ظهرها لا تتجاوز سطراً.

فقط .. مكان الاجتماع وزمنه.

لم يهتم، لم يتوقف عند تفاصيل صغيرة يمكن أن تعوقه، ما تمهل عنده طبيعة البصة، نظرة سيادته إليها. ناضحة بالرغبة، فياضة بالشهوة المكتومة.

إذن .. هي.

صفية الأبنوبي.

صفية الهيفاء، الغامضة، المتكبرة. المنيعة.

ليبدأ العمل باتجاهها.

لو قام بتدوين ما أتبعه من خطوات، وتسجيل ما سلكه من دروب، وما أبداه من تفنن ومحايلة سيكون مثار إعجاب للأعداء

قبل الأصحاب، يوماً سيفعل، سيؤكد للجميع أن القوادة فن وعلم.. موهبة!

تأكد قبل كل شيء من انعدام لقائهما، سيادته حريص على إحاطة تحركاته بالكتمان، خاصة ما يتصل بحياته الخاصة ونزواته، لا يعرف أحد ملامح امرأته، يُقال إنها ليست مصرية الأصل، أمها أو أبيها، أحدهما أجنبي، أنجب صبياً وفتاة، الولد في الجامعة الأميركية الآن، أما البنت فماتت وهي دون الرابعة عشر في حادث غامض لم يطلع أحد على حقيقته حتى الآن، ويقال إنه كان متعلقاً بها، وأن سبب حزنه البادي فقدها المبكر، طوال مدة خدمته الماضية كان معتزلاً، بعيداً عن التناول، لم يجتمع بإحدى العاملات على انفراد، ولم يتبسط عبر الهاتف مع إحداهن، أما سكرتيرته انتشار القليوبي فتبدو مستنفذة لمخزونها الأنوثي، صارمة، وإن كان عبد النمرسي يستهويه مثيلاتها، ويقسم أن هذه الجهامة، وذلك الجفاف يمكن أن يسفرا عن أنغام لا قبل لسمع بها إذا ما عزفت الأصابع بمهارة على الأوتار الخفية!

كان ممكناً لشغفه بالنساء أن يبقى سراً، لكن.. تلك البصة كشفته، بل أنها حددت الوجهة، وسرعان ما بدأ العمل. يوماً.. قال عم جويلي أقدم السائقين إن كل شيء ممكن في المؤسسة، وإن كل شيء غير ممكن أيضاً.. المهم، معرفة التوقيت والظرف المناسبين لإثارة هذا المطلب أو إبداء ذلك الغرض. عم جويلي كان يقصد ظروف العمل، غير أن قوله هذا ينطبق على المرأة أيضاً، هذا ما تؤكده تجربة النمرسي.. المهم، إدراك الظرف الملائم، موهبته الحقيقية تتلخص في الإمساك بتلك اللحظة المؤاتية.. لهذا.. لم يخب قط. يعرف ما يُقال عنه، ما يدبر أحياناً ضده، لكنه لم يهن، لم ينثن، يعرف رجالاً كثيرين في مستويات مختلفة، داخل

المؤسسة وخارجها، يودون سلوك دربه، أن يقوموا بما يُقدم عليه. لكنهم جبناء، قناعته راسخة أن داخل كل منهم قواداً متيناً بدرجة أو بأخرى، لقد تعلم من هذا الأكاديمي المهيب، أستاذ معروف للتاريخ، يكتب في الصحف والمجلات، ملامحه في الصور هتلرية، وهو أول من يوجه الأسئلة إلى المستويات العليا من القيادة السياسية، أسئلة متفق عليها مسبقاً، وإثارتها للإجابة عليها مطلوبة لأغراض وأهداف قومية، غير أن هذا الأكاديمي العتيد. تقرب إلى أصحاب الشأن بمن فيهم قيادات المؤسسة بأسلوب يصعب رصده. أو نسبته إلى فنون القوادة، ذلك أنه كان يكلف تلميذاته الجميلات، المتميزات، بإجراء بحوث تقتضي مقابلات شخصية مع مسؤولين كبار في المواقع الحساسة، أو ساسة قدامى لعبوا أدواراً هامة ثم تفرغوا للتجارة والأعمال الحرة، كان يؤكد دائماً على أهمية الوثيقة للمؤرخ، خاصة إذا كانت الوثيقة حية، متاحة، فينبغي اللقاء بها.

من الأكاديمي أستوحى النمرسي خطته.

سيادته يرغبها، أمر لا شك فيه، ما يحتاج إليه غطاء، على الأقل في البداية. هنا.. يبدأ دور عبده النمرسي، إنه مُعد. متأهب، مُيسر. قادر دائماً على إيجاد الوسيلة، إن متعته الحقيقية خلال تلك المرحلة. لكن.. من هي؟

وضعها غريب من خلال ما ألمَّ به، كل أنثى جميلة، مرغوبة تتردد حولها حكايات وإشاعات، معرفة الحقيقي من الزائف مرهق ويقتضي جهداً غير هين.

صفية متزوجة .. وليست متزوجة!

كيف؟

منذ سنة ونصف عقد قرانها في نادي تابع لجهة أمنية سيادية، مطل على النيل عند المعادي. زوجها متخصص في صيانة آلات الحفر والتنقيب عن البترول، وله إضافة هامة مسجلة باسمه في سجلات الاختراع بروتردام، يعمل في صحراء دولة الإمارات، شركة نفط أميركية، مرتبه مرتفع، لا يُنفق منه إلاّ القليل، إقامته وتكاليف معيشته مجانية، أسرته ميسورة، والده مستشار متقاعد ممن عُرفوا بنظافة اليد وخلو السجل، بل إن بعض مواقفه تدرس لطلبة كلية الحقوق بجامعة عين شمس. يعني ذلك عند النمرسي أنه لم يجمع ثروة. الحقيقة أنه خرج وليس لديه إلاّ الستر، معاشه الشهري وإيراد بيت قديم ناحية المطرية آل إليه بالوراثة، صيانته واستهلاك كهرباء المدخل والسلم تكلف أكثر من دخله، كيف التقى ابنه بصفية؟

هذا ما لم يتأكد منه النمرسي، لم يهتم، لكنه لو رغب وصمم للتوصل إلى ما يريد، غير أن ما تجمع لديه من معلومات جعله يحن ويتعاطف مع هذا الشاب الذي لم يلتق به، وربما لن يرى وجهه أبداً. لكم رأى ولكم سمع، نساء متزوجات وأرامل بلا حصر، ينسى ملامح بعضهن الآن رغم أنه عاينهن وهن متجردات تماماً من ملابسهن، تأملهن على مهل في أقصى درجات الخلوة، أصغى إلى تفاصيل عجيبة، إحداهن كانت لا تقدم إلاّ على إغواء معارف رجلها، أرملة تبحث عن أصدقاء الراحل ولم يمض عليه بعد أسبوع واحد، أخريات دفعتهن ظروف العيش الصعب إلى التعري في فراش غرباء تماماً عنهن. عرف أزواجاً سليمي النية، لم يخطر لهم قط بعض ما يجري خفية عنهم، أما النزوات والعادات فبلا حصر، رغم ما عرفه إلاّ أنه أشفق على هذا الشاب المغترب في صحراء العرب، لا يمر شهر إلاّ وتتلقى صفية هدية ثمينة، زجاجة عطر

نفيس، ملابس أنيقة تحمل علامات بيوت فرنسية شهيرة، أما أقل حجر كريم فمرصع بزمرد أو ياقوت نادر أو ماس برلنت، إحدى زميلاتها أحصت عشر قلادات وسبع أساور ظهرت بها في أقل من شهرين، هذا ما تجيء به المؤسسة نهاراً، فبأي حُلى تتزين ليلاً؟ أما الملابس فكلها مستوردة من بيوت الأزياء الشهيرة بفرنسا وبلجيكا، الفستان لا يتكرر ارتداؤه أما الأحذية فأشكال وألوان. لا يكف عن إرسال الهدايا عبر البريد وبواسطة المسافرين، وشركات البريد، السريع المضمون الدولية.

صفية كانت واضحة، حازمة منذ البداية.. سفر.. لا، لن ترحل لتعيش بالقرب منه أو معه، رغم أن وجودها معه سيضاعف مخصصاته، ولن ترهق نفسها أبداً، كل شيء متوفر، لن تشعر بملل، بضيق، عدد كبير من زملائه اصطحبوا عائلاتهم معهم، بعضهم عقد قرانه غيابياً، ولم يلتق بعروسه إلاّ في المطار عند وصولها بثياب الفرح.. سيرعاها مثل نن عينه.

لا .. لا يمكنها قضاء يوم واحد هناك في أي وضع كان. ليعمل هناك. ولتبق هنا، حتى يكوّن المدخر المعقول الذي يؤمن لهما حياة رغدة، أما لقاءاتهما فلتكن خلال الإجازات، في عواصم ترغب في زيارتها أو يتمنى هو الإقامة بها، منذ عقد قرانهما لم يمضيا في مصر إلاّ ليلة الدخلة ثم سافرا إلى باريس ونيس ومونبلييه، التقيا في استانبول خلال الربيع، وفي مدريد صيفاً، وفي تونس منذ شهر واحد، إجازته أمضاها معها بعيداً عن مصر. يلتقيان في مطار ويفترقان في آخر، هو إلى الصحراء، وهي إلى عملها، إلى المؤسسة، تردد على مسمع منه ومن الآخرين أنها تحب عملها ولا ترضى به بديلاً، وأنها تمضي بخطى واثقة، ثابتة إلى ما تريده.

ماذا تريد بالضبط؟ ولأي غاية تخطط؟

هذا ما لم يعرفه زوجها، ولا أحد من معارفها، ولا النمرسي نفسه، امرأة صعبة.

يبدو هذا الشاب المغترب مجتهداً، طيباً، هائماً بها، وبالتأكيد ضاجعها بخياله أكثر من الواقع. قالت لصاحبة مقربة لها في النادي أثناء مشيهما حول الملعب أنها لم تسمح له بالعبث في نهديها، لم تمكنه من مس حلمتيها، تحرص على صلابتهما، واستقامتهما، تخشى ترهلهما، ثم إنها نفرت من رضاعته لهما، كأنه ما زال صبياً لم يفطم بعد، وعندما حاول احتضانها أثناء النعاس لم تطق ذلك، تخلصت بلطف، شرحت عاداتها عند النوم، تفضيلها الوحدة عند الاستغراق في السبات، لو شعرت بأنفاس تتردد على مسام جلدها تفزع، تأرق، قالت إنه من الأفضل أن يتعرف كل منهما على عادات الآخر حتى لا يقع نفور.

قالت إنها لم تسمح له إلاّ بوضع تؤثره أثناء المضاجعة، ليست لديه خبرة، لكنه بالتأكيد رأى أفلاماً جنسية في غربته، أظهرت الحشمة، وعندما رغب في الوضع الخلفي أبدت فزعاً، وقالت إنها لا تتصور ذلك، وأنه لا يمكن إلاّ من حيث أمر الله، قبّل يديها وأقسم أنه لم يقصد، ولم يفعل ذلك في حياته، وأن هذا الوضع طبيعي، بل إنه الأصلي، وعندما طلب مشاهدة شريط يثبت ذلك، رفضت بحدة، وقالت إن هذه الأفلام مبتذلة وتصيبها بالغثيان.

الحق إنها لم تتجاوب معه، لم يستطع فض بريدها، أو قراءة شفراتها السرية، لم يقلب كوامنها، ما إن يبدأ حتى تتمنى فراغه بأقصى سرعة، مع أنه حرص دائماً على إرضائها مع متانة تتمناها أي أنثى مجربة، لكن.. ماذا تقول؟ لا تطيق اقترابه منها، لم تشعر بنفسها معه.

أقنعته بضرورة نومهما منفصلين لأن ذلك صحي أكثر، استجاب لها، لم يناقشها، لم يجادلها، لم يسمعها لفظاً خشناً، بالعكس واصل التقرب منها، والإكثار من هداياه وتحويل المبالغ اللازمة لفرش شقتهما في المهندسين، ما تزال في مرحلة الإعداد وبعض مكونات الأثاث والحمام سوف تستورد بالطائرة.

ما تجمع عند النمرسي أثاره وأدهشه، ساعده في دفعها إلى الطابق الرئاسي. تماماً كما دبّر وخطط.

استوثق من تاريخها السري، تأكد من إقامتها عبر ثلاث علاقات في وقت واحد وهذا غريب!

الأول: فنان تشكيلي يتخذ مقراً له في وكالة الغوري، مولع، موله برسمها، يعتبر جسدها الفاره نادر التكوين، بمطالعه الخصبة، ومنازله المرتوية، ونحول منتصف مسافته وأستداراته المذهلة، إحدى لوحاته تبرز صدرها المستنفر الأشم تستقر في مدخل سفينة سياحية خمس نجوم ترسو في أسوان، يكن لردفيها هياماً فرياً، يمرغ وجنتيه بتكوينهما الربراب، وفي إحدى العصارى قام بتلوينهـا مستخدماً درجات نادرة تحاكي ألوان الغسق.

الثاني: مضيف في شركة أجنبية للطيران، يراها لسويعات عند مروره بالقاهرة، تعرفت إليه أثناء عودتها من أزمير واستانبول، تلبي دعوته بمجرد سماع صوته حتى لو كـانت تؤدي واجب العزاء في مأتم، أو التهنئة في فرح.

الثالث: دبلوماسي يعمل حالياً في السفارة المصرية بموسكو عاصمة روسيا الإتحادية، مكانهما المفضل، شقته بثكنات المعادي، غاب عنها أن الضاحية المفضلة لسكنى الأجانب عامرة أيضاً بالشرطة السرية، وجهات رقابية سيادية، إضافة إلى كوادر أجهزة المخابرات الأجنبية.

ما لم يلم به النمرسي الفروق الدقيقة بين العلاقات الثلاث. ماذا يجري خلال اللقاءات المغايرة؟ كيف تبدو الاستجابات؟ أي عبارات تلفظ في ذروة الخضم؟

يتمنى أن يسمع منها يوماً .. الإصغاء إلى أنثى جميلة تبدو منيعة أمر ممتع، كان متئداً، حذراً في تقربه منها، لكن الأمور مضت أسرع مما قُدر لها.

صفية تستقر الآن في الثاني عشر، متمكنة، الدنو منها مخاطرة. صحيح أنه هو من سعى، لكنه حرص على ألا يُكثر من الظهور أمامها، أو الاتصال بها، أو ممارسة أي ضغط قريب أو بعيد على أساس أنه يعلم، القواد المتمكن من يعرف متى يظهر، ومتى يتوارى.

جمع بينهما عندما طلب منها الاجتماع بسيادته وإجراء حوار معه ينشر في المجلة الفصلية التي تصدر عن المؤسسة بلغات ثلاث، صعدت ملبية لتمضي ساعة على الأكثر ولم تنزل، طبعاً الحوار لم يتم. دوره بدأ عندما اكتشف رغبته الخفية، وأنتهى عند الجمع بينهما. يعرف حدوده، الاقتراب من النار يلسع، صفية لهبها مهلك، أصبحت من أولئك المستقرين في المقاعد الرئاسية الدوارة، يحتاجون إلى هذا أو ذاك من البشر. وبمجرد حصولهم على ما

يريدون لا يطيقون النظر إلى من سعوا لإرضاء نزواتهم، مهما عظم الثناء فإنه يحذر لحظة يتغير فيها الخاطر عليه. يصبح مكروهاً، ممقوتاً، يعرف تماماً الفرق بين لهجة محدثه قبل دخول غرفة النوم والانفراد بمن يشتهي، والحال بعد انتهاء الخلوة، تحوي ذاكرته معالم وجوه عديدة قبل وبعد، ما يعرفه من تفاصيل وثنايا لا يتصوره أحد، كثيرون إذ يهدأون يبدو عليهم حزن وضيق، يخرجون بسرعة إلى الحمام وعلى عيونهم غشاوة مغايرة، آخرون تتفجر الشقاوة من مآقيهم، ويعبثون بكل ما تطاله أيديهم. يصفقون ويرسلون القبلات إليه. يبتهج لمرأى أمثالهم غير أنهم قلة.

لا يدري طبيعة التعبير على وجه زوجها المغترب لحظة اقترابه وعند ابتعادها عنه، مسكين.. لا ينال لمسة نهد، لو أنه رأى بعضاً مما يجري بينها وبين صاحبها الرسام لذهل وانشق عن كينونته، بعض مما يدور بينهما يتجاوز بكثير أي فيلم ممعن في الشذوذ يراه سراً في الصحراء.

يعجب النمرسي لهذا التعلق، يرثي لصاحبه، وإن اكتشف بعد الإمعان شبهاً بينهما، ما دفعه إلى خطب ودها واقتران جمالها، قال لوالده المستشار القويم إنها مشرفة أمام المجتمع، والظهور بصحبتها مثير للزهو، لافت!

لافت لمن؟

للآخرين طبعاً.

ألا يعني ذلك ضمناً درجة من فن القوادة؟

يعرف رجالاً كثيرين مراكزهم تخض، ومظهرهم يثير رهبة سعوا إلى ارتباطات بهذا الدافع، يغض بعضهم الطرف عن نظرة راغبة أو دعابة مستترة لتمرير مصلحة، وعند لحظة معينة يتعامى

عمداً، وفي حالات عديدة تشحب النخوة مع مرور الوقت.

لكم تمكن من جميلات، منيعات، أستعصين على رجال أشداء، أثرياء، يملأون هدومهم تماماً، لكنه لم يضاجعهن إرضاء لرغبة، إنما لتطويعهن وتليين العصيات منهن، متعته التامة في جمع طرفين متباعدين، ثمّ الوقوف على ما يجري بالنظر إذا أتيح ذلك سراً، أو بالإصغاء وبالذات إلى رواية الأنثى. تعنيه العبارات التي تُلفظ عند بداية لقاء اثنين يجهل كل منهما الآخر، والكلمات والجمل التي تُقال عند بدء الضم والتقبيل ثم أثناء خوض الخضم، أما ما يخرج من أفواه النساء المتمكنّات حقاً عند قرب بلوغهن الذروة فأمر عجب! يعرف فندقياً لبنانياً أنشأ وصلات كهربائية تتصل بسماعات دقيقة للإصغاء إلى ما يجري.

احتفظ بصلات حميمة مع بعض من أستدرجهن ودفع بهن إلى أحضان من يجهلن، الغريب.. أن كل من تعامل معهن حملن له تقديراً ومعزة، يتفاوت الأمر من أنثى إلى أخرى، خاصة اللواتي لا يفهمن من البداية ثم يصدمن عندما يدركن أن سعيه الحثيث إليهن لم يكن إلاّ جسراً يعبرنه نحو آخرين، لكنهن في النهاية يبدين له الود، بعضهن يأنسن إليه، يفضين إليه بأدق أسرارهن، مهما أبدين الجفوة، وبقدر تقلبه وتنوع علاقاته، فلم يعرف وهجاً داخلياً مثل ذلك المنبعث من عاهرة تجاه رجل تخصه وتؤثره. لكم عرف منهن كشوفات من الشهامة والإخلاص، أكثر من بعض المتمكنات من واجهة المجتمع.. أي حظوظ؟!

إنه مُلم بما يقال عنه، لكنه لا يعبأ، ليس لأن وجهه مكشوف، إنما لإشفاقه على من لا يُدرك متعته التي يلقاها. يثق أن صفية ستنتهي إليه يوماً مهما طال مكثها فوق، ينتظرها معه برنامج حافل، معها يمكنه الوصول إلى ما لا يتصوره عقل، إنها متعددة الزوايا وما

عرفه عنها مذهل، مثير، وما خفي كان أعظم، فليتوقف لحظات عند الظاهر منها.

حالة خاصة هي؟

نعم ..

قوامها فاره، يسرح، لِوَنَة، لا يمكن تحديد مركز معين لجمالها، معظم من عاينهن أدرك نقطة معينة بمثابة بؤرة، صفية كلها محيط، حضورها ساطع، عيناها محددتان، فسيحتان، نظراتها دفاعية، متراخية، وإن بدت هجومية باستمرار، تدعي الجرأة، تخفي رغبة في الاستسلام لكن.. بشروط، ثمة كمون آخر، طاقة غامضة تجعلها مشعة باستمرار، مُلهبة للرغبة، محفزة للتوثب، أنوثتها ذات أريج إلاّ أن مساً ذكورياً يلوح، يتأجج تحت سطحها الناعم.

لن ينسى أبداً شابة مقطرة عرفها منذ سنوات، كانت تسكن حارة ضيقة وراء مسجد ابن طولون، فقيرة، مزدحمة.. حقاً.. سبحان منبت الورود من الطين، زهرة بحق، لا ترد على مخيلة إلاّ محفوفة بالنرجس والياسمين والسكر المعقود، تأخذه رعدة إذ يستدعي إنفراجة شفتيها.. فقط تطلعهما وتلهفهما. وذلك الضوء المستور الذي يسري عبرها، يتزايد مع تصاعد النشوة. كان اسمها ثريا بحق، غالبت الجوع والمرض والبنية غير المساعدة ونفرت متوردة، سخية، مودعة كل لحظة بهجة مغايرة.

لا يدهشه ذلك، عرف معوزات، مدقعات يتجاوز جمالهن كل توقع، خاصة زمن الفتوة والارتقاء، لكن.. لا يتحقق الاستمرار، سرعان ما يأفل. تماماً كريحان المقابر، سخي الرائحة لكنه قصير العمر.

لكي يصل إلى ثريا قطع أربعين ساعة من الجهد المتصل الموزع

على ثلاثة أسابيع، أما التمكن والتليين فاقتضى سنة كاملة، ثم بدأ غيره يستنشقها، مرة برقة، مرات بغلظة.

الحق.. أن هواه مال إليها، رغبها، حال نادر لم يعرفه إلاّ مرات معدودات، أول من تسلمها ثري عربي ذو مكانة، لم يبخل، غمره بالهدايا، عرض عليه وظيفة مغرية في بلده، مرتبها مرتفع لكنه اعتذر بلطف. صحبها معه إلى الإسكندرية وسر بها، لقي في جمال حضورها، ورقة مطلعها مع خشونة صوتها ما بحث عنه طويلاً.

إنه اجتماع الضدين، أما يداها فرآهما كما يرغب ويتمنى، أصابعهما نحيلة، مسحوبة، راحتاها مثل القطايف، ممتلئتين ناعمتان، قبّله بين عينيه قائلاً: أنت تعرف ما أبغي وكأنك شفت أفكاري، زين والله، زين والله.

غير أنه أراد منها أموراً لم تسمع بها قط، حتى في أدق حواراتها سرية مع نساء الحارة، لم تفض إليه بأي تفصيل، وعندما سألها النمرسي عما إذا كان أتاها من خلف، دفعته بأسى. قالت: إن هذا أهون ما حصل. تعجب النمرسي، لكنها لم ترض فضوله، تحملت واستجابت لحاجتها وأملها في إدخار صدفجي شاب يعمل بخان الخليلي، جدع وأمير وابن حلال، يهواها وتهواه، تريده ويريدها، يحاول جاهداً إدخال مبلغ يدفعه كخلو لغرفة تتبعها دورة مياه مستقلة فوق سطح مبنى من ثلاثة طوابق في درب الجماميز، فقط خمسمائة جنيه، بدرت لنفسها ما أقدمت عليه بعد تعرفها إلى النمرسي وثقتها به، قالت إنها بمجرد إمساكها بالمبلغ ستتوقف تماماً. لكنها لم تكف. ولم ترتبط بالصدفجي رغم أنها حصلت على أضعاف النقود وهدايا عديدة، أما الأسباب التي حالت بينهما فعديدة يطول شرحها.

ترى .. أين هي الآن؟

أين مرساها؟

ماذا فعل الزمن بها؟

كان لها وهج رغيف الخبز الطازج، الخارج لتوه من الفرن، أما خصوصيتها فمصادرها متنوعة، متعددة، نضارتها، حيويتها، صوتها وبحتها الخشنة، حور عينيها، بالضبط.. كأنها صفية!

رغم تعدد من قابلهن وأدارهن كاللولب في يده، إلاّ أنه يستعيد ملامحها، قويت عنده بعد رؤيته صفية، خشونة مع أنوثة، اجتماع الضدين في كيان واحد.

إنه سر توهجهما.

أنوثة فيّاضة، وفتنة شذاها ذكوري.. أي ندرة؟

في مواجهة مثيلاتها يبزغ فضول مصدره محاولة إدراك ما لا تلمسه الحواس، هوى كامن يصعب الافصاح عنه، تبدو صفية جادة، صارمة الخطى والنظرات، حريصة على مسافة بينها وبين الآخرين، غير أنها تخفي هشاشة تنهار عند أول اتصال بمن تهوى، فتنتقل من نقيض إلى نقيض.. وهذا عجيب، مثير.

في البداية توقع أنه من المحتمل نفورها من طلبه، إدراكها غرضه الحقيقي الخفي، لكنها أومأت مجيبة، محايدة. في اليوم التالي تطلعت إليه بحدة سافرة واستجابة فيّاضة، قالت إنها ستغادر إلى الطابق الثاني عشر لتكون المسؤولة عن العلاقات العامة لمكتب سعادته، منصب لم تعرفه المؤسسة من قبل، يسرها أن تشغله، إنه جزء من مجموعة إجراءات لتحديث الإدارة والانتقال إلى القرن الحادي والعشرين الذي أصبح على الأبواب.

تتعدد المواقف، تتنوع اللحظات، لكنه لا ينسى أبداً تلك الفاصلة، عندما استجابت لاقتراحه بطلوعها لإجراء الحوار، بسط يديه، خافضاً رأسه بميل، حركة تتضمن معاني عديدة، نصح واعتراض، وصية وأمنية ما، أتقنها وتفنن في إبدائها بما تحتويه من بداية سطوة.

حقاً .. مهما اختلفن، مهما تباعدت مستوياتهن الاجتماعية، أو اختلفت أمزجتهن تتشابه ردود أفعالهن تجاه تلك اللحظة، مهما بدا رد الفعل خافتاً فله أهمية عنده، ذلك أن البدايات تحدد نوعية المسارات وأحياناً النهايات. كما أنها إحدى مصادر متعته وزهوه الداخلي عند الانفراد، لحظة يعرفها كل قواد متين، عند الانتقال من التودد والتمسح والتحايل، من الترغيب أو الترهيب أو المحايلة إلى الرسوخ والتمكن، إلى ثبات أمره حتى وإن لم يقع التصريح علناً، له هنا تجارب عديدة، تذهل من يصغي إليها لو باح وأفشى.. لكنه كتوم بطبعه، لا يفشي إلاّ بقدر، وإذا أقدم فلغرض..

قال بهدوء المتمكن ..

«بعد غد .. إطلعي إليه الثلاثاء صباحاً ..».

قال «إطلعي»، أي إليه هو، إلى رجل بعينه، لم يصفه بسيادته، إنما نطق كلماته مجردة، محتوية على درجة من عدوانية وقصد الإهانة، هكذا..

لكم بذل جهداً ومشقة في استقصاء أحوالها، لكنه يعرف أن كل ما يقف عليه لا يضيع، لا يتذرى هباء، كل أمر وله وقته، وكل تفصيلة لها أوانها.

عندما أفضت إليه بوضعها الجديد، قابل تحديها بهدوء، لم يظهر انزعاجاً باعتبار وضعها الجديد يتضمن قدراً من المنافسة له،

بالعكس.. أوحى إليها أنها ستكون سنداً له في وضعها الجديد.

يمكنه الاطمئنان الآن، أن يرقب ما يجري، لكل مرة يجمع فيها بين اثنين متباعدين ظروف مغايرة، لا تتشابه تجربة مع أخرى، إنه يغلق المكتب، يغمض عينيه، ترى.. ماذا يجري فوق؟

هل يعيدالرئيس الجديد عصر المؤسس عندما كان يمارس الخنس خلال ساعات العمل، وله في ذلك نوادر وحكايات ما تزال تتردد في المؤسسة. ترتفع كتفا النمرسي، بينما تغوص رأسه بينهما حتى يلامس ذقنه صدره، تتشابك أصابع يديه، يتخذ حضوره وضعاً كروياً. يتخيل أوضاعاً شتى، واستجابات تتناسب مع هيئتها. كاذب من قال إنهن يتشابهن في العتمة، هذا قول جاهل بجنس الإناث، كل منهن كون قائم بذاته. حقاً.. لكم رأى وسمع غير أن متعته في تخيل ما يجري.

نادرات اللواتي حركن رغبته، يجب أن يعترف بفيض صفية عليه، هذا القوام الفاره، وذلك الانفجار المفاجىء أسفل ظهرها، المستمر، المتحدي، السافر والذي يشد أخمص بطنها. إن رؤيته متجرداً متمدداً، مستسلماً، ممهداً لأمر يستحق المخاطرة.. لكن، ليحذر، ألا يتمادى حتى عبر أفكاره غير المنظومة. بل لينتبه، وليتقص الأخبار من بعيد كأي غريب.

الحق.. أن رسوخها وتمسكها بسرعة أثارا إعجابه ودهشته. دخولها الصباحي من البوابة الرئيسية علامة، ولحظة مؤسسية هامة، يتردد صداها في المبنى كله، تتجه مباشرة إلى المصعد الخاص الذي يتوقف مرة واحدة فقط.. فوق.

بعدأربعة أيام من تسلمها مهام منصبها الجديد فارق الاشموني مكانه، تقدم بتؤدة، متزن الخطى، صحبها مرحباً..

«صباح الخير يا هانم ..».

تقدمها بخطوتين محسوبتين لهما معنى وأعتبار مفسحاً الطريق وهذا لا يحدث إلاّ مع كبار الزوار. فتح باب المصعد وأنحنى ثم أغلقه، لم ينصرف، إنما انتظر حتى انطفاء الضوء الدال على وصوله.

عندما أنهى البعض ما جرى إلى الجواهري في مجلسه بمقهى رشيدة السويسرية وقعت داخله هزة مع أنه ظن تعايشه وأعتياده نزول الدواهي.

الأشموني يفتح الباب لهذه البنت!

أمر فيه قولان، إذ جرت العادة على إبداء هذا التصرف لذوي المكانة وعظماء الرتبة، أولهم المؤسس. الثاني.. هوان الأشموني نفسه ونزول قدره. إنه من العلامات، أمره معروف مثل عم صديق النوبي، وحسان الحلاّق وغيرهما، بل إنه الوحيد الباقي، والمحزن أنه لم يتلق أمراً أو توجيهاً إنما أقدم على ذلك تلقائياً، بدون توجيه، لكن الأشموني يُدرك مسار الريح، يعرف ما يجري داخل الغرف المغلقة من موقعه المتقدم، حقاً.. لكم رأى وسمع، مر أمامه حفاة، شبه عراة. بعضهم جاء يستجير ويستنجد، ثم نفذوا إلى المؤسسة بطرق شتى، منهم ممثلون لها في الخارج ومن يتحرج بحرس خاص. ومن يودع أمواله في بنوك سويسرا، إنه يعرف دخائل العابرين من إيقاع خطواتهم، من إيماءاتهم، بل إنه رصد الموت متمكناً من بعض الساعين، الذين نال الوهن منهم وبدا البلى في خطواتهم وبان الفناء.

لكم رأى، ولكم أدرك وفهم.

مكانة صفية لم تعد خافية عليه، ما من أمر يبقى سراً، معروف

الآن دور النمرسي في صعودها، ترتيبه الظروف بحجة إجراء حوار إعلامي مع سيادته، لكن.. المهمة العابرة أصبحت دائمة. لم تعد انتشار القليوبي الصوت النسائي الوحيد المسموع في الطابق الرئاسي، بل.. يبدو واضحاً أنها تفقد نفوذها أو تتوارى عامدة، هي ملمة بكل كبيرة وصغيرة عن سيادته، سنوات أمضتها على مقربة منه، تقف على مزاجه وتحولاته وتقلباته، لم يشرب الشاي إلاّ من يدها، تعده في مكتبها، تدخل في اللحظة المناسبة لتوقفه عن تدخين السيجار إذا تجاوز الأنفاس التي حددها له الطبيب. المؤكد أنه لم يقربها، لكن الموثوق به أنها تهيىء بعض الظروف اللازمة لتسهيل علاقاته بأخريات، إنها الملمة بكافة التفاصيل عنه، المتفهمة لمزاجه، المتوقعة لتقلباته وقراراته المفاجئة، تمت إليه بصلة قرابة لكن إختلف حولها. صفية أيضاً لم تبادر بإظهار عداء من أي درجة، انتشار لم تطمئن إليها، إنها ساعية إلى نفوذ، سيادته بالنسبة لها وسيلة، في لحظة معينة بدأت انتشار انسحابها الهادىء، تعرف التوقيت الملائم لابتعادها، لم تبدِ أي احتجاج، أو ما ينم عن ضيقها، بل أطلعتها على كل ما طلبته من معلومات، وما لم تحط به علماً ويسهل إقامتها في الطابق الثاني عشر، لكنها أخفت أموراً أخرى بالطبع، لا يمكن أن تفض مغاليقها إلاّ بأمر مباشر من سيادته، بل.. وكتابي في بعض الأحيان.

يوماً بعد يوم، بدأت أمور عدة تتكشف للأشموني من خلال رصده لأمور تبدو ضئيلة جداً غير ذات أهمية بالنسبة للآخرين، من توجه النظرات، من توالي الخطى، من الملامح، من إطراقة الرأس، شتان.. ما بين دخول صفية الآن وظهورها من قبل، عندما كانت تقبل مترددة، متمهِّلة، قصيرة النفس، تتجه إلى ساعة التوقيعات، تخرج قلمها، تبدو مرتبكة، عيون كثيرة مصوبة إلى قوامها.

تتحسس ردفيها، تشتهي حضورها، سطوعها، تمسك المقبض بيد وتوقع بالأخرى، ثم.. تنتظر دورها في الطابور أمام المصعد.

الآن.. لا يجرؤ إنسان على إطالة النظر إليها، يُفتح باب المصعد بمجرد اقتراب العربة المخصصة لها أخيراً، يابانية الصنع، يتكرر الإعلان عنها مؤخراً في الصحف الأسبوعية وعقب نشرة الأخبار المسائية. تمّ شراء ثلاثة بالأمر المباشر الفوري، وقّع عليه البروفيسور بتعليمات فورية من سيادته، ثم اتصل بها وأبلغها باسم السائق، استفسر عما إذا كان لها طلبات معينة فأوصت بتلوين الزجاج، وفاصل بين المقعد الخلفي والأمامي يرتفع تلقائياً باللمس. قال البروفيسور إنه بذل جهداً حتى حصل من المرور على لوحة ذات رقمين فقط، ومثلها يحتاج إلى تصريح من أعلى قيادة مرورية، كل من له إلمام بالأعراف غير المدونة يدرك أن مثل هذه المركبة تمت إلى ذي حيثية.

يخشى الأشموني إنعكاس دهشته على ملامحه، رغم أتقانه الكتمان والظهور بخلاف ما هو عليه، لكنه لم يرَ رجلاً أو امرأة، تولى السلطة من قبل في أي درجة وظهرت عليه أعراضها بسرعة مثل صفية. بعد أيام ثلاثة فقط بدت وكأنها مولودة في الطابق الثاني عشر، كأنها رضعت أسرار المظاهر والكوامن الرئاسية منذ صغرها.

خطواتها الآن أقصر، أسرع، إلتفاتاتها أقل، ألفاظها شحيحة، تومىء، تشير بسرعة، لكن في حسم وقوة، شيئاً فشيئاً بدأت تحيط بها تلك الهالة الخفية التي تؤطر وجوه ذوي المسؤوليات الجسام، الغريب.. أن مظاهرهذا كله لم تكن مفتعلة، إنما بدت عتيقة، مؤصلة، النظر إليها تحفه المخاطر الآن، لم يعد الأشموني قادراً على

قنص بصة تحوي ردفيها المدويين لاستعادتهما عند بدء خلوته، بل إنه كفَّ عن تخيلها عارية أو في أوضاع تؤججه وتهدئه أيضاً.

خلال أيام معدودات لم تتجاوز سبعة تضاعف بريدها مرات، سواء الذي يتسلمه مكتب المؤسسة الواقع في الطابق الأول ويتناوب عليه منهم إثنان قدامى، أو الخطابات التي تسلم باليد إلى مكتب الاستعلامات الخفي، له مدخل خاص للحد من تردد الغرباء على المقر، وينبه الأشموني دائماً إلى الحس الأمني المرهف لدى المؤسس منذ زمن مبكر، بل إنه نبّه إلي ضرورة فحص الطرود خاصة والرسائل عامة. بالطبع تطور الأمر مع الزمن. ومع تعقد الأوضاع وظهور الجماعات الإرهابية، والتهديدات مختلفة المصادر.

الآن .. لا بد من المرور بمرحلتين، الأولى تأمينها بعد الكشف عليها بأجهزة خاصة تتبع جهاز الأمن المؤسسي خشية احتواء بعضها على مواد ناسفة أو أوراق مسمومة أو منشورات معادية، هذه الإجراءات المتشددة بدأت خلال العامين الأخيرين، ثم تزايدت وتعقدت مع ظهور التحديات الأصولية، وتضاعفت المهام، وتمَّ استيراد عدد غير معروف من البوابات الألكترونية، والأجهزة الدقيقة. لا أحد يقف بالدقة على تكاليف العمليات الأمنية، إنها غير معلنة وتحيطها سرية بالغة.

الثانية، مرور الخطابات على الأشموني أو أحد مساعديه أثناء غيابه للوقوف على علاقات العاملين، معظم البريد المسلم باليد يحتوي على رسائل عاجلة أو دعوات من شركات أو مؤسسات أخرى أو سفارات وهيئات دبلوماسية، لحضور حفلات استقبال أو معارض فنية، أو عروض سينمائية أو مسرحية أو موسيقية، كذا

حفلات الخطوبة والزفاف، ومظاريف مفتوحة تضم إعلانات عن سلع معمرة تباع بالنقد والتقسيط.

للأشموني خبرة طويلة، نادرة، يدرك من خلالها كنه الصلات، يتقن الربط بين العناصر الخفية، بل يمكنه استنتاج مضمون الرسالة بالنظر، كثيراً ما دُهش المؤسس ـ وخلفاؤه من بعده ـ للنتائج التي يتوصل إليها.

طوال السنوات الماضية لم تتلق صفية إلاّ أربع أو خمس دعوات، ثلاث منها لحفلات عُرس. واحدة توقف أمامها لكنه لم يُعرها إهتماماً ولم يتحدث إلى أحد بشأنها، دعوة لحضور افتتاح معرض لقطع غيار السيارات العاملة بالطاقة الشمسية، لماذا حفظ عنوانه بالدقي؟ لماذا لا يرد اسم صفية على ذهنه إلاّ ويتذكر تلك البطاقة، والطاقة الشمسية؟ لا يدري، ولا يمكنه القطع. للذاكرة أحوالها.

الآن، يصلها أكثر من عشرين مظروفاً أنيقاً يومياً، عشاء، خطوبة، زواج، عرض فني، عيد وطني تقيمه هذه السفارة أو تلك. من الصعب عليه ملاحقة كل ما يصلها الآن، بل إن بعض هدايا المؤسسات والسفارات بدأت في التدفق.

جرى هذا كله بسرعة أذهلته، رؤساء القطاعات المختلفة بدأوا يدركون أهمية وضعها، القرارات المؤثرة تمر من خلالها، بل يقال إنها بدأت تشارك في اتخاذها أو صياغتها على الأقل، تردد ما هو أكثر أنه منحها حق التوقيع بدلاً منه بالنسبة لبعض المستويات والمعاملات، وهذا ما لم يحدث من قبل.

إن حساسية القيادات عالية تجاه الأشخاص الذين يدخلون أو يقتربون من الدائرة الضيقة المحيطة بسيد الطابق الثاني عشر. صفية الآن في عين البؤرة. طبعاً جرى همس نائي، جد خافت، هل

يضاجعها فوق؟ هل يخلو بها في المكتب الدائري؟ معظم العاملين يجهلون محتويات الطابق بعد التعديلات التي قامت بها الشركة الكورية، يكفي أن سيادته يدخل ويخرج بدون أن يرصده أحد وهذا ما حيّر الأشموني وأرهقه واعتبره نذيراً بزوال وقته.

ما أثار قلق بعض القدامى أنها المرة الأولى التي تنفرد فيها امرأة واحدة بسيد المؤسسة، المتصرف في شؤونها ومصائر آلاف العاملين، صحيح أن المؤسس عُرف عنه عشقه الإناث. لكن علاقاته كانت متعددة، عابرة، عدا حبه الأول المعروف، لم يسمح باستقرار إحداهن قربه، كان يأتيهن وكأنه يقضي حاجة تؤرقه، رغم أنتماء من عرفهن إلى أرقى مستويات المجتمع، وبعضهن أميرات من العائلة المالكة، وأموره في ذلك معروفة، يطول تفصيلها.

لكن .. الأحوال تبدلت، ها هي امرأة شابة غامضة الأصول والمصادر، لم تبتكر جديداً، ولم تخطط لمشروع يضيف ربحاً، ولم تتقدم بوسيلة توفر بها الانفاق في مجال معين، موهبتها في ردفيها، صعدت بسرعة إلى الطابق الرئاسي لمجرد إعجابه بها، حتى جمالها لم يلق إجماعاً من الرجال أو النساء كماهو الوضع بالنسبة إلى هانم الدمياطية، الراسخة، متينة الفتنة، فيّاضة الأنوثة، يرى البعض أن صفية أطول مما يجب، وعندها عين أضيق من الأخرى، غير أن أحد العاملين القدامى سخر من الملاحظة الأخيرة وقال إن ذلك يعتبر من علامات الحسن، ويعرف عند العرب بالحور..

على أي حال.. صفية متمكنة الآن، تنهي وتأمر وتوجه وتوقع، وتبدي ملاحظات ترتجف منها شوارب متينة فرقاً، بل بدأت تتحدث إلى المؤسسة كلها عبر شبكة الاتصالات الداخلية، المسموعة والمرئية. تظهر في أوقات غير متوقعة على الشاشات المركبة في القاعات والمكاتب الرئيسية وغرف المقر والفروع التابعة

ومواقع العمل الثابتة والمؤقتة، والمنتشرة قبلي وبحري وفي عمق الصحارى حتى منطقة جبل العوينات قرب أقصى الحدود.

أحياناً يتردد صوتها عبر مكبرات الصوت الخفية، يسمعها الجميع تفضي إليهم بأرقام تحققت أو قرارات صدرت، أو تشغيل ماكينات مستوردة أو توزيع حوافز طارئة نتيجة عملية ناجحة أو صفقة تمّ التعاقد عليها.

الحق أن معدل صرف الحوافز تزايد بشكل لم تعهده المؤسسة من قبل. فسر البعض ذلك بإعلاء شأن صفية لكي ترتبط عند العاملين بالأخبار السارَّة، وقال آخرون إن الأوضاع المالية ليست بالإزدهار المعلن، وأن مصاعبَ شتى تواجه الإدارة، وأن سحباً متوالياً على المكشوف تم، القروض تضاعفت.

الجواهري قال معلقاً إن الحوافز المستجدة إنما جزء من الأرباح التي بدأت تحققها مشروعات بعيدة المدى التي وضع بداياتها المؤسس رحمه الله، وما يتقاضاه العاملون مجرد فتات. أما الجزء الحقيقي من الأرباح فيمضي إلى حسابات سرية خاصة في سويسرا، بالتحديد في مقار البنوك بمدينة بازل.

السر في العمولات.. السر في العمولات: يردد الجواهري.

غير أن تردد صوتها بدأ يتخذ أبعاداً أخرى، إنه ينتشر فجأة، في أي وقت، بغتة يتردد ذلك الصفير الخفيف الممهد له ويعني فتح أجهزة الاستماع.

تبدأ عادة بذكر توجيهات سيادته، ومجهودات العاملين في الالتزام بها، ثم تحيد إلى موضوعات عامة، سياسية أو اقتصادية، وتتطرق إلى علاقات المؤسسة بالبنك الدولي، ومنظمة الجات، والسوق الأوروبية المشتركة، وتتعرض أحياناً لأسعار العملات،

ومقتنيات المتاحف، والتطورات المستحدثة في أجهزة الطب، والهندسة الوراثية، وتضرب الأمثال بازدهار جزيرة سنغافورة، والنمور الآسيوية الأخرى، والطفرة المتوقعة في اقتصاد دول البينولكس، إضافة إلى اليابان والصين، ثم تتناول التاريخ فتذكر أسباباً وتبرر أوضاعاً. مع قدرة غريبة، غير مبتذلة على رصد هذا كله بالمنحة التي صرفت مؤخراً بتعليمات من سيادته.

يتردد صوتها بإصرار لا يمكن التأثير فيه أو التقليل منه، مفاتيح مكبرات الصوت مركزية، كذلك أجهزة التليفزيون الداخلية، يختلف الإصغاء إليها من شخص إلى آخر، بعضهم عبّر علانية عن ضيقه باعتبار ما تقوله دعاية مبتذلة، آخرون قالوا بتكفيرها، ذلك أنها تتعمد الكلام وقت الآذان وتستمر، ألا يكفي ما يشاع عما يجري في الطابق الثاني عشر ورائحة النجاسة التي تتوج المقر الأصلي؟ بعضهم أضمر إعجاباً خفياً وتوقاً إلى الإصغاء، منهم البروفيسور الذي يميز تماماً بين النغمات والدرجات، تدغدغه البحة الخشنة، يتأثر بها إلى حد الرعدة، والإرتخاء، مثله كثيرون، لكنهم لا يجاهرون خشية وحذراً.

الموظفات والعاملات التفتن أكثر إلى الأزياء التي تظهر بها وقطع المجوهرات الثمينة، الحقيقية، بعضهن سجلن أوصاف القمصان والمناديل، وتأكد عندهن أنها لا تكرر ما ترتديه، لا تظهر بفستان واحد مرتين.

كم يبلغ حجم ملابسها؟

من يدفع؟

عريس الغفلة أم مصادر سيد الطابق المأمول؟ أم ثمة من يختفي بعيداً في خلفية الصورة؟

كثيرون يذكرون أول ظهورها، عندما خطت لأول مرة هنا، لم تكن ترتدي إلاّ بنطول جينز أزرق، لكن.. أي جينز؟ أي بنطلون؟ أي قوام؟ يتمنى حلمي الحمامي سكرتير شؤون العاملين علانية.

«ليتها تجيء ولو مرة كما ظهرت ذلك اليوم ..».

قوام صاعد، واثق، مؤخرة مستفزة، محرضة، ذات وضع خاص، فخذان منبسطان، مستديران، وصدر مشرع، يفز من القميص، لم تمر بمكان أو في مواجهة عينين إلاّ وتعرضت للرشق البصري، أثار ذلك بعض النساء، ويؤكد الكثيرون أن هانم الدمياطية التي كانت تشغل وقتئذٍ منصب رئيس قسم استدعتها، وتأملتها ملياً، أبدت إعجابها بقوامها، لكن الحضور إلى المؤسسة له أصول، مثل هذا البنطلون مكانه النادي أو الخروجات الخلوية. أبدت صفية احتجاجاً، تحدثت عن بساطة الجينز وإقبال الشباب عليه، إضافة إلى احتشامه، ضحكت هانم بهدوء، قالت إن المثل الذائع ينصح بأكل ما يعجبك وارتداء ما يعجب الناس. ورغم عنادها إلاّ أنها امتثلت ولم تظهر فيه حتى الآن.

رغم إعجاب هانم بجمالها إلاّ أن صفية شالت منها، يبدو أن الموضوع أقدم مما تردد مؤخراً عن وشاية مؤداها أن بعضهم نقل إلى صفية تلسين هانم عليها ومن ذلك تأكيدها جهل صفية وعجزها عن صياغة جملتين مما تردده، وأنها مجرد بوق لما يكتبه سيادته بنفسه، وأن صوتها مزعج يشبه وحوحة ذكر البط المعلق من ساقيه ورأسه إلى أسفل.

صوتها مثل ذكر البط!

ستدفع هانم ثمن هذا الكلام الفارغ. لكن يؤكد البعض أن هانم سواء قالت أو لم تقل فإن صفية متربصة بها منذ تمكنها، يبدو أنها

لم تنس اللقاء القديم، ربما لأن المقارنة تجري دائماً بين هانم وصفية. أيهما أكثر أناقة؟ أيهما أجمل؟

تجري المقارنة مع أن فارق العمر بينهما لا يقل عن خمس عشرة سنة، هذا يعتبر إعلاء من مرتبة هانم، بل إن كثيرين يعتبرون حضورها المشع، الهادىء، الفواح، وملامحها الرانية، العذبة، هي المرجع والقياس.

لكن نذراً عديدا، ودلالات شتى يدركها العارفون، كانت تشير إلى هانم باعتبارها هدفاً رئيسياً لصفية، وكان النمرسي من أكثر المهتمين بالرصد والمتابعة، من يدري.. ربما تنجح صفية في إذلال ذات البهاء الملكي، المستعصية، المنيعة، من يدري.. ربما تدفع بها صفية إلى حال تصير فيه طيعة، تطالها يديه..

حكاية العربة الملكية

من الثابت المقطوع به أنه ما من إشاعة تسري إلاّ ولها أصل في الواقع بدرجة ما، المهم.. ما ثبت الآن أن النفار بين صفية وهانم يرجع إلى لقائهما الأول. كان ارتداء البنطلون الضيق غير شائع وقتئذٍ، أثير الأمر على صفحات المجلات والصحف عندما دخلت طالبة إلى الحرم الجامعي مرتدية ما اعتبره العميد والأُساتذة تجاوزاً، دافع بعض كبار الكتّاب عن حقها في ارتداء ما ترغب طالما أنها لم تكشف عن مساحات أكثر مما يجب من جسدها، رد آخرون قائلين إن البنطلون المحزق يظهر أكثر مما يخفي وأطلق عليه أحدهم «العُرْي المستتر».

ظهرت صفية وأصداء تلك المناقشة ما تزال في الأذهان، بل قال بعضهم إن الطالبة التي أثارت تلك الضجة وقابلت كبار الصحفيين في «أخبار اليوم» ودار «الهلال» ما هي إلاّ صفية شخصياً، لكن.. لم يهتم أحد بالتحقق من ذلك، خاصة بعد شيوع ارتداء الإناث للبنطلونات وانتشار ذلك.

بشكل عام لا يكف الهمس حول النساء في المؤسسة، خاصة الجميلات منهن أو من يتمتعن برمق، بالطبع.. نصيب الحالات

الاستثنائية أشد، ظهور صفية أثار تعليقات شتى. بعض الرجال، خاصة في مواقع الإدارة العليا يؤثرون إشاعة تعدد علاقاتهم، مع كثرة الحومان ورصد الاستجابات، مع اللف والدوران حول هذه أو تلك تلمساً لثغرة يمكن توسيعها والنفاذ منها.

آخرون يتمنون ويحلمون، يهمسون بأدق التفاصيل حول هذه أو تلك حتى ليصل الأمر إلى الخوض في العادات والخصائص، مثل نوعية التأوهات، وكيفية الاستجابات أو سرد التفاصيل الخاصة بصلات أصحاب النفوذ بالحسناوات. أما النساء فيجدن إخفاء ما يضمرن. إنهن أشد فضولاً من الرجال تجاه سلوك زميلاتهن، بل يتبادلن في جلساتهن الخاصة إذا ما توفرت لهن العزلة والطمأنينة ما لا يتصوره خيال الفسّاق من أصحاب المجون.

ثمة أسباب أخرى عند الطرفين لرصد العلاقات وتصنيفها ومتابعة تطوراتها، منها مدى قرب البعض من أصحاب النفوذ، من أصبح فمه أقرب إلى أذن هذا أو ذاك من الكبار، من يمكنه الهمس مباشرة في أذن سيد الطابق الثاني عشر أو نوابه؟ إن قصر المسافة يحدد المرتبة فما البال إذا اجتمع الهمس باللمس بالضم؟

صفية الآن متحفزة، ما عليها إلاّ اختيار الوسيلة الأشنع.

لم تسفر عن بغضها إثر اللقاء الأول، لكنها لم تترك فرصة تمر إلاّ وحاولت النيل منها، قالت مرة معلقة على حوارهما الأول إن هانم طلبت اعتبارها مثل أختها الكبيرة.

«أختها؟».

أضافت مستنكرة، متهكمة ..

«إنها في سن أمي ..».

قالت زميلتها سامية المنوفي متراجعة برأسها، مقوسة حاجبيها..

«لكنها تبدو صبية يا صفية يا أختي.. صدرها مشدود،
كأنها بكر ..».

أشارت صفية إلى وجنتها.

«الشد وعمليات الشد .. وحياتك كله صناعي ..».

ثم أضافت:

«شوفي ابنها .. في كلية الصيدلة آخر سنة.. احسبي عمرها بقى..».

عندما لاحظت حذر سامية وحرص الأخريات على عدم المس بهانم.

لزمت الصمت، لكنها أستمرت في الغمز واللمز كلما سنحت الفرصة، عداء شديد مع أنه ما من نقطة تلاقي بينهما، صفية موظفة صغيرة، هانم مخضرمة. تلك في قطاع وهذه في آخر، ما من نقاط تماس بينهما. برغم ذلك شغلت صفية بغريمتها التي أمضت ليالي طويلة ترتب الانتقام منها، أو إذلالها بحضور آخرين، تضطرها إلى التخلي عن كبريائها البادي وهيئتها الملكية ومهابتها الأصلية كما يصفها دائماً الجواهري العجوز المخرف، نزيل المقهى، تضطرها إلى الانحناء أمام جمع غامض لا تتبين ملامحهم تماماً ولا تقف على هوياتهم، لكنهم يتطلعون إلى إنحناءة هانم ومحاولتها تقبيل يد صفية ملتمسة الصفح. ليال عديدة تقلبت مرات حتى جفاها النوم، بينما الصور تتعاقب عليها حتى طلوع النهار وهي حانقة، وتفيض غلاً، تضطر إلى بدء عملها اليومي مرهقة، تتوعدها، تتجه عصراً إلى صاحبها الرسام، تستلقي على راحتها وتسب هانم التي لم يلتق بها قط.

في اليوم التالي خلعت البنطلون، جاءت مرتدية ثوباً عادياً،

محتشماً إلى حد ما. ظنت تحذير هانم ذا صفة رسمية، لم تكن أطلعت بعد على الخبايا وعلاقات الأطراف المختلفة ببعضها داخل المقر، لو اتضح لها أن موقف هانم شخصي بحت لما أستجابت ولجاءت صباح اليوم التالي في بنطلون حريري تؤرخ أيام المؤسسة بظهوره، لكنها كانت ما تزال في البداية مثل القطة معصوبة العينين في مكان لم تعرف بعد مخارجه من مداخله!

لكن .. هل ثمة أسباب مجهولة، خفية لتلك الكراهية التي أصبحت سافرة، مهيمنة، لافتة للقاصي والداني بعد أن طمت وعمت من الطابق الثاني عشر؟

التخمينات عديدة، متضاربة، عطية بك له رأي، أفضى به قبل المحنة التي دفع نفسه إليها وزجّ بالعاصمة في وضع غير مألوف، غير مسبوق، وأدخل في قاموس المصطلحات السياسية تعبيراً جديداً هو «محاولة الانقلاب المروري..».

يرى عطية بك أن سبب تلك العداوة السافرة بينهما تمتع كل منهما بجمال نادر، فريد، وحالة خاصة من الحضور الأنثوي الفعال، يقول عطية بك بتمهله المجرب، المتقن إن هانم اعتبرت من بواعث البهجة لسنوات طويلة، حتى قيل إن حضورها يرطب المقر، ويرقق النفوس، ويجعل كل إنسان حريصاً على تعامله مع الآخرين، على مشيه، مع أن حركتها في المبنى محدودة بحكم مقتضيات وظيفتها، لم تكن تنتقل بين الطوابق أو تعبر الممرات إلا لحضور مؤتمر أو اجتماع طارىء.

هانم .. هانم فعلاً.

بهية الطلعة، عندها قبول، يتقدمها حُسن فواح، إذ ينظر إليها المرء يلم بوجهها، بألق عينيها، بزمة شفتيها، تضفي حلاوة على مخارج ألفاظها وسكون حركاتها..

لا .. ما من مجال للمقارنة.

يقول عطية بك إن المتطلع إلى هانم يتعلق بوجهها، بعينيها، بالفراغ الدال حولها، أما صفية فمن يواجهها يُقابل بحض خفي على النظر إلى أسفل!

هانم .. لا يرد ذكرها إلاّ ويلوح إعجاب خفي في العيون.

هانم .. يا سلام على رسوخ الحسن، على زمزمة الطراوة، على ألق الزمرد الإنساني الأخضر، كلما تطلع إليها المرء بان عنصر من جوهرها المكنون لم يرصده إنسان غيره.

لا هي بالطويلة ولا بالقصيرة، حضورها طلي، مثالية القد، متسقة التداوير، تتعاقب مويجاتها كتوالي الليالي والنهارات. يقول عطية بك إن الضيق إذا أحدق به، فإنه يسعى اختلاق حجة ليراها. ليأوي بالنظر إلى ضفافها، يرفع أصبعاً دالة، يقول:

«مجرد طلة .. تنعش العليل».

من عامل الكراج، إلى عامل المصعد، من السعاة إلى مدير القطاعات والخبراء، لم يختلف أحد حول تقدير جمالها واحترام سيرتها. يعمل زوجها مهندساً بوزارة الصناعة، في مجال التخطيط، أصلع، قصير القامة، غليظ الرقبة، أجش الصوت، بادي الطيبة، بعضهم حسده، هل يحتوي هذا الجمال كله؟

الحق .. لم تعرف المؤسسة زوجين متحابين مثلهما، لم تبد ضيقاً منه ولم تلمح حتى كما تفعل معظم العاملات خاصة عند الإفضاء بمكنونهن إلى بعضهن، لم تتحدث عن أبنائها الثلاثة أو مشاكل تربيتهم، إذا سألها أحد عنهم، تومىء برأسها شاكرة، صامدة ولا تزيد، حتى حمدي الإزميرلي بكل نفوذه خلال الحكم الشمولي عجز عن معرفة أي تفاصيل إضافية عن حياتها الخاصة.

ظلت منيعة على الجميع، لم تقصر قط في واجباتها تجاه المؤسسة، لكن ثمة جفوة وقعت بينها وبين حمدي الإزميرلي، لا يعرف أحد تفاصيلها حتى الجواهري الذي يبحث بهدوء واثق. يبدو أن شيئاً ما جرى لكنه أوقف عند حد صارم. غير أن متاعب جديدة بدأت تحدق بهانم إثر تمكن صفية من الطابق الرئاسي. بانت البوادر التي توقّعها كثيرون.

حدث أن اتصل البروفيسور هاتفياً بهانم وقال إنه قادم إليها ليشرب معها قهوة.. ممكن؟

رحبت قائلة:

«وهل أنت بحاجة إلى دعوة؟».

إنهما زميلان منذ سنوات، لم يحدث بينهما ما يكدر، هذا ما جعل مهمة البروفيسور صعبة لكن.. الشغل.. شغل!

طبعاً لم تفاجأ تماماً، فعبارة «ممكن أشرب معك قهوة؟»، تعني أن أمراً هاماً سيناقش. لم يراوغ، لم يلف، لم يضيع وقتاً في التمهيد، ساعده إنفرادهما على تدقيق ملامح وإبراز مظهر المجبور. المضطر، غير المقتنع بما يفضي به.

قال باختصار إن ظهور سيارتها السوداء أمام المؤسسة أثار قلق بعض الجهات. يتمنى ألا تسيء الفهم، لكنه يطلب منها رغبة بعض المستويات السيادية في انتظار العربة خلف المبنى، أو يتم تخصيص سيارة لتوصيلها من وإلى المنزل، هذا حقها منذ سنوات وقد تنازلت عنه لارتباطها الحميم بأوتومبيل والدها الباشا رحمه الله..

بسطت يدها بما يعني إدراكها المطلوب بالضبط، وفهمها ما لم ينطقه البروفيسور، قال بصوت خافت وبلهجة مفاجئة.

«أنا عبد مأمور يا أستاذة ..».

تطلعت إليه بدون انفعال، هذا الماثل أمامها بضعف بيّن، كان مرشحاً قوياً للإستقرار في الطابق الثاني عشر! وقوفها يعني انتهاء اللقاء أو احتجاجها الصامت على الخلفيات غير الممكنة.

«لا تقلق .. سينتهي كل شيء بما يريح الجميع ..».

هل أخطأ؟ هل كان مفروضاً أن يبدو أكثر قسوة؟

لكن .. بينهما مودة قديمة، ستفهم مغزى حضوره وتقدره، كان مفروضاً أن يستدعيها، لا يظن أنها ستبوح بما يلحق به الأذى، المناخ متقلب، والوشايات فعّالة.

المهم .. أنه أبلغ الرسالة وبشكل رقيق يتفق مع زمالته لها و.. إعجابه الخفي بها، لكم استحضر قوامها في الفراش، ودفع بملامحها عبر وجه امرأته وأشعل مخيلته بوقود حضورها، خاصة قوامها الهياب، النافذ.

هانم أبوها باشا حقيقي، أُلغي لقبه بعد ثورة تموز/ يوليو، إنه أغرب باشا عرفته مصر، وما جرى له يضرب البعض به المثل، لم يكن إقطاعياً، أو سليل أسرة من الأتراك أو مماليك الزمن القديم.. بالعكس.. كان موظفاً بسيطاً في دار الكتب، يشرف على صيانة مجموعة المصاحف الأثرية المعروضة في الصالة الرئيسية، وأثناء زيارة الملك فاروق للدار توقف أمام مصحف السلطان برسباي طويلا. لا يعلم أحد.. هل كان ذهنه مشغولاً بتأمل سطور المصحف وزخارف حواشيه، أم شارد بعيداً، هز رأسه فبدأ والد هانم شرحه، ذكر اسم الخطاط، وتاريخ وفاته وسنة فراغه من الكتابة وكيف وصل المصحف إلى دار الكتب الخديوية!؟ هز الملك رأسه مرتين..

«جميل .. جميل يا باشا ..».

باشا ؟!

ذهل المحيطون بجلالته من أصحاب الدولة والمعالي، مجرد نطقه باللقب يجعله أمراً واقعاً، قائماً، لفظه قرار، كلمته سيادة، وهل ينطق كذباً؟

على الفور بدأت إجراءات منح الموظف البسيط رتبة الباشوية، لم يمض إلاّ أسبوع واحد.. وكان القرار منشوراً في الوقائع المصرية، هكذا أضيف إلى قائمة الباشوات اسم جديد يعد صاحبه أغربهم وضعاً. باشا يسكن شقة قديمة في إحدى حارات الدرب الأحمر، ويقطع الطريق إلى باب الخلق مشياً ويرجع ظهراً واقفاً، محشوراً في الدرجة الثانية للترام العتيق. بذل رئيس الديوان الملكي جهداً حتى تمكن من إيجاد تبرير قانوني لتخصيص مبلغ شهري يمكن الباشا الجديد من تحسين أوضاعه إلى حد ما بما يتفق مع الرتبة السامية التي حصل عليها صدفة، وأهداه مجموعة ملابس صيفية وشتوية وتمّ تخصيص شقة من ست حجرات وثلاث صالات بمنطقة المنيرة القريبة من شارع القصر العيني. لكن أهم ما حصل عليه عربة سوداء، طراز كاديلاك الأربعيني، أهدتها ملكة هولندا الأم إلى صاحب الجلالة بعد انتهاء الحرب، ولم يستخدمها جلالته قط لزيادة وزنه وضيق مساحتها الداخلية، كما أنه اكتفى بالعربات ذات اللونين الأحمر والأسود.

يقول عطية بك معلقاً في الزمن الرائق المنقضي، إن ما جرى لوالد هانم يذكره بأحد باشوات الصعيد والرولز رويس، وتفصيل ذلك أن باشا قبطياً يمتلك أراضي شاسعة بمديرية أسيوط اشترى عربة رولز رويس فاخرة لتنقلاته، أجزاؤها كافية مصنوعة يدوياً، وحدث أن طلب إضافة شيء ما غير أن مندوب الشركة تباطأ

عليه، فما كان منه إلاّ أنه أرسل العربة الفردة التي لا مثيل لها ذات المقابض الذهبية إلى ميدان المحطة وقام بتشغيلها كعربة أجرة بالنفر من المدينة إلى قرية درنكة الجبلية. تناقلت وكالات الأنباء الخبر، وشرع بعض المراسلين المقيمين في المجيء إلى أسيوط للبحث عن تفاصيل أكثر. على الفور اجتمع مجلس إدارة الشركة المنتجة وأوفدوا عضواً منتدباً يرجو من الباشا عرض أي شروط أو مطالب وستقبل فوراً. ولا يعرف أحد ماذا جرى بالضبط، لكن المؤكد أن الثورة قامت وهذا الباشا عنده سيارتان ثمينتان، الأولى تلك الرولز رويس الشهيرة، والأخرى ذات سقف متحرك، رياضية، تنتجها الشركة نفسها، يقال إنها أهديت إليه ترضية!

المهم .. انتهت العربة الكاديلاك السوداء إلى الباشا الجديد، وعندما قامت الثورة لم يكن لديه أرضٌ زراعية ليطبق عليها قانون الإصلاح الأول أو الثاني، ولا أرصدة في البنوك المحلية أو الخارجية، رجال الثورة تفهموا وضعه، بل وتندر بعضهم به، وأظهر الشفقة عليه، ولم يحدث أي مساس بالعربة الملكية. أظهر عناية بها، صانها وحرص على غسلها يومياً بيديه، وعندما مرض ودنت النهاية أوصى ابنته الكبرى، الهادئة، الجميلة، طلب منها أن ترعاها، وتصونها، وألا تغير لونها، وألا تبيعها أبداً مهما تعاظمت الإغراءات، وصف لها الطريق إلى ورشة ميكانيكي قديم بعابدين، تخصص في إصلاح العربات الملكية النادرة وصيانتها. رجل نحيل، تجاوز الستين عند قيام حركة الجيش المباركة ـ قبل أن تُسمى ثورة ـ خبرته مشهود لها. يعرف العربات الملكية كافة كما يعلم الطبيب الماهر أحوال مرضاه الدائمين. بعد الثورة عانى فراغاً وكساداً وعزّ عليه أن يضع خبرته في سيارات الأجرة، وعربات المعلمين وتجار الخضار والفاكهة، أي زمن؟ لكنه مضطر حتى يظل بيته مفتوحاً.

الشيء الوحيد الذي حفظ له جزءاً من زهوه القديم تلك الكاديلاك الأربعينية، الملكية، أعجبه من صاحبها عنايته بها، كان إذ يلمحها أو يسمع صوت بوقها المميز يتهلل ويخرج لمقابلتها ويفتح بابها بنفسه مرحباً بصاحبها الباشا، إنها من آثار العز، ما يطوله من أسطول هائل توزع وتفرق بين من يسوى ومن لا يسوى، لكنه أعتبر نفسه جزءاً منه أياً كان موقعه، الملك نفسه استدعاه زمن الحرب بعد تمكنه من صنع قطعة غيار صعبة بفضلها لم تتوقف العربة المفضلة عند جلالته عن الحركة وظلت تعمل بكفاءة حتى بعد أختفاء الشركة الألمانية المنتجة لها وتدمير مصانعها نتيجة قصف الحلفاء المركز.

أيام ... أيام!

أدركته هانم وبصره واهن، كليل، يغالب ضعفه، يقف مشرفاً على ابنه البكر أثناء إصلاحه العربة أو كشفه على محركها، يوصيه بها، يعلمه أسرارها، يدله على طرق استبدال قطع غيارها، أو تصنيع ما أنقرض منها. الحق أن ابنه اعتبر الحفاظ عليها سليمة، متينة، جزءاً من إخلاصه لوالده وصيانة لذكراه. لم يسمح ليد غريبة أن تمتد إليها حتى بعد أن ألمح ذات عصر إلى إعجابه الكريم بهانم ورغبته القرب على سنّة الله ورسوله، غير أنها صدّته بلين حازم. ليس بدافع أنها مهندسة وهو عامل، بل لأنها كانت في بداية إعجابها بزوجها الذي تعرفت إليه وهو يكبرها بعشر سنوات، ورأسه خلو تماماً من أي شعر.

كان ابن صاحب الورشة هادئاً، وسيماً، حصل على الثانوية العامة ولم يلتحق بالجامعة لرحيل والده المفاجىء، تفرّغ للورشة المعروفة في السوق بسمعتها الطيبة، ورعى أمه وشقيقاته الثلاث، لم يتقدم إلى هانم أو غيرها إلاّ بعد اطمئنانه عليهن، كل منهن

استقرت مع ابن الحلال في بيتها، وأول كل شهر يزورهن ليسلّم كلاً منهن نصيبها من إدارة أرباح الورشة. فتح الله عليه وتحول إلى تجارة قطع غيار العربات، لكنه حرص على إصلاح السيارة الأصلية بيده، اعتبرها فألا حسناً، ظهورها يجلب له الحظ، كان يسميها الجوهرة السوداء.

هانم اعتادت الجلوس عند مدخل الورشة، تنتظر الفراغ من إصلاحها أو إبلاغها بما يجب عمله، ترقب حنوه وعنايته، توقن أنها مقصودة بل يقشعر جسدها أحياناً عندما ترى أصابعه تتحسس برشاقة ومهارة الأبواب والنوافذ، والحقيبة الخلفية الراسخة!

الكاديلاك الأربعينية أصبحت مشهورة، خاصة عند الأثرياء والهواة والمتخصصين، والمليونيرات الجدد الراغبين في اقتناء أشياء كهذه للإيهام بعتاقة الأرومة.

هانم رفضت العروض كافة بما في ذلك طلب الشركة المنتجة التي أكد ممثلها أنه لم يعد يعمل من هذا الطراز إلاّ سيارتين، الأخرى يمتلكها تاجر تايواني يقيم في هونغ كونغ. وإلحاح مدير فندق مينا هاوس الذي عرض سعراً مغرياً، وكشف لها عن دافع مغاير ودت لو أن والدها ألم به قبل رحيله. وهو ركوب روزفلت عند مجيئه إلى مصر قرب نهاية الحرب العالمية الثانية وتجوله بها حول الأهرام، الصور منشورة والعربة واضحة الملامح، إنها المرة الوحيدة التي خرجت فيها من الكراج الملكي.. ما حقيقة الظروف؟

هذا ما لم يعرفه أحد.

غير أن هانم أبدت موقفاً إيجابياً من صحفية فرنسية جاءت خصيصاً وأقامت عشرة أيام لإعداد تحقيق مصور حول العربة وصيانتها واستخدامها، نشرته مجلة متخصصة في الطراز القديم تصدر من باريس بعدة لغات، التقطت جريدة «الأخبار» الخيط

وترجمت جزءاً من الموضوع مع المطالبة بالحفاظ على ثروة مصر من المركبات النادرة. والقديمة، خاصة تلك المستخدمة في الريف كعربات أجرة.

على أي حال العربة أمرها معروف، وكثير من زملاء هانم ركبوا إلى جوارها، الجواهري يقول إنها ملكية الرسوخ حتى ليمكن شرب فنجاه القهوة داخلها بدون أن يهتز.

هل أثار وقوفها أمام المدخل الرئيسي ضيق صفية فعلاً، أم أنها حجة لبدء التحرش؟

ما قيل كثير. وما سيقال أكثر، غير أن الجميع اتفقوا على تماسك هانم واستجابتها الهادئة، المستوعبة، المتعقّلة، اليوم التالي لزيارة البروفيسور لم تقف العربة قرب المدخل، إنما في الساحة الخلفية القريبة من الفتحة الدائرية، عندما نما ذلك إلى الجواهري تشاءم، هذه العربة من المعالم المحببة إلى المؤسس، هو الذي منح هانم الأذن بالوقوف، كان يعرف قدرها.

غير أن الأمر لم ينته عند ذلك.

بعد حوالى ثمانية أيام، استأجر الفريق المسرحي التابع لإدارة الأنشطة الترفيهية قاعة تتبع نادي الضباط بالزمالك لتقديم عرض جرى إعداده بدقة وبُذل فيه جهد. المهم.. وصلت هانم بصحبة زوجها مبكرة قليلاً. بمجرد نزولها من العربة التي أوقفتها على بعد أمتار من المدخل، المنادي والحارس أسرعا إليها، تنافس كل منهما في إظهار العناية، هانم حضورها جميل، يحتوي عنصراً خفياً يحبب إليها الخلق، يقرب كل ناظر إليها. حتى جنود المرور ورجاله عند المفارق والإشارات التي اعتادت أن تسلكها يومياً ينتظرون *ويتوقعون طلتها.*

بعد دخولها المسرح بصحبة زوجها الأصلع، وصلت صفية، نزلت شاهقة الجمال، مشهرة الأنوثة. اقترب منها المنادي العجوز الذي يضع على صدره العلامة المعدنية لنادي السيارات، والذي اعتاد عبد الناصر على مصافحته عند ترجله ودخوله لحضور الحفل السنوي الساهر في ذكرى ثورة تموز/ يوليو.

على مهل اقترب منها، كانت رهبة السلطة في التفاتاتها، نظراتها، إشرافها على الكل من عل، كثيراً ما قال الأشموني لصاحبه سراً إن حاجبيها المعقودين يحويان قدراً من شر.

بصت تجاه الكاديلاك، ناظرة إليها ومتجاوزة أيضاً، بترفع، باحتقار، بإيحاءات شتى قالت:

«من أوقف هذه العربة هنا..».

قال العجوز إن صاحبتها دخلت بصحبة زوجها، أشارت بيدها أن يكف، عند اجتيازها المدخل قالت قبل مصافحة المنتظرين لها باعتبارها ممثلة لسيادته.

«شايفة نفسها قوي .. لا!» ..

اليوم التالي مباشرة، عُلق قرار رئاسي، مؤسسي في لوحة المدخل، موقّع من سيادته شخصياً يلغى إدارة الصادر والوارد، وتفريق اختصاصاتها وأنشطتها على القطاعين الداخلي والخارجي، يتبع ذلك توزيع الموظفين والفنيين وتغيير بعض المواقع داخل المقر.

في نهاية اليوم، قبل تأهب هانم للإنصراف، اتصل بها مدير القطاع الإداري، المهندس شيحة المحلاوي، إنه نحيل، طويل، منحنٍ إلى الأمام دائماً، لا يتحدث إلاّ همساً، معروف أتقانه لنقل الكلام والمشاركة في الدسائس الخفية، يجمعه بالأشموني نشاط

كل منهما عند وقوع مصيبة ما، أو إلحاق الأذى المعلن بأحد العاملين من ذوي الحيثية.

ذمته ليست فوق الشبهات، وبحكم مسؤوليته في شراء قطع الأثاث والأدوات واللوازم المكتبية فثمة شكوك حول تقاضيه عمولات من التجار والموردين في السوق. يقول الجواهري إن المؤسس كان يعرف حقيقته، لكنه لم يتخذ ضده إجراء لأنه فُرض عليه، صدر قرار بتعيينه فور التأميم وقبل وقوع المحنة الكبرى، ومن الطريف أن المؤسس احتفظ بمقعدين مكسوين بالجلد العتيق، بكل منهما مزق واضح رفض استبدالهما أو طلب إصلاحهما، يعلق ضاحكاً، إنه يفوت على شيحة ورجاله فرصة الحصول على عمولة.

تكرار ظهوره في أحد الأقسام نذير سوء، وقرب وقوع أذى، لهذا لم يطمئن كثيرون عندما رأوه يسعى بخطى سريعة إلى هانم الدمياطية، لم يخف غرضه، لم ينتق ألفاظاً بديلة، تلا نص القرار، ثم طلب منها تسليم مفاتيح المكتب قبل انصرافها، يمكنها أن تأخذ أوراقها الخاصة من خطابات شخصية أو بطاقات معايدة، وصور الأولاد الأربعة، كذلك اللوحة المعلقة فوقها والتي أثارت إعجاب الزوار برونق زخارفها ورشاقة حروفها.

«رتبة العلم أعلى الرتب».

لا يحق لها أن تأخذ أي خطاب صادر من المؤسسة أو وارد إليها، أو يحمل شعارها أو توقيع أي مسؤول، كذلك أي أوراق تثير انتباه مندوبة إدارة الأمن التي ستحضر عملية إخلاء المكتب ذي الأدراج الثمانية والمغطى بزجاج سمكه سبع ملليمترات، وهذا مكتب لا يستخدمه إلاّ المخضرمون من العاملين.

أدركت هانم من تلميحاته أنه ملم بمحتويات المكتب، وأنه تفحص كل شيء خفية، أيقنت حدوث ذلك بانتظام، لذلك لم

تحتفظ بأي ورقة شخصية، ولا بطاقة معايدة حتى، أقدمت على التوقيع بثبات، عندما بلغ صفية هدوؤها لم تخف حنقها قالت:

«سنرى ..».

هانم سيدة راسية، لم تخطىء في حق إنسان، لم تنطق بالخطأ، لم تظهر منها عيبة، هذا معروف شائع عنها، تعرف أيضاً كيف تحافظ على مسافة تحول دون اقتراب الآخرين. ما لم تدركه صفية أو عيونها المدسوسة عليها طبيعة استجاباتها وانفعالاتها. بعكس ما تبدو عليه من صلابة وجهامة أحياناً. فإنها رقيقة إلى حد لايعرفه إلاّ زوجها وأبناؤها بالتبني. لا يمكنها رؤية إبرة حقنة لحظة نفاذها عبر الجلد، يمكن أن يغمى عليها. تبكي إذا رأت عصفوراً وحيداً، حائراً عند حافة الشرفة، لا يمكنها قطف وردة، فصلها عن غصنها، غير أنها تجيد إخفاء ما يمر بها خاصة أثناء عملها أو عند اتصالها بالآخرين، ما لم يُعرف عنها أيضاً بطء ردود أفعالها إذ تتلقى خبراً مزعجاً، أو كلمة جارحة. لا تجيب مباشرة، كأن الأمر يتعلق بغيرها، حتى إذا مضى وقت وانفردت بنفسها استعادت ما كان، فتقطر حزناً، أو تتقطع ألماً، أو تتميز حنقاً وغيظاً لأنها لم ترد، لم تردع كما ينبغي.

هكذا .. تابعت شيحة أثناء فرزه الأوراق والمظاريف والمكاتبات كأن ما يجري يخص شخصاً لا تعرفه. عند استعادتها تلك اللحظات توشك على القيء، خاصة انحناءاته المتكررة أثناء قراءة الأوراق حتى إنه لامس السطور بجبهته مراراً. لم يتفق لها ذلك عند استعادتها لحظات اقتحام ضابط المباحث العامة وأربعة جنود سريين شقتها ليقبضوا على زوجها نهاية الخمسينات، أمضوا ست ساعات في فحص الأوراق، أرقام الهواتف، عناوين مكتوبة، لكن خلت تصرفاتهم من لزوجة وفضول شيحة الوقح.

هنا يجب الإشارة إلى إحدى خصائص المؤسسة. الثبات بمعناه الظاهر والباطن، الكل يحرص على استقرار الأمور، حتى.. ولو في العلن، أي هزة طفيفة تؤثر في الأوضاع المؤسسية. العاملون يرتبطون بظروف معينة، بعضهم يؤثر الاستمرار في مكانه الذي اعتاده حتى مع وقوع الترقي، وإذا اضطر إلى التغيير فإنه يقدم وهو كاره أو داخل في الاكتئاب، حتى يمر وقت.

كثيراً ما انتقد المؤسس هذه الروح، كان متأثراً بإقامته الطويلة في الولايات المتحدة، في البداية حرص على تشغيل عدد كبير بمكافآت متغيرة. هذا الوضع يطلق الحد الأدنى من الأجور لكنه لا يلزم صاحب العمل بحقوق معينة في المعاش أو التعويضات القانونية عند المرض أو الإصابة. الحق.. أن المؤسس لم يقصر قط في رعاية أي إنسان عمل معه وأصابه مكروه، بدأ ذلك قبل قوانين ثورة تموز/ يوليو العمالية. وبدء النظم التأمينية زمن العهد الشمولي، تعاقد المؤسس مع أمهر الأطباء وأفضلهم لمعالجة العاملين من أكبرهم إلى أصغرهم. حرص على إعلان أسماء المتميزين أول كل شهر وتعليق صورهم في لوحة الشرف قرب المصعد الرئاسي، كان يهنىء من حصلوا على أجور عالية، أو نسب مئوية من الصفقات التي عقدوها، يسلمهم المبالغ بنفسه، غير أنه يواجه من بعضهم بسؤال يتكرر بصيغ مختلفة.

«متى .. التثبيت؟».

لكم تعرض لضغوط وتدخلات لتعيين البعض، واستجاب في مواقف كثيرة خاصة بعد التأميم. يحرص كل منهم على وجود ملف يخصه في شؤون العاملين، ومكتب، وللمكاتب نظام دقيق، إذ يعكس كل منها مرتبة العامل أو المسؤول، الجالس إلى المكتب ذو الثلاثة أرواح، ليس مثل المنحني على مكتب له أربعة ومغطى

بالزجاج، أو فوقه تليفون، الهواتف درجات، فثمة ما يتصل بالبدالة، وآخر بقرص لكن لا بد من تزويده بخط، وثالث بخط مباشر، أما الدولي، وما يتصل بشبكة المعلومات الدولية، فإن ذلك يقتصر على رؤساء القطاعات وكبار المسؤولين، وما يضمه الطابق الرئاسي من وسائل غير معروف بالضبط، والهوائيات المثبتة فوق المقر لا يماثلها في الغرابة والغموض إلاّ تلك الموجودة فوق السفارتين الأميركية والإسرائيلية. رغم ترديد المؤسس لأقاويل شتى حول المرونة، وإمكانية انتقال العاملين بسهولة، إلاّ أنه أخذ عن البيروقراطية المصرية تقاليدها كافة فيما يتعلق بالنظم الداخلية، والفصل الحاد بالمظاهر بين مستويات الإدارة، خاصة ما يتعلق بأماكن الجلوس والعمل والأوراق المستخدمة وألوان الحبر في الخطابات المتداولة، خاصة التأشيرات، إن شكل المقعد، والمكتب يحدد مستوى صاحبه، ومسيرته، ومنزلته، لذلك كان مُراً وصعباً على هانم خلعها المفاجىء. المعروف عامة أن أوعر اللحظات بالنسبة للعاملين كافة تلك التي يجبر فيها أحدهم على التخلي عن مكانه، إنه بداية الخلل العنيف الذي أودى بالبعض إلى نهايات قاتمة. وهل ينسى الجواهري أو المخلصون له لحظة اقتراب الأشموني منه وإبلاغه القرار ومنعه من التوقيع في الساعة؟

تمام الخامسة والنصف، اجتازت هانم الدمياطية مدخل المقر، مشت بخطى ثابتة فوق الرصيف متجهة إلى الساحة الخلفية، إلاّ أن الأشموني رصد انحناءة كتفيها، وإطراقة دماغها، وعندما نقل ذلك إلى صفية استوثقت بالسؤال مرتين عن وضع رأسها المنكس، فأكد الأشموني ذلك.

رغم أن هانم وعت ضرورة ظهورها بثبات مكين، إلاّ أنها لم تحل دون تلك الإطراقة، وعندما خرجت بالعربة الملكية من مكان

انتظارها وعبرت الجسر فوق النهر، عضت شفتها السفلى، كادت تصطدم بعربة يابانية الصنع يقودها شاب يرتدي نظارة غامقة. غير أنها تماسكت بعد أن بذلت جهداً حتى وصولها إلى بيتها، وجلوسها إلى أبنائها بالتبني، واستجابتها الصامتة لنظرات زوجها الحانية. عندما انفردت به انهارت على كتفه باكية، وهذا ما لم تقدم عليه يوم يقينها أنهما لن ينجبا طفلاً بعد أن أثبتت التحليلات وهن حيواناته المنوية وقلتها، كانت تتوق إلى غلام، خاصة أن الأطباء وصفوا خصوبتها بالغزارة وحتى وقت قريب كان حلول الدورة الشهرية مصحوباً بآلام حادة لا تُجدي معها المسكنات وشرب السوائل المغلية خاصة القرفة، عندما وافق وتحمس على التبني، قررت اختيار أربعة من أجناس مختلفة، مصري، وزنجي، وآسيوي، وطفل من أميركا اللاتينية ذي أصول هندية، وهذا موضوع حيّر الكثيرين، ويطول الحديث فيه.

قالت إن صفية بدأت حربها.

تحسس انحناءة كتفيها مهوناً، مداعباً ..

«ذنبك أنك أجمل منها ..».

ملس على ظهرها، سرحت أصابعه عبر منحنياتها وتمهلت عند بوابات جسدها، مدخله إليها، وأول عزفه السليم. هي.. لم تكن بحاجة إليه مثل تلك اللحظات، منذ فترة لم يقبّلها كما بدأ هذه المرة، مص شفتها العليا ثم التحتية. جاس بلسانه حتى بدأت ترتعد كعصفور مبلول. تعشق مداعباته التي تتجدد ولم يتطرق إليها الملل والتكرار. تسمع شكاوى زوجات من إقبال أزواجهن المفاجىء ثم إدبارهم فور فراغهم، قالت إحداهن إن رجلها لم يقبلها منذ خمسة عشر عاماً. الحق.. أنها محظوظة، ما زال يدللها كعذراء سيأخذها بحذر أول مرة. لم تفكر فيه مرة إلاّ ويمد يديه نحوها، حتى لو كان

يحر في سبات عميق، من يرى خشونة مظهره لا يمكنه تخيل رقته وحنوه خاصة هنا، وقدرته على إرضائها ومعرفته بدروبها الخفية، بدءاً من مس حلمة الثدي الأيسر، إلى الإقلاع بصحبتها صوب الرفارف العلا.

أحتاجت إليه هذا العصر، عبر إليها بيسر، تماماً كما جرى ليلة وفاة والدها، لا تستعيد لواذها به إلاّ وتقشعر رغبة وتتقد نشوة. يتعلق كل منهما بالآخر في ظروف الكرب، تماماً كالمناسبات المبهجة، يكتمل تواجهما، وتتحد مداراتهما.

قالت بعد تمددها راضية، مرضية، إن الأمر جد وإنها تتوقع الأسوأ. قال إنه يوافقها تماماً لكن.. المهم الآن هو التفكير في كيفية المواجهة، أول ما ينبغي الالتزام به.. الثبات وعدم إظهار الضعف ثم.. سلوك الطرق القانونية.

لزمن طويل سوف يستعيد نظرتها الحزينة، ولهجتها الأسيانة.

«أي قانون؟».

جرس الهاتف رن أربع مرات. عند رفع السماعة ما من مجيب، لكن.. يبدو الخط مفتوحاً، أحياناً تتردد أنفاس نائية، قبل الغروب جاء صوت الجواهري مواسياً، مشاركاً، قال إنه لم يتصور حدوث ذلك للأصيلة بنت الأصول. ما جرى علامة، ما يرجوه.. الانتباه، الحية خبيثة، سامة، لدغتها وعرة.

اتصل شخص آخر، قال إنه فاعل خير، ينصح الهانم بعدم الحضور بالعربة السوداء.

عندما سمع الزوج صوت آخر رفض الإصغاء إلاّ إذا أعلن المتحدث عن اسمه. في الليل اضطر إلى إيقاظها مرتين، في الثانية سقاها كوب ماء، تساءل مهدهداً..

«ما لك .. ما لك يا حبيبتي ..؟؟».

آنسها ذلك، في الصباح بدت أهدأ، أعدت الإفطار المعتاد، شاي بالحليب، وفول مدمس مهروس، وجبن دمياطي أصلي، مازال أهلها يرسلون إليها علب الصفيح بداخلها الجبن المدسوس فيه قرون الفلفل الحراق وأنواع الحلوى التي اشتهرت بها دمياط مثل هريسة أبو ستة ومشبك أبو طبل.

حتى الآن لم يصدر قرار بمنعها من دخول المقر مثل الجواهري، لكن.. إلى أين؟ لا تريد الظهور في أي مكان لم تعتد الذهاب إليه أو التردد عليه، خاصة أنها كانت قليلة المخالطة لزميلاتها حتى وُصفت بالترفع، كل خطوة مرصودة، محسوبة..

إلى أين؟

آه .. إلى المكتبة.

مكان لم تتعامل معه إلاّ نادراً، كانت تعبره بسرعة، لم تدخله إلاّ مرة واحدة بحثاً عن الأصل الإنكليزي لرواية «جين اير» المقررة على ابنها الأفريقي، بعد تبادلها التحية مع المشرفة تساءلت عن صحف الأسبوع الماضي؟ ابتسمت السيدة بود، قالت إنها كانت تتمنى تقديم مساعدة لكن منذ عشر دقائق فقط جاءت تعليمات بإجراء جرد مفاجىء.

إلى أين؟

إلى أي مكتب تأوي؟

العيون كافة ترصدها، الكثيرون يتجنبون الحديث إليها، خاصة النساء، من الأحوال سريعة الرصد في المؤسسة طبيعة الصلات بين المستويات الأعلى والأدنى. من المقرب؟ من الذي بدأ إبعاده؟ من تغير خاطر سيادته عليه؟ زاد الأمر مع عزلة الرئاسة في الطابق الثاني

عشر، وبدء احتجاب رئيس المؤسسة تقريباً، وتزايد نفوذ صفية، حتى أنها أصبحت المرجع في الغضب والرضى، بل إن بصاتها ونوعية لهجاتها عند مخاطبتها العاملين تفسر وتؤول، بعض العاملين في الطابق العلوي يحرصون على إبداء مشاعرهم المتطابقة مع موقف سيادته من هذا أو ذاك، ولا يجدون حرجاً في تناقضها أو اختلافها، إنهم مجرد ترديد.

آوت إلى دورة المياه، أمضت وقتاً، تطلعت إلى المرايا، رصدت تعبها، وحيرتها، قدومها اليوم خاطىء، لن تأتي غداً، سترقد في الفراش، وتبلغ الإدارة الطبية مرضها، أو تطلب إجازة، رصيدها السنوي يسمح ولكن إلى فترة محدودة، عند خروجها تجاهلت نظرات الأشموني وتحفزه، وعدوانية رجال الأمن، أحدهم تطلع إلى حقيبتها سافراً، لكنها لم تعبأ، لا تعرف ماذا يمكن أن يحدث غداً. عندما استقرت في العربة، تطلعت إلى المبنى، أغلى سنوات عمرها موزعة هناك، ترى.. ماذا يُدبر لها فوق؟

فيما بعد قالت لإحدى صديقاتها المقربات، إنها لم تتخيل قط أن الأمور يمكن أن تصل إلى الحد الذي وصلت إليه، لم يخطر لها ما جرى.. لا من قريب، ولا من بعيد.

إهانة ..

من تصور ذلك يوماً؟

ولا حمدي الإزميرلي في ذروة قوته أقدم على مثل ذلك، ما جرى جديد على أنواع الأذى التي عرفها الجميع هنا، تفاصيل عديدة متداولة عن قسوة المؤسس وضراوة انتقامه من خصومه الذين عارضوه أو حاولوا إلحاق الأذى به.

الجواهري نفسه لا ينكر ما تردد حول واقعة خالد، الشاب، خريج كلية العلوم، جامعة الإسكندرية، أول دفعته في الرياضيات، جرت عادة المؤسس - رحمه الله - على تتبع المتفوقين في تخصصات معينة لا رابط بينها، هندسة، اقتصاد، علوم، علوم أخرى شتى. يبادر إلى مساندة غير القادرين، بعد تخرجهم يعرض عليهم العمل بمرتبات مغرية، أو تمويل المنح الدراسية بالخارج، شرط التحاقهم بالمؤسسة بعد عودتهم.

تحدث سيادته مراراً عن ثراء مصر بالمواهب وذوي الإمكانات، كل ما يحتاجون إليه الفرصة والمناخ، لكم تساءل عن سر نبوغ المصريين في الخارج، وفشل بعضهم في الداخل؟ سرعان ما

يجيب: إنه المناخ، لو وجدوه لأعطوا بلا حدود.

خالد أحد الذين اهتمّ بهم المؤسس، بدا هادئاً، خجولاً، يميل إلى انطواء، يُسمع صوته بمشقة لرقته، لكنه ذو جلد وتحمل، كان يمضي أحياناً ثماني عشرة ساعة يومياً، بعد فترة قصيرة وضح إهتمام أجهزة الأمن به، ردد البعض أن رجال المباحث السرية يتقصون عنه، يجمعون أخباره، لم يكن الإزميرلي التحق بالعمل بعد.

الحق أن المؤسس ـ رحمه الله ـ لم يعبأ بأجهزة الأمن في العصر الملكي، لكن بعد الثورة واستقرار الزمن الجمهوري كفَّ عن السخرية منها، أو التقليل من شأنها، لكنه لم يسع إلى التقرب من رجالها الجدد، وظل على كراهيته لها، المؤكد أن أحدها سدد له الضربة القاصمة التي أدت إلى المحنة الكبرى للثأر منه أو لتصفية حساب ما لم تعرف تفاصيله حتى الآن، ومن أقواله التي سارت كالأمثال:

«أجهل جهة بموضوع ما هي جهة الاختصاص به.. وأجهزة الأمن في المقدمة..».

لكن.. يظل هذا كله من قبيل التخمين!

بدأ ينتبه إلى تحركات خالد، إلى الهدف الحقيقي من بقائه تلك المدد في المؤسسة يومياً، تأكد بوسائله الخاصة، إلى جانب تقارير الأمن أن خالداً عضو قيادي هام في تنظيم سري، يساري، متطرف، يؤمن بالحتمية التاريخية. استوثق أيضاً أنه وراء العديد من الإشاعات التي استهدفته شخصياً، بما يؤدي إلى هزّ صورته القيادية على المدى البعيد.

أصدر قراراً بإيفاد خالد إلى أسوان في مهمة تتصل بالمناجم

المهجورة منذ العصر الفرعوني الأخير، وكان من أهداف المؤسسة إعادة تشغيلها واستخراج الذهب منها.

أبدى خالد حماساً أثار دهشة الجميع، المنطقة التي سيمضي إليها نائية، وعرة، لم يكن بمفرده، عضو في بعثة من أربعة عشر شخصاً، بينهم أخصائيين في التربة، المياه الجوفية، التعدين، الفلك، الدورة الدموية. طباخ خاص وسائق حافلة مخصصة للحركة في الأراضي الوعرة.

بعد خروج القافلة من أسوان بثلاث ليالٍ سرت أخبار في المقر بوقوع مشكلة. لم يعرف أحد أي تفاصيل في البداية، راح كل شخص يروي ما جرى بطريقة أو أخرى، لكن المضمون لم يختلف من هذا إلى ذاك.

كثيرون استعادوا ملامح خالد الهادئة، المنطوية، راح البعض يتلمسون ما يؤكد الواقعة، تعجب آخرون، لكم أتقن إخفاء شذوذه، لكن الرد كان منطقياً، وهل أتيحت الفرصة ليبديه؟

يعلق أحدهم: لكن .. هل كان في حاجة إلى قطع هذه المسافة كلها ليمارسه؟

تؤكد إحدى العاملات أن قشعريرة تنتابها كلما اقترب منها أو تحدث إليها.

ارتبط ترديد اسمه بهذا المشهد الذي لم يعاينه أحد، عندما دخل رئيس البعثة إلى الخيمة، فوجىء بالطباخ النوبي فوقه.

أثبتت الواقعة، وأدلى الشهود بأقوالهم بعد قطع البعثة أعمالها والعودة إلى أسوان، لم يتخذ أي إجراء في القاهرة، بل إن المؤسس ـ رحمه الله ـ لم يأت على ذكر الواقعة في الاجتماع الأسبوعي، لم يقرب خالد المقر، اختفى، لم يتسلم حتى ملف خدمته الذي

يضم الوثائق الخاصة به، ما زال في محفوظات إدارة شؤون الأفراد. انقطعت أخباره تماماً.

فيما بعد قال الجواهري إنه التقى به صدفة، علم منه افتتاحه متجراً لبيع الأثاث في دمياط بعد هجره العمل، والبحوث، والعمل السياسي، أشد ما يثير رعبه اعتقاله، دخوله السجن مسبوقاً بما تردد عنه.

لم يعرف أحد مدى صدق الجواهري، كثيراً ما ردد أموراً بعينها يريد المؤسس إشاعتها أو تداولها لأهداف لا يعرفها أحد، على أي حال ترددت الشكوك حول الواقعة، مع مرور الوقت أصبحت تروى كدليل على قسوة المؤسس ـ رحمه الله ـ وغرابة انتقامه.

هل ألمت صفية بمثل هذه الوقائع في ماضي المؤسسة؟ إن ما جرى منها تجاه هانم يؤكد إتقانها لتلك الأساليب، بل.. وقدرتها على الإضافة.

حدث أن تلقت هانم الدمياطية مظروفاً أنيقاً أبيض يتضمن دعوة إلى تناول العشاء بفندق سميراميس، خطوة مفاجئة لم تتوقعها خاصة بعد أن جرى لها ما جرى، بعد اضطرارها إلى طلب إجازة درءاً لنظرات التشفي أو الشفقة.

مظروف تأملته طويلاً، لم تتسلم مثله إلاّ مرات قليلة خلال سنوات عملها، في المناسبات أو عند زيارة وفد أجنبي، أو توقيع صفقة ضخمة، يحوي بطاقة مذهبة الحواف، الحروف سوداء بارزة، أما المناسبة فحضور محافظ القاهرة وكبار المسؤولين عن إدارة العاصمة للتعارف وتوثيق الصلات.

لا بد أن الأمر يتصل بدور المؤسسة في حفر خط النفق الجديد. أو ربما يتم التخطيط لتعاون ما. أو استصدار قرارات تخص مساحة

الأرض المطلة على النيل جهة المعادي والتي كثر الحديث عنها خلال الشهور الأخيرة، عن عزم سيادته على بناء مقر هائل الاتساع، عظيم الارتفاع، وتردد إعتراض هيئة الطيران المدني لخطورته على حركة الطيران..

لكن .. الأهم من ذلك، لماذا يتم توجيه الدعوة إليها؟ أي دافع؟ هل ثمة نية لرد الاعتبار، هل وجهت الدعوة من وراء صفية؟ أم أن الأمر أبعد من ذلك؟؟

مهما كانت الدوافع، فلا بد أن تلبي، ظهورها مهم في مثل هذه الظروف، خاصة أن سيادته سيحضر بنفسه، تشير البطاقة إلى اسمه كداع، لكن الأهم أن عبد النمرسي اتصل بها في البيت وأكد على أهمية حضورها، صحيح أنها لا تطيقه، تشمئز منه، بل إن جزعاً يتنابها لمجرد تردد صوته عبر الهاتف، وكأن أصداءه تدنس بيتها، بدا مهذباً جداً، أنهى حديثه القصير بتساؤل عما إذا كانت ستشرف الحفل؟ قالت بسرعة: طبعا.. طبعاً.

ناقشت الأمر مع زوجها ظهر اليوم نفسه، واتفقا على الذهاب، سيصحبها إلى الفندق، ثم يمضي لقضاء بعض الحاجات ويعود بعد ساعتين، فإذا لم تكن فرغت بعد سينتظرها في البهو، عند ظهورها بدت متألقة، زاهية، حتى أن الأنظار تعلقت بها، كانت ترتدي سترة من قطيفة خضراء اشتراها زوجها من متجر صغير في شارع جاكوب بمنطقة سان جرمان الفرنسية، متجر يصنع تلك الملابس اليدوية، عندما رآه معروضاً خلف زجاج الواجهة، قال بصوت مرتفع: يليق بهانم..

لم يتردد رغم ارتفاع سعره، المصنوعات اليدوية نادرة، خفف هذا من شعوره بفقدها، قال إنه طوال رحلته كان يتعجل اللحظة التي سترتديه فيها.

يعجبها ذلك، دائماً يفاجئها بما لم تتوقعه، لمسة حانية، كلمة رقيقة، بادرة.. كأنهما ما زالا زمن خطوبتهما، إفتقدته حقاً أثناء جلوسها إلى المائدة الثانية إلى يمين المنضدة الرئيسية التي جلس إليها المحافظ ونائبه، وثالث يرتدي ملابس مدنية سمعتهم يقولون له: سيادة اللواء، كما توقع كثيرون لم يحضر سيادته، أناب عنه البروفيسور مما عد إشارة واضحة إلى صعود نجمه وطلوع سعده مرة أخرى بعد أن خبا ذكره زمناً إثر تولي سيادته، توقّع كثيرون وصوله إلى مرتبة الرجل الثاني في المؤسسة، وعدّ حضوره ذلك العشاء علامة، أما صفية فكان موقعها المنضدة الرابعة، لم يكن الجلوس صدفة، إنما حدد لكل شخص مكانه وكُتب على لافتة صغيرة بيضاء، حرصت هانم ألا تلتقي عيناها بها، حادت عن مكانها طوال العشاء، وأبدى الجميع ترحيباً خاصاً،بل صافحها بعضهم بحرارة متعمدة، تقبلت حفاوة عبده النمرسي حتى، ينشط في مثل هذه الظروف، إنه المسؤول عن تنظيم الدعوات، والاتصال بالفنادق، وإدارة مسجد عمر مكرم عند وقوع حالات وفاة، كل ما كان يؤديه عطية بك أتقنه بل ويشهد البعض أنه تفوق عليه، غير أن ما يثير الغبار حول جهوده ماضيه وحاضره باعتباره قوّاداً محترفاً.

بدا الأمر لهانم كأنه رد اعتبار بدرجة ما، ربما كانت انتشار القليوبي وراء ذلك، وربما سيادته شخصياً، صحيح أنه شبه غائب باستمرار، لكن لا تفوته شاردة أو واردة، بل إن أدق التفاصيل تبلغه فور وقوعها. ويؤكد الكثيرون أن الواقعة الواحدة تصل إليه عبر عشرة أشخاص على الأقل، وأن حمدي الإزميرلي يدير الأمور من بعيد، رغم تقدمه في السن، إلاّ أن مثله لا يحالون إلى التقاعد حتى وإن تجاوزوا العمر القانونية، لا بد أن سيادته لم يرض عن الطريقة

التي عوملت بها، بالتأكيد فإن دعوتها وجلوسها في هذا المكان مؤشر على تراجع مكانة صفية ولو بقدر ضئيل، ليس من المعقول أن تكون راضية عن جلوسها في هذا الموقع، المتقدم بل عن قدومها أصلاً، غير أن ما جرى نهاية العشاء بدا مفاجأة مروعة لها، مفاجأة لم تعد لها ولم تتأهب..

عند أنصراف المدعوين، ولحظة تجاوزها قاعة المطعم الأنيق، المطل على النيل من خلال واجهة زجاجية عريضة، تقدم منها شاب أنيق فندقي الحضور، خاطبها بأدب شديد، قامة منحنية، وعينان متجهتان إلى الأرض، صوت خفيض، لكنه يحوي أمراً ونذيراً، قال إنه يطلب الحديث إليها في أمر هام بعيداً عن القوم حتى لا يلفت الانتباه.

بعيداً عن المدعوين؟ حتى لا ينتبه أحد؟ ماذا يعني ذلك؟ بدت حادة، أمكن سماع صوتها بوضوح لمن يقف آخر القاعة، لا بد أنه يقصد شخصاً مختلفاً.. إنه لا يعرف إلى من يتحدث بالتأكيد.

قال بهدوء إنه يعلم جداً بمكانتها وقدرها، لكن الظروف ضاغطة، وكل ما يريده استفسار.. مجرد استفسار.

بدأت أطرافها ترتعش، أدركت أنها في مواجهة شيء كريه، غامض، لم تعرفه من قبل، لم تكن ملمة، لم تستطع حتى التخمين، لكن غضبها بدا كغطاء وقائي يستهدف الصد.. دفع ما تجهله، أصرت على أن يبدي ما عنده، لن تخطو بصحبته خطوة واحدة، هنا.. وهنا فقط. مد يديه، تلامست أصابعه، تطلع إلى الواقفين، معظمهم من رجال المؤسسة، عدد من الموظفين الذين صحبوا المحافظ ولا يعرف أحد مواقع عملهم بالضبط، من المنضدة الرئيسية لم يتبق إلاّ سعادة اللواء، أما صفية فلم يدر أحد من أي باب خرجت؟

تطلع الشاب المهندم وكأنه يعتذر للجميع عما سيضطر إلى قوله إزاء إصرار الهانم..

قال إنه يأسف لذلك، ولكنه مضطر إلى توجيه سؤال إلى سيادتها عن الملاعق والشوك التي تناولت بها الطعام؟

ازدردت هانم الدمياطية نظراتها، وقطرات تبلل فمها وحلقها، هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟

استمر الفندقي المهذب، قال إن الهانم طلبت طقم عند جلوسها وأثار ذلك دهشة من يتولون الخدمة، فلم يحدث قط أن تُرك موضع أمام ضيف بدون أدوات.

تقدم عبده النمرسي غاضباً، قال: يعني.. ماذا تقصد؟

تطلع إليه الفندقي، طلب إجابة سعادتها فقط. هنا رفع النمرسي إصبعه محذراً، إن ذلك يعني اتهام سيدة من أشرف سيدات المؤسسة، بل من وجوه المجتمع. في حالة ثبوت عدم صحة هذا الاتهام..

قاطع الفندقي منبهاً: ليس إتهاماً..

بدا النمرسي شرساً في رده: لا .. إنه اتهام واضح.. وبالسرقة أيضاً، إن إدارة الشؤون القانونية في المؤسسة ستتولى رفع الدعوى.. وسيتكبد الفندق خسائر لا يتصورها..

أحنى الفندقي رأسه، كأنه يستسلم إلى أمر واقع، هنا تقدم النمرسي تجاه هانم الدمياطية، تساءل بصوت مرتفع: هل يكفي فتح الحقيبة؟

أومأ الفندقي ..

تطلع النمرسي إلى هانم الدمياطية مبدياً الرجاء، مردداً أن المؤسسة كلها ستثأر لهذه الإهانة، وتلك الوقاحة..

شدة الأزميرلي

... «بمجرد فتح الحقيبة متوسطة الحجم، الأنيقة رأى الجميع بما فيهم سعادة اللواء، ثلاثة ملاعق فضية، وثلاثة شوك، متدرجة الأحجام، كل منها يحمل شعار الفندق».

«.. بعد فتح الحقيبة ظهرت الأوراق، والأدوات المسروقة، وعلبة سجائر، ولاعة ذهبية نادرة تم التحفظ عليها أيضاً، وأنبوبة مرهم لعلاج إلتهابات المهبل، وحوالي مائة جنيه نقداً»..

«.. في البداية أنكرت بشدة، رفضت مجرد المساس بها أو بحقيبتها، لكن عندما ظهر ضابط شرطة برتبة كبيرة وخاطبها بحزم منبهاً إياها إلى خطورة موقفها، فتحت الحقيبة بعصبية، تساقط منها الطقم المختفي، وعلبة أغطية عازلة للرجال، ومفكرة تحوي أرقام هواتف في عديد من بلدان الخليج الثرية»..

لفترة طويلة تناقل الكثيرون تفاصيل شتى، بعضها حقيقي، والآخر لا أصل له ولا صحة، مع مرور الأيام أكد البعض أموراً لم يذكرها أحد في البداية، من ذلك إصرار مدير الفندق الأجنبي على تفتيش هانم ذاتياً، استدعى بالفعل ثلاثة من العاملات المصريات،

سبق لهن الخدمة في السفارة الأميركية، فمن بالبحث داخل جسدها من وراء ومن قدام!

لم يصغ أحد إلى توسلات النمرسي، بدا مضطرباً، منفعلاً، راغباً حقاً في وضع حد لما يجري، حير ذلك الكثيرين فيما بعد وأولهم صفية طبعاً، حتى أنها توعدته على مسمع، وأكدت أنها ستريه أياماً أسود من قرن الخروب.

لم يلتفت مدير الفندق إلى تدخل اللواء الذي كان بصحبة المحافظ والذي علل الأمر بمرض نفسي معروف، ألم يسمع أحد عن أميرة عربية ضبطت متلبسة في متجر بلندن مع أنها تتردد عليه دائماً وتشتري منه بالآلاف، هذا مرض معروف، له مواصفات في مراجع الطب، المدير أصر، راح يردد بعربية ركيكة.

«الأصول.. أصول»

غير أن هذا كله تغير مرة واحدة عند ظهور حمدي الأزميرلي، لم يكن مدعواً، ولكن يبدو أن النمرسي استنجد به بطريقة ما، وقف عند مدخل القاعة بقامته الممتلئة، نظرته المتعالية بتكلف لا يخفى، همس في أذن المدير العام ثم انسحب في هدوء، بعد دقائق شوهدت هانم تجتاز مدخل الفندق بصحبة زوجها الذي لم يدر أحد متى جاء بالضبط؟ الأزميرلي لا يمكث بالمؤسسة خلال العامين الأخيرين، له مكتب مستقل، في الطابق السابع، نوافذه مغلقة دائماً، مسدلة الستائر، لديه ثلاثة خطوط للهاتف، اثنان غير مدرجان بالدليل العام، وخط مباشر إذا رفع سماعة الجهاز أخضر اللون فإنه يرن الناحية الأخرى في غرفة عمليات جهاز سيادي هام، أما الأحمر فمتصل بالطابق الثاني عشر مباشرة، ولا يمر عبر مكتب صفية أو انتشار القليوبي، رغم أنه محتجب إلى حد ما عن الأنظار إلا أن ظهوره في أي وقت، في أي منشأة، سواء تتبع المؤسسة أو لا

تتصل بها كفيل بإثارة الاهتمام على الفور، ظهور مدجج بتراثه الطويل.

يعتبر الأزميرلي من أغمض العاملين، تاريخ إلتحاقه غير معروف بالضبط، كذلك تخصصه، يقدم نفسه أحياناً على أنه ملتحق بالمكتب الخاص، ولكن الثابت أنه لم يمكث بالطابق الثاني عشر أكثر من فترات تردده النادرة، العابرة، بل يعلم كبار المسؤولين أنه لم يسع إلى الإلتحاق بالطابق الثاني عشر على الإطلاق، بل إن فرصاً عديدة سنحت له لكنه اعتذر بلباقة مما أدهش وأثار التعجب، فالتطلع إلى الاستقرار على مقربة من سيادته أمر لا ينأى عن كل ذي مطمح، بل إن بعض الباحثين رصدوا ما يمكن تسميته أعراض الثاني عشر، وتلك لا تحل إلا بالعاملين في المؤسسة أو ذوي الصلة، وتختلف طبقاً للموقع، فالمتطلعون إلى الصعود يعيشون حالة انتظار دائم قد تستمر عدة سنوات وربما تمتد إلى نهاية الخدمة، حتى الإحالة إلى التقاعد، وبعض هؤلاء يتشبهون بأهل الثاني عشر، كالمشي بتؤدة، والتطلع على مهل، والإصغاء مع الإطراق ونظرة شرود مصاحبة، القلق الدائم والنظر إلى بعيد.

أما المستقرون فعلاً أياً كان مستواهم الوظيفي، بدءاً من السعاة وحتى كبار العاملين فتختلف الأعراض عندهم، إضافة إلى ما سبق وصفه، يُقال إن معظمهم يُبقي أبواب المكاتب مفتوحة، أو مواربة قليلاً، على أمل رؤية سيادته أثناء خروجه أو دخوله، أما الأمنية الأعظم، والرجاء المنتظر فهو توجه نظره هنا أو هناك، أما الإيماءة أو التحية من جانبه فتعني أمتزاج القريب بالبعيد، وتوحد الظاهر بالخفي، لم تعرف المؤسسة رئيساً مرهوب الجانب مثله رغم أحتجابه معظم الوقت، وربما ساعد ذلك على أتساع الهوة وقيام الحاجز، غير أن الأعراض التي لاحظها بعض الخبراء الأجانب تبدل

ملامح أهل الثاني عشر، بعد مضي وقت يختلف من إنسان إلى آخر، شيئاً فشيئاً تنأى الملامح الأساسية، الأصلية، وتميل إلى ملامح سيادته، بدءاً من طريقته في الإصغاء إلى حركة يديه، وتراجعه إلى الوراء عند إبداء السرور أو الدهشة، ثم يثقل الحاجبين ويصبح الأنف أكثر حدة، أما الفم فلا يرى إلا مزموماً معظم الوقت، رغم أن تلك الملاحظة نسبت إلى خبراء أجانب اتصلوا بالمؤسسة فترة من الوقت، إلا أن البعض يشك في الأزميرلي، ربما كان مصدرها، إذ عُرف عنه إطلاقه بعض الأوصاف والتشبيهات والشائعات أحياناً، يرددها على مسامع بعض من اختارهم بدقة مثالية، والمثير بالنسبة لرجال الأمن ـ حتى الأغراب الذي يتخذون من السفارات والقنصليات أماكن لهم ومقار ـ قدرته الفائقة على أعتزال الآخرين، والانتشار بينهم في الوقت نفسه.

معروف أن الأزميرلي رجل أمن رغم أنه لا يعمل في أجهزة الأمن مباشرة، بدأ حياته العملية في المؤسسة، ويقال إن المؤسس كان على دراية تامة بماضيه المشين في الجامعة، لكنه سعى إليه، ومنحه مكافآت شتى كانت سبباً لاعتراض الجواهري، ويبدو أن المؤسس ظن ذلك وسيلة للتقرب من مسؤول كبير بجهاز سيادي، يمت إليه الأزميرلي بصلة قرابة. لكن هذا لا يفسر بشكل كاف تلك الصلات التي يتمتع بها، وتلك القدرة على إلحاق الأذى بالآخرين في فترة وجيزة جداً، وهل يمكن نسيان ما جرى لوديع البراموسي وفهيم القفطي ومنير الشطبي؟

وديع البراموسي رجل تجاوز الخمسين وقت وقوع المحنة لثلاثتهم، التحق بالمؤسسة مصمماً لأقمشة النسيج الصوفية، خريج قديم من كلية الفنون التطبيقية. مشهود له بالكفاءة، والقدرة على بذل الطاقة، ومسايرة أحوال الآخرين، والبعد عن الشبهات أو ما

يمكن أن يوحي بها، محترف لعب طاولة، يتردد بانتظام على مقهى قرب دوران شبرا، إذا سمع من يتحدث في السياسة يقوم على الفور، ليس في السياسة فقط، إنما أي موضوع عام حتى لو كان عن المواصلات أو الأسعار، كان كتوماً، لا يظهر ما بداخله، لكن عرف عنه رغبته في خدمة الآخرين، وإسداء المعروف، وحرصه على تأدية الصلاة يوم الأحد في الكنيسة، وإرتداؤه الملابس الصوفية صيفاً وشتاء، كان يردد «ما يحوش البر.. يحوش الشرد»، ولسنوات طويلة لم يغير لون ربطة عنقه، أزرق داكن، ويبدو أنه رباط عنق واحد، لأن حوافه اكتست لمعة القدم، كان سماعه بنبأ اعتقال شخص ما إذا أتيحت الفرصة، أشبه بمن يصغي إلى حدث يجري في المريخ، بعيداً عنه إلى أقصى حد، كان هادئاً لا يُسمع له حس، ولا يكاد يُلمح له ظل عند ظهوره.

أما فهيم القفطي فمحاسب مرموق، عمل بهيئة قناة السويس وكان يتقاضى مرتباً مرتفعاً إلى جانب مزايا متعددة، بينها سكن مجاني في بيت مستقل تحيطه حديقة، إلتحق بالمؤسسة في ظروف غير معروفة، لكن يبدو أن أهمها عدم قدرته على الاستمرار في منطقة القناة وتفضيله سكن القاهرة.

كان ممتلئاً، مزدهراً عن شبع مبكر وخلو بال، متقدم الصدر، دائم المرح، لا يدخل غرفة أو صالة إلا سمع صوته عن بعد، يوقف زملاءه في الممرات أو فوق السلالم ليروي لهم أحدث النكات، معظمها جنسية، لديه قدرة على توليدها وصياغتها، النساء يفضلن الإصغاء إليه، بعضهن لا يخفين بهجتهن عند ظهوره، حتى عائشة الحرانية التي تحجبت في وقت مبكر، تقابله مبتسمة، تلوح له من بعيد براحيتن متضامتين، أصابع متشابكة، إنها لا تصافح الرجال، لم يُعرف فهيم القفطي بأي ميول سياسية، بل إنه تجنب بمهارة

وذكاء دخول الاتحاد الاشتراكي، وفيما بعد حزب مصر، والوطني الديموقراطي، لم يكن يعلق إلا نادراً، لكنه يضرب المثل أحياناً بجماعة مايو الذين كانوا في قمة السلطة ثم أصبحوا في السجون خلال ساعات.. يعلق بسرعة: من يضمن من؟ كان يمت بصلة قرابة إلى أحد شيوخ الأزهر السابقين، بعد أن جرى له ما جرى قال صالح السدوسي الشيوعي القديم إنه بعد خروجه من الحبسة الثالثة التي أمضى خلالها عامين متصلين ومر خلالهما بشدائد نالت منه، أنه بعد عودته إلى المؤسسة وتسلمه العمل وتوقيعه إقرارات عدة، منها إقرار بعدم السفر خارج القاهرة، وآخر بامتناعه عن الصعود إلى الطابق الثاني عشر حتى لو طُلب منه ذلك، وثالث بضرورة نأيه تماماً عن الفتحة الدائرية، قال: إنه تطلع كثيراً وطويلاً إلى فهيم القفطي ويجري المقارنة ويوشك أن يحسده على هدوء باله، وفيض مرحه، ويردد لنفسه: مثل هذا لا يعرف المعتقلات أو التعذيب، أو المطاردة.. يؤكد صالح أنه لم يتصور قط فهيم في ملابس المعتقل، أو يخضع لإستجواب من أي نوع في أي لحظة من حياته.

أما منير الشطبي فكان مثالاً للإتزان، حتى أن المؤسس أطلق عليه ساخراً «القانوني» إنه لا يحيد هنا أو هناك، لم تتسع خطوة له عن الأخرى طوال حياته، يبدو وكأنه يمشي على خيط نحيل، معلق، لا يُرى، لا يلتفت إلى الوراء إلا نادراً، يبدو كامل الصيانة، ينقطع ساعات عمله محملقاً إلى الدفاتر، كان من أكفأ رجال الحسابات، يمكنه إجراء أعقد المسائل من طرح وضرب وقسمة وجمع بدون الاستعانة بقلم أو ورقة، عرض عليه النمرسي الظهور في برنامج تليفزيوني وإجراء العمليات المعقدة على مرأى من الجمهور، رفض بحدة قاطعة وغضب أصم، مما حير النمرسي والآخرين، إذ أن حجم رد الفعل لم يكن مناسباً للعرض، كان

باستطاعته أن يرفض بكلمتين، ولكنه تصرف بعنف غامض، فيما بعد بدر منه ذلك عندما صدر قرار رئاسي يقضي بذهاب جميع موظفي أقسام الحسابات وإدارة المعاملات إلى قسم الحاسب الآلي بالشركة الموردة لتلقي دورات تدريبية على الأجهزة الجديدة باعتبار أن المستقبل للحواسب الآلية حيث سيدار كل شيء بها، بدءاً من الصواريخ عابرة القارات وسفن الفضاء وحتى أدق الأجهزة المنزلية.

منير الشطبي أبى، أعلن رفضه، جاهر به، واعتبر القرار الإداري موجهاً ضده، وأنه يمثل إهانة له، عبثاً جرت محاولة إفهامه الوضع، وفي النهاية كان لا بد من أحد أمرين، إما استثنائه من الدورات وبالتالي يعد ذلك انتهاكاً للأسس الراسخة، أو إبعاده عن إدارة الحسابات، هذا ما جرى رغم نصيحة الجواهري بالإبقاء عليه، مثله كفاءة لا تعوَّض، لكن تقرر نقله إلى إدارة شؤون الأفراد حيث أسند إليه مراجعة الملفات بشكل دوري، ظن البعض أنه سيحزن، سيضطرب أمره لكنه بدا يوم تسلمه عمله الجديد وكأنه يستأنف أمراً إعتاده، لم يختل انضباطه، وعبثاً حاول البعض رصد أي ملامح تغيير عليه، لكن لم يفت عائشة الحرانية أنه لم يعد يحلق لحيته بانتظام! لا يمكن لأي إنسان متصل بالمؤسسة أن يفسر اختيار الأزميرلي لهؤلاء الثلاثة بالتحديد كي يوجه ضربته التي ظلت حديث الجميع وشاغلهم فترة من الوقت.

لماذا وديع البراموسي وفهيم القفطي ومنير الشطبي.. لماذا؟ ما من شيء يجمع بينهم، بل إن كلاً منهم كان في حاله، غير متصل بالآخر، لكنهم فوجؤوا في ذلك الفجر الذي يبدو بعيداً نائياً الآن بطرقات تقضّ أيامهم وتحيد بمصائرهم.

عندما وصل فهيم إلى مبنى الأمن الخاص تحت الحراسة المشددة

دعوا به إلى حجرة تقع تحت مستوى الطريق العام، كان واثقاً أن الأمر يتضمن خطأ ما، ولم يشك قط في وقوع مكيدة، أو أنه راح ضحية بلاغ ما، لكن عندما فتحت تلك الطاقة الضيقة ودخل منها وديع البراموسي بهت، بدأ عنده خوف لم يألفه من قبل، أقرب إلى الوجود الوافد عليه، يمحوه على مهل، يحيله إلى مراقب من بعيد، يرصد ذاته منفصلاً.

عندما ظهر منير الشطبي أيقن، لم ينطق أحدهم بتحية، لم تبدر أي إيماءة، كأنهم لا يرون بعضهم، عند كل منهم ثقة أكيدة أن ثمة من يرقبهم، يدّون أي بادرة، كل ما يصدر عنهم يمكن أن يكون دليل إتهام.

الحجرة رمادية الجدران، الإضاءة الخافتة، الكابية، مجهولة المصدر، الأبواب الثلاثة، اثنان مغلقان، إلى أين يؤديان؟ البلاط الكبير، القديم، النمل الساعي فوق الجدران التي تساقط طلاؤها في بعض المواضع، تفاصيل ستحلق إلى الأبد بذاكرة كل منهم، كل ما يتعلق بالبداية لا يمحى في مثل هذه الظروف المباغتة.

حتى الآن لا يمكن لأي إنسان داخل المؤسسة أو خارجها أن يذكر أسباباً مقنعة تبرر إعتقال هؤلاء الثلاثة مرة واحدة، لا يمكن أيضاً التفسير، بالطبع ترددت أقاويل عديدة، منها مثلاً رغبة الأزميرلي في إثبات الأهمية وقوة نفوذه لأصحاب الشأن بالمؤسسة، لذلك وقع اختياره على ثلاثة لم يعرف عن أي منهم أدنى صلة بالسياسة، ثلاثة لا هموم عامة تعنيهم على الإطلاق، ولا توجد ملفات خاصة في أي جهاز أمني تخصهم، ورغم ذلك أمكنه بعد كتابة عدة سطور أن يزج بهم إلى ما وراء الشمس كما تعارف الجميع في المؤسسة، على وصف المكان الذي يساق إليه من يختفي

فجأة، أو من يتم اعتقاله لأسباب سياسية، أو لظروف غامضة.

قال آخرون إن الأزميرلي ليس بحاجة إلى مثل ذلك لإثبات نفوذه، إن صلته بالأمن معروفة، لا يخفيها، إنما يحرص على تأكيدها وإشاعتها من خلال النفي، وإشارات شتى، لكنه يكره الجميع، يكره نفسه حتى، وكما قالت السيدة نبيلة الشندويلى - أتيح لها الاقتراب منه لفترة - إنه كاره لجلد جسده، لبشرته، لا يطيق النظر إلى المرآة، خاصة إن تكوينه الجثماني عجيب، لافت، فرغم ضخامته إلا أن اختلالاً خفياً في تناسق أعضائه يجعله أقرب إلى الأطفال، فكأنه لم يتجاوز الثامنة، لكنه نفخ فجأة، تضخم ليصبح في هيئة رجل وحضور طفل، وجنتاه ممتلئتان، ورقبته غليظة، صدره بارز، مضطر إلى تفصيل ملابسه دائماً حتى بعد تطور الملابس الجاهزة وأنتشارها في الثمانينات، ليغطي حضوره الطفولي المغري بالسخرية يتكلف في مشيه، في حديثه، يضفي التجهم على ملامحه، يمشي متئداً، متمهلاً، لكن.. لا يزيد ذلك إلا من إتساع الهوة بين حقيقة مظهره وما يريد أن يكون عليه.. كثيراً ما تطلع إلى المرآة، يطيل التحديق إلى وجنتيه المنتفختين ورقبته القصيرة، الغليظة، يشد جلده، يغرز أصابعه فيه، يبغض ذاته.

تؤكد نبيلة الشندويلي التي عملت بالقرب منه ثلاث سنوات وبضعة شهور أنه يختار شخصاً معيناً، يحطه في دماغه، ليس من الضروري وجود سبب لهذه الكراهية الشديدة التي تبدأ فجأة تجاه إنسان ما، ربما يلتقي به صدفة أو يقع بصره عليه أثناء مروره بغرفة، أو ركوبه مصعداً، عندئذ يبدأ الإحاطة به، التدبير له، قد يستغرق ذلك أياماً، وربما سنوات، لكنه لا ينسى، لا يكل في سعيه إلى الخراب وقطع الأرزاق لمن يبغضهم بلا سبب.

هل يفسر ذلك ما صدر عنه تجاه فهيم القفطي ومنير الشطبي والبراموسي» ربما..

ربما لم يعجبه قوام أحدهم، أو أستفزه إيقاع صوته، أو طريقة مشيه، أسباب لا تخطر لأحد على بال، لكنها كفيلة بتحركه لإلحاق الأذى.

أحياناً يستيقظ مبكراً، خاصة أيام العطلات الأسبوعية والإجازات الرسمية، تتفجر داخله كراهية حادة، ليست موجهة ضد شخص بعينه، أو شيء له وجود مادي محسوس، تتزايد حتى لا يمكنه الجلوس أو المشي أو الخروج أوالدخول، لا الصمت يهدئه ولا الحديث يشفي غله، وهنا ينشط ذهنه بحثاً عن إنسان ما، ليوجه ضده تلك المشاعر.

يمسك الهاتف بعد اهتدائه إلى اسم ما، يتصل بمن تربطه بهم صلة، يشن هجوماً حاداً على سيىء الحظ الذي خطر بباله، يصوغ عباراته الحادة في جمل هادئة وكلما أمعن تتغير لهجته وتتنوع، أحياناً لا يكفيه الحديث عبر الهاتف، يرتدي ملابسه بسرعة، وقد يفارق بيته إلى الطريق بدون أن يغسل وجهه، أو يحلق ذقنه، يقصد مقهى اعتاد الجلوس به ناحية النزهة بمصر الجديدة، أو يتجه إلى النادي الأهلي الذي حصل به على عضوية شرفية بتدخل من الأمن الخاص، يلتقي بمعارفه، يحيد بالحديث حتى يذكر من وقع عليه بغضه، يتحدث عنه بانفعال، يصفه بقبيح النعوت، يصغي الآخرون إليه صامتين يجاريه بعضهم درءاً لأذاه، أو بدافع الدهشة، أثناء نيله من الضحية يرتفع نبضه ويتصبب عرقه وقد يسيل لعابه.

لا يخفي علاقته بالأمن الخاص، بل يحرص على التلميح إليها، وأحياناً يذكرها صراحة، وربما تباهى بها، إذا جرى حوار حول موضوع عام، يتابعه صامتاً وعلى شفتيه ابتسامة بها ظل من

أستخفاف، ومسحة سخرية، ومحاولة ثقة، وإذا بلغ الأمر حداً معيناً من الخلاف فإنه ينطق بعض الجمل ذات الدلالة، مثل:

«ثمة معلومات مؤكدة عندي لكنني لا أستطيع ذكر المصدر..».

«يمكنني أن أعطي إشارات.. لكن..».

«أنا مكلف بمهمة معينة لا يمكنني الإفصاح عن مضمونها..».

عند نطقه الجملة الأخيرة يتداخل دماغه بين كتفيه، يبرز صدره، يبدو تكوينه غريباً إضافة إلى اختلال نسقه، لكنه يفيض بمتعة غامضة وكأنه يمارس الحب بالمخيلة!

أحياناً، أثناء جلوس بعض زملائه ممن تقتضي مناصبهم ومسؤولياتهم التعامل معه بانتظام، أو بعض معارفه من الخارج، يرن الهاتف، إذ يصغي، يصيح بلهجة حادة، عسكرية الإيقاع..

«أفندم»..

ثم ينطق جملاً عامة، لا يمكن الاستدلال منها على شيء، ويعقب كل منها بلفظ «أفندم».

ربما يقف أثناء الحديث عبر الهاتف مقطِّباً ملامحه، مبدياً الحد الأقصى من الجدية، يندمج شيئاً فشيئاً، يتصلب جسده، يتحدث بلهجة الأقل رتبة الذي يواجه قائداً، أو ضابطاً رفيع الدرجة.

تذكر نبيلة الشندولي التي تعد مرجعاً دقيقاً في أخباره وأحواله، أنه أعتاد التغيب لمدة ساعة يومياً خلال الصيف الماضي، قال إنه يذهب إلى النادي لممارسة رياضة المشي، يلف «التراك» أربع مرات وهذا يعني قطعه لثلاث كيلومترات، يصف بدقة حرصه على السير بسرعة، وبوتيرة ثابتة، أنه حريص على خفض وزنه الذي زاد عن الحد.

بعد أيام من انتظامه بدأ يتحدث عن الشخصيات التي تمارس المشي في الموعد الذي اختاره، صحفيون في مواقع المسؤولية، رؤساء مجالس إدارات لشركات كبرى، رؤساء بنوك مشتركة، نجوم سينما، بل إن وزير الخارجية يجيء في موعد معين، لا يتقدم ولا يتأخر، يلف التراك محاطاً بحرسه الخاص. حدث وأن تبادلا الحديث بشكل عابر، خاطف، لأسباب لا تخفى لا يمكنه البوح أو التصريح بما سمعه، كل كلمة من وزير الخارجية محسوبة بدقة.

يمضي الأزميرلي إلى النادي حاملاً حقيبة صغيرة داخلها الملابس الرياضية، أما الحمام فملحق بمكتبه، أربع حجرات معروفة في المبنى الأصلي، ملحق بكل منها حمام به دش، ماء بارد وماء ساخن، إحداها بالطابق الثاني عشر، لكن لا يعرف أحد على وجه الدقة، هل جرى أي تعديل بعد إعادة صياغة الطابق كله، يقال إن سيادته يمضي عدة أيام متتالية لا يفارق مكتبه، صفية تلازمه، بالطبع يوجد كل ما يجعل الإقامة رغدة، سهلة محببة، لم يعد الطابق بسيطاً، مفتوحاً كما كان الأمر أيام المؤسس، العاملون فيه لا يتحدثون كثيراً ولكن بعض التفاصيل تتسرب بين الحين والحين.

بعد عودة الأزميرلي يمارس بعض الحركات الرياضية، يفرد ذراعيه على امتدادهما ثم يثنيهما، أو يقف على أطراف أصابعه، يمضي وقتاً في الحمام، يخرج بادي النشاط، يتوقف بين الحين والآخر ليستنشق الهواء بعمق، ترتد ملامحه إلى مرحلة الطفولة تماماً، يغلق الباب ويحملق طويلاً في المرآة التي يحتفظ بها في درج مكتبه الأيمن، أحياناً يبدو مسروراً أحياناً يبكي، وفي كلتا الحالتين لا يمكنه هو تفسير الدافع.

لم يعبأ بكل ما بلغه بعد اعتقال القفطي وزميليه، كان على دراية تامة بما يقال عنه، بما يوجه إليه من اتهام، لا يسعى إلى النفي،

بل إنه ربما لمح في بعض الأحاديث العابرة ما يؤكد اقوال الناس، لم يكن مسموحاً بزيارة المعتقلين سياسياً وقتئذ، أو إرسال خطابات إليهم، كل الصلة تتمثل في ورقة صغيرة لا تحوي أي معلومات أو حروف، مكتوب عليها رغبات المعتقل وتوقيعه، كان مسموحاً بكتابة أنواع الأدوية أو معاجين الأسنان والحلاقة ومفردات الملابس الضرورية، أما الطعام أو الكتب أو الصحف أو أي شيء آخر فغير مسموح بالمرة، القيمة الأساسية، الحقيقية لهذه الورقة، وصول أثر من الشخص إلى أسرته، يتمثل في الخط وتوقيعه، يعني ذلك أنه ما زال حياً يسعى، هذه الورقة لم يكن مسموحاً بكتابتها طوال فترة التحقيق.

الغريب أن الأزميرلي تحدث إلى كثيرين، منهم الجواهري وعطية بك مجاهراً بتعاطفه مع المعتقلين الثلاثة، مبدياً دهشته لبعد كل منهم عن أي موطن للشبهات، بل إنه بادر بطلب تبرعات عينية ونقدية من الزملاء لإرسالها إليهم.

قال البعض همساً: ـ ومنهم الجواهري ـ إنه يقتل الضحية ويمشي في جنازتها.

بعد الشهور الستة التي أمضوها بعيداً، حرص على زيارة القفطي والشطبي وتهنئتهما بالإفراج، أرسل باقة ورد منتقاة بعناية إلى البراموسي الراقد في القصر العيني تحت الحراسة المشددة، بعد أنتهاء الإعتقال نقل إلى قسم المرضى العاديين، والغريب أن ذلك أدى إلى تدهور حالته! ما لحقتهم من تغيرات وتبدل أحوال صار مثلاً يضرب، القفطي لزم الصمت، يجيب على تحيات الآخرين حذراً، إذا اقترب أي إنسان منه يجفل تسرع دقات قلبه، يرد السلام وجلاً، نقص وزنه إلى حد اضطر معه إلى استبدال ملابسه كافة، بدا رأسه أكبر مع نحافة رقبته، إذا قابل الأزميرلي صدفة أو

جمعتهما مناسبة فإنه يداخل في بعضه، يطلع إلى الأرض، كف عن إطلاق النكات أو نقلها، كف عن إبداء المرح.

أما الشطبي فلم يسكت، إنما كان يسأل كل من يلتقي به، كل من يطاله: ما تظن أنني فعلته حتى جرى ما جرى؟

كان ينطق السؤال بصيغ متعددة، ولا يتلقى إجابة راضية أو شافية، بل كان يُقابل بنظرات مذعورة أحياناً، فطرح السؤال مقلق، والإصغاء إليه ربما يصبح موضوعاً لدعوى إتهام!

حتى الآن لا يدري أحد في المؤسسة كيف رتب الشطبي أموره خفية وسافر فجأة إلى تنزانيا.

كيف.. وماذا سيفعل هناك؟

أي اتصالات أجراها؟

لا يدري أحد، يعتبر الأزميرلي أن رحيله من أخطر الضربات التي وُجهت إليه طوال مدة خدمته، بل على امتداد عمره، في البداية لم يصدق، مكث يومين متصلين داخل مكتبه، لم يفارق الهاتف، اتصل بجهات عديدة وشخصيات مختلفة، بعضها مقيم في الخارج، تأكد من مغادرة الشطبي للبلاد صباح اليوم الثالث لإقامته المستنفرة، عندئذ سرت في جسده رعشة حمى.

الجميع تحاشوه، إتقوا أذاه بالمداهنة، بالمجاملة، بالابتعاد عنه قدر الطاقة، لم تكن رفقته مريحة أو مأمونة، المعروف عنه زواجه من ابنة رجل أعمال يتخذ مقراً له ببورسعيد، لكن لم يظهر بصحبة امرأته أو طفله الوحيد منها في أي مناسبة اجتماعية أو عامة من تلك التي أعتاد العاملون بالمؤسسة على حضورها بصحبة أفراد أسرهم، وهذا مما نظمه ودعا إليه المؤسس.

في الثمانينات خفت حضور الأزمرلي، لم يعد محوراً رئيسياً،

لكنه ظل في التمام، وبؤرة قلق، قال البعض إن ابتعاده قليلاً يرجع إلى تغير المناخ، فتعدد الآراء متاح، وصحف المعارضة تخوض في القريب والبعيد، والكل يقول ما يريده، وبدون أن يقصف قلم، أو يصادر فكر، هذا ما تردده أجهزة الإعلام باستمرار، وفي مناخ كهذا كان من المتوقع أن تزدهر أحوال المؤسسة وأن يعم ذلك على الجميع، لكن الأمور لم تكن على ما يرام وهذا أمر يطول شرحه، أكد البعض أن الأزميرلي لديه التفاسير كافة، وأنه ربما يظهر فترة أو يختفي أخرى، لكنه لا يفقد أهميته ولا يُهمل، إنه من نوعية خاصة يرتاح إليها العاملون في المناطق النائية من الأجهزة الأمنية، إن أختيار المتعاونين يخضع لشروط غامضة، بعضها مدون، والآخر متوارث، الجواهري نفسه، كثيراً ما تأمل أحوال الأزميرلي، ما الذي يجعلهم يثقون فيه هكذا؟ ماذا يقدمه إليهم؟ لكنه ينثني ليؤكد ما قاله دائماً إن مثل تلك الحالات لها قانون خاص يستعصي على الإدراك وإنه لو تقدم راغباً في القيام بما يؤديه الأزميرلي فلن يطول مكانته. رغم تاريخه المشرف، وخلف خدمته الذي يعد بحق نموذجياً، وإخلاصه الذي لا يمكن النيل منه للمؤسسه.

مثل الأزميرلي لا تتراجع مكانتهم، وهذا ما تأكد للجميع ليلة تلك الواقعة التي جرت لهانم الدمياطي، كانت ماضية إلى السجن لولا تدخله الحاسم وإتصاله بمن أوقف مدير الفندق الأجنبي نفسه عند حده، أكد ذلك مكانته، ومدى نفوذه، وأعاد إلى الأذهان حضوره القديم، لكن هذا كله لم يكن يعني شيئاً بالنسبة لرئيس المؤسسة الحالي، ذلك أنه بدأ من جهاز الأمن، ويؤكد العارفون المتكتمون، أنه الجهاز نفسه الذي يرعى الأزميرلي.

غير أن ما أسفرت عنه واقعة هانم الدمياطية لم يتوقعه أحد، ولا حتى أشد الناس قرباً من سيادته في الطابق الثاني عشر.

هموم أمامية

أكد الأشموني لصاحبه مفتش الصحة وهو يخبره بأدق ما يجري في المؤسسة أنهم فوجئوا بقضيب صناعي كبير الحجم محرشف يسقط من حقيبة هانم الدمياطية مما أذهلهم عن رؤية المسروقات في البداية، ثم تساءل وكأنه يحدث نفسه: من تصور هذا عن صاحبة الصون والعفاف؟!

وقال أيضاً: إن صفية الأنبوبي أزالت صورة المؤسس الموضوعة في إطار بيضاوي من عظام وحيد القرن الأفريقي من داخل المصعد الرئاسي، وتفصيل الأمر إنها تطلعت إليها صباح أمس وكأنها تراها لأول مرة، قالت:

«صورة من»؟

أجابها مسعد التميمي عامل المصعد القديم.

«إنه سيدنا».

«سيدنا من»؟

«صاحب هذا الهيلمان كله»..

أحتدت عليه.

«أجبني عدل»..

قال بخشية مبالغ فيها:

«المؤسس يا هانم»..

كأنها اكتشفت أمراً جهلته زمناً طويلاً، بعد لحظة قالت بحسم:

«عند انصرافي ظهراً لا أريد أن أراها»..

ثم قالت بسرعة:

«إنها باهتة الملامح»..

عندما نما ذلك إلى الجواهري في ركنه الذي لم يعد يفارقه بمقهى رشيدة السويسرية قال إنه يتوقع أي شيء في زمن استقرار العاهرات بالطابق الرئاسي.

قال الأشموني: إنها الآمرة الناهية الآن، إنها الكل في الكل، جرى ذلك في فترة قصيرة، بل إن حضورها الآن ليطغى عليه خاصة بعد تفويضها بالتوقيع بدلاً منه وهذا ما لم يُسمع به من قبل، ولولا ظهور أسمه أحياناً مرتبطاً ببعض الأوامر التنظيمية، ومجيء شخصيات قيادية وأجنبية للقائه لترسخ اليقين عند الكثيرين بغيابه تماماً.

قال الأشموني إنه لا يدري شيئاً عن الطريق الذي يسلكه لدخول المقر، للوصول إلى مكتبه، إلى الغرفة الدائرية إذا كانت باقية حتى الآن ولم تتبدل معالمها. لا أحد يعلم أي تفاصيل عن محتويات الطابق الذي تبدل تماماً بعد قيام الشركة الكورية بتعديلاتها لا يعرفها أحد، مما فتح الباب لأقاويل كثيرة بعضها مبالغ فيه مثل الزعم بوجود ممر حلزوني يصل المكتب بنفق مؤد إلى الحفرة الدائرية، ومثل ذلك لا حصر له. في زمن المؤسس، وفي

عهد خليفتيه الأول والثاني كان الطلوع إلى فوق متاحاً للجميع، لم يغلق باب سيادته قط.

جهات أمنية عديدة ترصد ما يجري، بعضها محلي والآخر دولي، تقارير تصاغ يومياً لقياس الرأي العام بين العاملين، اتجاهاتهم بالنسبة للقضايا العامة، وقرارات الإدارة وبعض الأحداث العربية أو العالمية ذات الصفة الخاصة، هذه التقارير للإستفادة بها في حدود ضيقة، يؤكد الأشموني إن الإدارة العليا لا تستجيب مباشرة إلى ما يجري بين العاملين، ترسخ ذلك في زمن الخليفة الثاني على أساس أن الرضوخ فيه ضعف وإقلال من الهيبة، بعكس المؤسس الذي سعى إلى التخفيف عن الصغار قبل الكبار والإصغاء إلى ما يدور في خواطرهم قبل النطق به، كثيراً ما تساءل في الاجتماعات الثانوية والمصيرية.

«ماذا يقول الناس.. ما طبيعة متاعبهم»؟

يسعى على الفور إلى تبديد الأسباب المنغصة، بل إنه لم يتردد يوماً في تقبيل دماغ عم جويلي معتذراً عن خطأ وقع في حقه، يقول البعض إن هذا زمن وذاك زمن، وما كان يصلح للماضي صعب تطبيقه الآن، المؤسسة الآن عشرة أضعاف ما كانت عليه منذ ربع قرن.

ثمة آراء بدأت تتردد مؤخراً بعضها منسوب إلى صفية الأبنوبي، تؤكد أن ما أبداه المؤسس من تواضع أو إنسانية في رعاية العاملين إنما كان تظاهراً ودعاية رخيصة، وثائق الطابق الرئاسي تثبت أنه كان قاسياً صخري القلب، تسبب في خراب بيوت كثيرة، لكم ذبح الضحية بيد وقدم العزاء باليد الأخرى. إن كتاباً يجري إعداده الآن عن الجانب الخفي لشخصية المؤسس، متى سيصدر، من سينشره، من مؤلفه؟

لا أحد يدري..

الأشموني حزين، لم يعد مسموحاً له بالصعود، لم يعد يتلقى أسماء الزائرين من المكتب الدائري مباشرة، سكرتيرة صفية تبلغه عبر الهاتف وأحياناً يصله مظروف مع أحد السعاة، كثيراً ما يتطلع إلى ضيوف الطابق الرئاسي عند انصرافهم، يود أن يسألهم، أن يستفسر منهم، هل شاهدوه فعلاً؟ هل صافحوه وتحدثوا إليه؟

ما يحيره، ما يتحدث فيه إلى صاحبه باستمرار، كيف يصل سيادته إلى مكتبه؟ كيف يغادر المبنى؟ إنه أول رئيس لا يراه أحد لحظة وصوله أو عند خروجه، صعب تقبله ذلك، هو الأمين على المدخل الرئيسي، المعايش لأدق وأكبر الأحداث. سنوات وقوفه أكسبته فراسة لا يمكن تحصيلها في أي معهد أو جامعة، لا يحتويها منهج ولا تستوعبها أدلة، منذ عامين تلقى دعوة من السفارة الأميركية لإلقاء محاضرات على العاملين في المكاتب الأمامية، سواء في المقر الرئيسي بجاردن سيتي، أو مقر سكنى العاملين في الزمالك والمعادي، بالطبع أدركه زهو، غير أن حذره لم يفارقه حيث أنه مقدم على الاتصال بجهة أجنبية، حرصه معروف، ذائع، بل إنه شكل وضعية كتفيه وطبيعة خطواته البطيئة وطريقة مشيه.

بدأ يتخذ احتياطاته، اتصل بأمن المؤسسة، أطلعهم على نص الدعوة، أوصى أحد العاملين القدامى للاستفسار من ابنه الضابط بجهاز الاستخبارات الخاص، قال: إنه يعلم العلاقة المتينة بين البلاد والولايات المتحدة، القوة الأولى في العالم، ويمكنه استنتاج حجم المعاملات بين المؤسسة والجهات التابعة، لكنها سفارة أجنبية أولاً وأخيراً وهو موظف عمومي ملتزم، لا بد أن يستأذن، في همسه فخر أيضاً بما بلغه من خبرة أصبحت موضع تقدير الخواجات.

عاد الرجل إليه، نقل تحيات ابنه إلى عمه الأشموني الذي يراه منذ طفولته، عندما كان يجيء بصحبة والده في الأيام الجميلة، البعيدة، كان المؤسس محباً لرؤية أطفال العاملين في المكاتب والممرات، يؤكد أن ذلك يقوي الألفة، ويوثق المحبة بين العاملين ومؤسستهم، لكم أثنى على من يضع صورة ابنه أو حفيده تحت زجاج المكتب أو في مواجهته، الرئيس الثاني أبطل هذا كله، منع مجيء الصغار حتى في الأعياد والمواسم، علل الأمر بضرورة الحفاظ على نظافة المقر ومظهره.

قال الرجل: إن ابنه الضابط يحيي الالتزام والانضباط الوطني، ليمضي إلى السفارة هادئاً، مطمئناً، عندما علم البروفيسور قال: ساخراً إن الأشموني ما زال يعيش بقيم العصر الشمولي الآفل، عندما كان المشي فوق الرصيف المحاذي للمبنى يعرض المرء للمساءلة وربما لتهمة التخابر.. الآن.. يسعى الكبار قبل الصغار إلى تلك السفارة لينالوا الرضا ويحظوا بالقربى! الأشموني قديم، عارف بالأصول، خبير بالرسوم، لا يقدم على خطوة إلا بعد إطمئنان ويقين، أما الذين عرفوه عن قرب مثل الجواهري فيقولون إنه يعيش خوفاً وحذراً دائماً، لهذا اختاره المؤسس - رحمه الله - ليدير المكتب الأمامي، ليقف عند المدخل بقامته النحيلة وميله إلى الأمام، مع ارتفاع كتفيه حتى ليكادا أن يحاذيا أذنيه، يدقق الملامح، يتفحص الهويات، مسفراً عن ريبة صامتة في كل من يتحدث إليه. دائماً يتوقع التحقيق معه لسبب ما، أن يمثل أمام مستجوب غليظ القلب ينتمي إلى جهة، إلى هيئة غامضة، لهذا لزم الحذر باستمرار. دائماً يحاول إيجاد تبرير لكل ما يقدم عليه. لماذا سلك تلك الطريق؟ لماذا طلب علبة باللبن ولم يشرب الشاي؟ لماذا أطال النظر إلى تلك الجهة دون الأخرى؟

في الحمام يمشي على أطراف أصابعه خشية الإنزلاق، في الشارع يتأجج انتباهه حتى لا يلمس سلكاً عارياً تسري فيه الكهرباء، يدقق في الأرض خشية الوقوع في حفرة ما، ويتطلع إلى أعلى مرات خوفاً من طوبة مفلتة تتخذ طريقها إلى أم رأسه.

حضوره دائم حتى في أيام الأعياد والإجازات والمناسبات الرسمية، يعمل فترتين، صباحية ومسائية، لا يتجنب إلاّ ساعتين فقط، من الثانية إلى الرابعة، هكذا يقضي النظام، لو الأمر بيده لما فارق المدخل ليلاً ونهاراً، عند انصرافه وقت الظهيرة لا يمضي إلى بيت، لا تنتظره أسرة، إنه وحيد، فرداني، يقيم في فندق قديم قرب ميدان رمسيس، أول شارع الفجالة.

صاحبه الوحيد، الأعز، مفتش الصحة، من يفضي إليه بأدق خلجاته. اسمه أنيس الورداني، يثق كل منهما في الآخر، لا يمضي يوم إلا يلتقيان فيه ساعة الغذاء، في أمسيات الصيف بمقهى ركس المواجه لمسرح الكورسال القديم بشارع عماد الدين، يقعدان بجوار نافذة عريضة مطلة على الطريق، من لا يعرفهما يظن أنهما فاقدا النطق. من جماعة الخرس الذين يتخذون المقهى المجاور لسينما كايروبالاس المتخصصة في عرض أفلام شركة فوكس، كان المؤسس ـ رحمه الله ـ يؤثرها على الدور الأخرى، ويحرص على حضور الحفلة الصباحية يوم الجمعة والتي تبدأ العاشرة والربع بعرض أفلام الرسوم المتحركة للصغار، ولم يتوقف عن عادته تلك إلا عند وقوع المحنة الكبرى.

يتطلع الأشموني إلى صاحبه صامتاً، حتى إذا حاد بصره عنه بدأ صديقه ينظر إليه، وإذ تلتقي عيونهما يهز كل منهما رأسه كأنهما أدركا شيئاً ما في عين اللحظة، يتابعان المارة بصمت، أو يرشفان الشاي على مهل، لكنهما يتبادلان الحديث أحياناً، عندئذ

يقترب كل منهما، صاحبه أطول، لذلك ينحني، إنه أسمر، أصلع، ممتلىء قليلاً، صعيدي من أبو تيج، مرتفع الصوت، لا يمكنه الهمس، لا يفارق حقيبته الجلدية القديمة، مجهول الإقامة حتى لصديقه الحميم.

يؤكد عطية بك إقامته منفرداً. إنه الوحيد الذي زار الأشموني عند مرضه وأمضى بصحبته وقتاً في حجرة مستطيلة، تطل على المنور الداخلي، الصالة المشتركة تؤدي إلى شرفة من خشب تئن ألواحها وتصر إذا خرج المرء إليها، منها يمكن رؤية مبنى محطة مصر عربي الطراز، نزلاء الفندق كلهم عابرون، معظمهم يقضي ليلة أو ليلتين، قادمون من الريف إما لقضاء الحوائج أو لبدء مشوار الرزق الذي ينتهي بثراء أو إملاق، النزيل الوحيد الدائم هو الأشموني.

لماذا يستقر في هذا المكان الذي يفر منه كثيرون مثقلين بذكريات مرهقة؟

يؤكد الجواهري أن السبب عشقه العذري لبنية يهودية كانت تسكن قرب المستشفى القبطي، كانت بضة، ريانة، تحتضن حقيبة كتبها إلى صدرها، رأسها مرفوعة، صدرها مشهر، في عينيها لا مبالاة، تمشي حتى ميدان الجيش، إلى المدرسة الإسرائيلية، ترتدي الزي الخاص، مربعات زرقاء وبيضاء على رداء قصير يكشف باطن الساقين.

يتلهف انتظاراً في الشرفة، بمجرد ظهورها ينزل إلى الطريق، يمشي خلفها محتفظاً بمسافة لا تثير الشكوك، لكن أمره شاع عند أصحاب المتاجر، والباعة الجائلين، وتجار أدوات البناء الصحية، ورواد المقاهي، يتوقعون ظهور المقتفية أثرها من بعيد، وانحناءته، كل ما يرضيه أن يمشي في طريق عام تسلكه، استمر ذلك حتى

الشهور التالية للعدوان الثلاثي، يبدو أنها ذهبت مع أسرتها، كما بدأ تحويل المدرسة إلى مسار التعليم العادي.

رغم تأكده من غيابها إلا أنه لم يقطع الأمل في عودتها يوماً، غير أنه كف بعد عام سبعة وستين عن الوقوف في الشرفة، طرأ تغير على عاداته، يخرج مبكراً ولا يرجع إلا في الحادية عشر ليلاً، يلزم حجرته، في الصيف يفتح نافذتها المطلة على المنور الضيق، المعتم، على الجدار المقابل تمتد ماسورتان متجاورتان، الأولى غليظة للصرف الصحي، الثانية نحيلة لمياه الشرب، قبل أكتمال نعاسه يقوم بسرعة، يغلقها خشية دخول حشرة سامة أو حية قاتلة، لا يعرف ما يخبئه المنور القديم.

يؤكد عطية بك أن ما يحكيه عن الأشموني حقيقي، ليس من تشنيعاته، اثنان ألماً بالتفاصيل كافة، أولهما رحل إلى الأبد، المؤسس رحمه الله، الثاني.. صاحبه هذا.

إنه المفتش بمديرية صحة جنوب العاصمة، مهمته المرور على المطاعم بقسم عابدين والسيدة زينب، إذا تغيب أحد زملائه يمكن أن يفتش على الموسكي، والجمالية، أما قصر النيل فلا يتولاه إلا المحظوظون لما يضمه من مطاعم كبرى، أحدهم تخصص في طبق معين فضله الملك فاروق على غيره، ويؤكد حارسه الخاص في مذكراته أنه افتقد مذاقه بعد خلعه واضطراره الإقامة في المنفى، حتى طباخه الألباني الأصل فشل، الطبيخ نفس كما يقولون. مطعم آخر تخصص في الكباب والكفتة، قريب من قصر عابدين، كان الملك يحب استنشاق رائحة الشواء، لذلك أكثر من الوقوف بالشرفة الجانبية، وأطلق صاحبه اسم الملك عليه «حاتي الفاروق» فلما قامت الثورة غيره إلى «حاتي الأحرار»، ورغم وقوع المطعم في دائرة الاختصاص إلا أن الأشموني وصاحبه لم يدخلاه قط

لصلات صاحبه بالشخصيات الكبرى، يومياً.. يلتقيان، يتأبط كل منهما ذراع الآخر ويمضيان، يسأله صاحبه عما يود أن يأكله اليوم؟

يفكر لحظات، يستدعي قائمة الأمس، إنه يفضل لحمة الرأس، يتفقان على إيثار الحمام المحشي بالفريك وسلطة الباذنجان الأسود المخلل المتبلة بدقة الثوم المُكَشبرَ.

مطعم صغير بشارع الفلكي، قعدته متواضعة، لكن طعامه متقن، قديم النكهة، نجوم السينما، ورؤساء البنوك يرسلون في طلب الحمام الذي اشتهر به، أما الأسماك فلا بديل ولا مثيل لمحمود السماك بأرض شريف وإن كان التردد عليه صعباً ويجب أن يتم بحساب لمهابة صاحبه ورسوخ قدمه.

الحمام والسمك المقلي زينة الحياة الدنيا عند الأشموني، يتأنى عند تناولهما، يطحن عظام الحمام، يبتلعه، يمصمص رؤوس السمك، يلحس أصابعه عند انتهائه.

ظهورهما معاً مألوف، معروف لجميع أصحاب المطاعم والمقاهي ومحلات العصير، الطريف أنه ما من مرة يفرغان فيها من الغذاء إلا ويقدم المسؤول عن الخدمة بها لفافة لما تيسر لزوم العشاء أيضاً، وما من مرة إلا ويسأل الأشموني بعين الإيقاع.

«الحساب من فضلك»..

هنا يصيح صاحبه منفعلاً وأحياناً يمسك معصمه.

«مستحيل.. لن أسمح لك».

من يجهلهما يظن أن مشادّة حادة سوف تبدأ، لكن يتدخل صاحب المطعم أو المسؤول قائلاً:

«علينا نحن هذه المرة»..

عندئذ يرفع الأشموني إصبعه منذراً، محذراً:

«في المرة التالية لن نقبل»..

سنوات طويلة والحال واحد، الأمور لا تتغير حتى في تفاصيلها الدقيقة، لصاحبه سطوة، خاصة على المطاعم المتوسطة والمتواضعة، مجرد سطور تقول بعدم التزام الشروط الصحية تغلق المكان مدة لا تقل عن شهر، يؤكد عطية بك، إن أدق أسرار المؤسسة عند مفتش الصحة هذا، ولحسن الحظ أن المنافسين والمتربصين لا يعرفون شيئاً عنه، يكفي الإصغاء إلى ما يفضي به الأشموني أثناء جلوسهما في مسمط بيومي أو كبابجي الجمهورية، أو مقهى الندوة الثقافية المتخصص في النرجيلة والشاي الجميل، كذلك مطاعم الكبدة والمخ المقلية في باب اللوق وسوق الناصرية. من حسن الحظ أن المفتش يصغي ولا يستوعب، لم يحدث يوماً أن ناقش أمراً يسمعه أو تفاصيل حادثة أصغى إليها.

نعم.. الأشموني ملم بدقائق ما يجري، وقفته عند المدخل أكسبته حاسة غامضة تمكنه من الإطلاع على خبايا يعجز القريبون عن الإلمام بها أو إدراكها. من دَخْلة شخص ما يمكنه التنبؤ، الملامح والخطى مرآة لما يجري ويدور في الداخل، يعرف درجة العلاقة ونوعية الصلة بين رجل وامرأة من هيئة خطو، بل يمكنه التمييز بين المرأة التي ضوجعت أمس من تلك التي لم يقربها ذكر.

خبير هو بمعرفة الحالة المزاجية لمن يشغلون المناصب العُليا، من بأيديهم الخيوط المؤثرة، والمفاتيح المؤدية. من مراجعة لقوائم الزائرين ومرات ترددهم على شخصيات بعينها تتضح أمامه الصلات، ليست القائمة بالفعل لكن المحتملة أيضاً، لم تخب نظرته قط في الجدد الذين انضموا إلى المؤسسة بدا أحياناً مبالغاً، توقعاته بعيدة عن التصديق، لكن مرور الأيام يثبت ثاقب رؤيته.

يشير أحياناً، إلى شخص معين، يتنبأ بما سيظهر عليه خلال مدة معينة، سيركب عربة فاخرة خلال عام واحد..

هذا سيتولى قطاعاً هاماً بعد..

عندما وقعت عيناه على صفية تعبر المدخل وجلة مترددة المظهر بعكس وثوق جسدها وشيوعه خارج أي ملابس، ما البال والبنطلون الجينز كان ضيقاً إلى حد تساءل عنده البعض: كيف أمكنها ارتدائه؟ كثيرون استعادوا تفاصيلها مرات، منها استمدوا الحمية واشعال الرغبة، كأن لحظة ظهورها أول مرة إنفصلت عما عداها، عن مسار الزمن واستقلت بذاتها فتيلاً ملهباً للوجه والنشوة. لا ينسى الأشموني إقبالها عليه، صدرها المشرع، فخذاها المتقدمان عليها!

يومها أجابها بهدوء، دلها على الطريق.

في لقائه اليومي بصاحبه قال إن شابة جميلة جاءت اليوم وأحدثت عنده رعدة، قال إنها ستضع المؤسسة في جيبها ولكن إلى حين، وستقدم على ما لم يجرؤ عليه غيرها، من ذلك محو ما يتصل بالمؤسس، بما في ذلك إلغاء اسم زوجته الأولى من الصابون المعطر القديم المشهور والذي استقر كعلامة تجارية راسخة، لن تعبأ بشيء، وهذا ما تحقق بالفعل.

لكن.. اليوم، بعد أن رأى خروجها مطرقة، بعد أن اقتفى خطواتها احتراماً وتقرباً، أيقن من استكانة ردفيها، وطريقة ركوبها العربة، أن ثمة أزمة حلت، وأن زمن صفية الأبنوبي بدأ في الأفول..

لَعَةُ الأزميرلي

أيضاً.. لم يخطىء الأشموني هذه المرة. تأكد للجميع أن خاطر سيادته تغير على صفية، في البداية سرى همس، ثم لاحت الشواهد المؤكدة، والعلامات التامة، مثل توقف تردد صوتها عبر مكبرات الصوت المبثوثة، والأهم.. ظهور القرارات خلواً من توقيعها، بعد يومين عاد توقيع انتشار القليوبي فأدرك الجميع أن زمن صفية يأفل، أو أنه انتهى فعلاً.

في اليوم التالي مرت أمام الأشموني فأيقن أنها «وقعت»، أومأ محيياً لكنه لم يتبعها كعادته، بل عاد إلى أحتواء ردفيها المتمكنين بالبصر، في اليوم الثالث لم تتجه إلى المصعد التاريخي، إنما وقفت تنتظر أمام الأحدث والأسرع، المؤدي إلى الحادي عشر، ومنه صعدت إلى الطابق الرئاسي عبر الدرج الحلزوني المستحدث بعد إعادة صياغة الطابق، حتى الآن لم تفارقه، أين تقيم بالضبط؟ في مكتب سيادته أم في مكان آخر؟ لا يمكن التحقق من إجابة قاطعة لأسباب عديدة منها جهل العاملين والمتعاملين بتكوين الطابق ومحتوياته، وعدم قدرة أحد على توجيه السؤال مباشرة إليها، الهمس فوق محدود جداً، وما يتسرب حول مكتبه شحيح للغاية،

أما المقربون والذين تم صعودهم نتيجة ظروف مختلفة فيلزمون الصمت، ويدربون ملامحهم على الالتزام بأوضاع معينة، وردود فعل متشابهة، لإدراكهم أن كل إستجابة يمكن تفسيرها من جانب العاملين بالطوابق السفلى، ولا يعني ذلك تلك الواقعة بالمقر الأصلي، لكنها تشمل المباني التابعة للمؤسسة والمنتشرة في المحافظات والأقاليم المختلفة، يبلغ ارتفاع بعضها أضعاف المبنى الأصلي مثل البرج الشهير المزدوج المطل على النيل، والموضوع فوقه إضاءات تحذيرية حمراء خوفاً من اصطدام الطائرات المقلعة أوالمتجهة إلى الهبوط في مطار القاهرة الدولي.

الطوابق كافة تحتية حتى لو بلغت العمارة ارتفاعاً شاهقاً بالنسبة للثاني عشر، ورغم الصمت المحيط بما يجري فيه، فإن تفاصيل عديدة يتم تداولها بين من لا علاقة مباشرة لهم بالمؤسسة. بل إن قرارات تتخذ فيه تجد صداها في أماكن نائية، وبين خلق لا يخطر على بال أحد وجودهم. ورغم الحذر الذي يحرص الكل على التزامه فإن الأمور تُعرف بشكل ما لأنها تتعلق بمصائر العاملين ومن لا حصر لهم خارج الدوائر المنظورة. ملامح الأشخاص مصدر هام، خاصة عند حديثهم، يصبح لها حضور خاص ينتج لغة غير مسموعة، وألفاظاً غير مسموعة، لكنها دالة، يكفي نظر أحدهم إلى آخر ليبلغه نبأ ما، أو ليتلقّى تفسيراً لأمر استعصى على الإدراك، إن القدرة على البوح تتزايد كلما ابتعد العاملون عن الطابق الرئاسي، كما أن حواس المسموح لهم بالتردد عليه أرهف من الآخرين، مثل السعاة الذين يحملون الرسائل، وعمال النظافة، خاصة العاملات منهن، لم يكن عسيراً عليهم إدراك التغير الذي لحق بموقع صفية، ليس بالنسبة إلى المؤسسة، لكن.. بالنسبة إلى علاقتها بسيادته، من شكل قوامها، من إيقاع خطواتها، من الجهات التي تتوجه إليها

بنظراتها، من هيئة ما غائبة، لا يمكن إدراكها بالحواس المستنفرة، من هذا كله يمكن الوقوف بشكل ما على درجة العلاقة وأدق مستوياتها الحميمية.

أيقن الجميع أن قبضة صفية تتراخى، أنها لم تعد متمكنة، أن مزاج سيادته يتحول عنها، إعتاد العاملون قراراته المفاجئة التشهيرية، بدون أي مقدمات، لكنه اتبع معها أسلوباً هادئاً مما يعني أن ثمة شيئاً ما زال بينهما، لم يقرر إقصاءها إلى موقع بعيد، لم يصدر أمراً بإلغاء اختصاصها، واضح أنه حرص على شكلها أمام الآخرين وهذا مغاير لما عُرِف عنه، مشهور هو بسخطه المفاجيء ورضاه غير المبرر، أحياناً يقرب شخصاً ما منه فلا يعرف الآخرون السبب، ثم يتغير خاطره عليه ولا يقدم تفسيراً، أشد العاملين معاناة هم أهل الطابق الرئاسي نفسه، أو المسؤولون عن الإدارات المركزية والقطاعات الرئيسية، أولئك المتصلون به مباشرة، ويلاحظ الأطباء المسؤولون بالإدارة العلاجية الإصابات المفاجئة بالضغط والسكر وجلطات الشرايين التاجية المفاجئة وأمراض أخرى لم يتعاملوا معها من قبل، مما اضطرهم إلى التعامل مع أخصائيين كبار وبالتالي طلب زيادة ميزانية العلاج. ومما تردد خفية أن سيادته يختار مرضاً قاتلاً أو مزمناً لكل شخصية يضمر تجاهها كراهية أو ينوي التخلص منها أو إعجاباً مستتراً ربما ينقلب إلى حنق مفاجيء وغيرة مكتومة، وقيل بل إنه يستعرض أسماء العاملين المرموقين، المعروفين بجهودهم أو أنشطتهم الاستثنائية، ويقرن كل منهم بما يجب إلحاقه به..

هذا جلطة في الدماغ.

هذا قصور في عضلة القلب.

هذا اكتئاب مع الاستمرار حتى انتحاره..

هذه قطع القدرة على الإنجاب.

إنه لا يستعين بأعمال سحرية أو خفية، بل أعاد دور الأزميرلي القديم وبث فيه قوة. وبمجرد شيوع طلوعه إلى فوق واجتماعه بسيادته توجس العاملون خفيةً، وتوقعوا شروراً، أسوأهم حالاً أهل الطابق الثاني عشر، فدنو الأزميرلي مقضّ للمضاجع، باعث على الخشية، ورغم تقدمه في العمر إلا أنه ضبع عجوز، حتى الجواهري دهش عندما علم بتعهد الأزميرلي لسيادته وضع خطة لإلحاق المرض المناسب لكل شخص يحدده سيادته، بمن فيهم الجواهري نفسه الذي قيل إنه قرن به طقة الدماغ المفاجئة. دهشة الجواهري مصدرها معرفته الدقيقة بالأزميرلي، إنه يفضل القبوع في مكانه ونسج خيوطه حول الضحايا من بعيد. كيف يقبل التردد علناً على الطابق الرئاسي مع علمه الأتم أن الكل مدرك لمهامه.

البعض أكد أن طموح الأزميرلي القديم كان الاستقرار في الطابق العلوي، وأن تعاونه الحميم مع أجهزة الأمن استهدف ذلك عملاً بقاعدة متعارف عليها ضمناً أن من يتولى هذه النوعية من المناصب القصوى لا بد أن يكون طالعاً من تلك الأجهزة أو يكون موضع ثقتها المطلقة، لكن لأسباب شتى ظل الخبراء ومن بيدهم الأمر والنهي يتطلعون إليه باعتباره مصدراً مُقرباً، وتلك درجة لا تدفعهم إلى إلقاء ثقلهم وراءه لدفعه إلى فوق، نعم.. إنهم يسهلون له العديد من الأشياء، لكنها محدودة في النهاية، أما علاقة الرئيس الحالي فمختلفة تماماً، إنها عضوية، يرجعها البعض إلى سنوات دراسته الابتدائية بالمدرسة الأجنبية المشتركة عندما أمكن تجنيده لرصد حركة أب كاثوليكي يدرّس اللغة الألمانية، سويسري الأصل، وكانت له صلات! منذ هذه السن المبكرة وثمة إعجاب بدقة تقاريره، وقوة حفظه وذاكرته، حتى أن بعضها يدرس الآن في معهد الأمن القومي. غير أن شخصه ما زال محيراً بالنسبة للمقربين

منه. لطول صمته وندرة انفعاله وشدة معزوليته، ودراسته المبكرة لأنواع متقدمة من الحواسب الآلية. أيضاً.. لغريب عاداته.

يقال مثلاً إنه لا يقضي ليلتين في مكان واحد، لديه على الأقل أربعة مواضع، واحد منها بدون هاتف، لم يكن يمضي وقتاً طويلاً في الطابق الرئاسي، لكنه استحدث نظام السكرتارية الدائمة، بحيث يبقى باستمرار أحدهم جاهزاً للرد على الهاتف، أو تلقي الرسائل الضوئية أو إبلاغها، وكان سيادته يتصل من مكانه المجهول بانتظام، وكثيراً ما كان يتصل من سيارته الخاصة أثناء انطلاقه على الطرق السريعة المحيطة بالعاصمة، إنه مجنون بالطرز الحديثة، ويقضي إجازاته في أوروبا ليستأجر الفاخر منها، وينطلق بها على الطرق السريعة متجاوزاً كل السرعات المتاحة. يؤكد الأزميرلي أنه لم يتعامل قط مع شخص يماثله، وأنه محير، وأثناء جلوسه إليه كان يتطلع بنظرات طولية، بريئة، تنقلب فجأة إلى شواظ قاتل.

قال أحدهم: ـ لا يمكن تحديده ـ إن صفية كانت الهدف الحقيقي للأزميرلي، وأنه أضمر لها كراهية غامضة، إلى درجة اتصاله هاتفياً بالعديد من العاملين وتغيير صوته عند اخبارهم بتفاصيل دقيقة عن صفية، منها الإتجار في الهيروين، وإخفاؤها البودرة عند سفرها في أماكن حساسة. وإدارتها شبكة دعارة للقاصرات، وقيامها بإرضاء شذوذ أميرات عربيات وشخصيات متنفذة، كان يبغضها إلى درجة كتابة اسمها على أوراق صغيرة وحرقها، أو رميها في المرحاض.

لماذا؟

لا أحد لديه إجابة.

ربما تفسر تلك الكراهية تدخله السافر إلى جانب هانم الدمياطية ليلة واقعة الفندق، المؤكد أنه تحالف مع النمرسي ضدها، ولا يعلم

أحد ما قاله، لكن يتردد أن النمرسي أقسم برأسه أن ينزلها من الطابق الرئاسي كما كان سبباً في صعودها، أن يخلعها من جواره، وقيل «من تحته»، ويبدو أنه أخلص النية وتفرغ عدة أسابيع بدون كلل يؤازره الأزميرلي، بعد جهد غير هين اكتشف بعضاً مما يثير سعادته وما يرضيه أيضاً، أيقن من عشقه سماع الأصوات الأنثوية المتخثرة، الدافئة، عبر الهاتف، أنه يغلق الباب تماماً وينفرد داخل المكتب الدائري، يجرب أرقاماً عشوائية حتى تلتقط طرف الخيط أنثى ما يجهلها، في مكان ناء، يستخدم الإتصالات الحديثة المتاحة كافة بما فيها شبكة الإتصالات الدولية. يبدأ بالسؤال عما ترتديه من ملابس خارجية، ثم.. داخلية، ثم يصدر زفرة تتبعها آهة، ويتصاعد الفوران مع تلقي الإستجابات المتينة، كلما نأت المسافة وشسعت كانت متعته أقوى، تجاوزت ميزانية الاتصالات الخاصة به كل التصورات والتوقعات حتى أكد البعض أنها توازي تكلفة علاج العاملين كلهم، خاصة بعد استئجاره خطاً في القمر الصناعي الأميركي لممارسة الجنس عبر الفضاء الكوني.

يحتفظ بأرقام إهتدى إليها بعد طول تجارب، أحب الأصوات إليه يأتيه من المكسيك، مدينة تُعرف بآكا بولكو، رقم اختاره من الدليل المحلي الذي وصل إليه بالصدفة أثناء إحدى رحلاته، لم يستفسر منها عن أسمها، لو اطلعته عليه يحد ذلك من انطلاق مخيلته، الصوت يحدد الملامح، عندما يصغي إلى آهاتها وشخراتها تستنفر شرايينه وأوردته، وتلتهب عروق المتنصّتين من بعض الأجهزة الأمنية، وآخرون في مراكز استطلاع متقدمة، وبعض الجلوس بغرفة متابعة المكالمات المشكوك فيها بمبنى هيئة الاتصالات الدولية بنيو مكسيكو. مصدر نشوته بعد المسافة وفارق التوقيت، ثمان ساعات في الشتاء، سبع في الصيف، الثامنة صباحاً هنا،

منتصف الليل هناك، سريان اندماجهما عبر الأثير اللامحدود، علّم هذه البنيَّة المكسيكية أسماء الأعضاء وفاحش الألفاظ بَالعربية، وكثيراً ما أبهجه نطقها..

من هنا إنطلق النمرسي، يدرك بخبرته الطويلة أن القواد المتين يدبر الأمر، يرتب الظروف بحيث تبدو كأنها تمَّت عرضاً بدون قصد، طبعاً هو يفهم، والآخر يفهم، لكن التواطؤ محكم وجميل.

اتصل بالسكرتير الليلي وأخبره عن رسالة صوتية هامة يجب تسليمها إلى سيادته فوراً، شريط في مظروف، مدته عشرون دقيقة، بصوت من؟ بصوت رشيدة السويسرية، أصغى إليه في الطابق الرئاسي صباح اليوم التالي، فاستعاده ثلاث عشرة مرة وتمنى لو كان طوله ثلاثين ليلة!

في اليوم نفسه رتب اتصالاً بين سيادته وبينها، جاءته التعليمات عبر السكرتير النهاري، أبلغه تحيات خاصة وسأله عما إذا كان يحتاج إلى شيء ما، غير أن النمرسي شكر سيادته كثيراً وقال: إنه خادم مطيع، ويتمنى فقط الرضى عنه.

التهب الخط المباشر بين سيادته ورشيدة، رأى منها عجباً، لم تحل فقط مكان المكسيكية، إنما شغلته عن صفية أيضاً، توارى النمرسي بسرعة، تلك عادته بعد التمام، أحياناً يتأثر لسرور من جمعهما معاً وانبساطهما حتى ليدمع. في أحوال نادرة يحاول الوقوف على التفاصيل.

غير أن صوت رشيدة المغناج لم يكن الوسيلة الوحيدة، يؤكد الأشموني لصحابه أن النمرسي وضع تفاصيل علاقة صفية بصاحبها الرسام ساكن وكالة الغوري، وأنه تمكن من تجميع صور اللوحات التي استوحى فيها أردافها المتمكنة. ولم يكن صعباً على سيادته اكتشاف ملامحهما والتعرف عليهما مهما بلغت الخطوط

والأشكال من التمويه والبعد عن الأصل، كان سيادته يطلب منها إخفاءها بقدر الإمكان، أن ترتدي ما يخفف تأثيرهما الإنفجاري، بل طلب منها ألا تمكن زوجها من لمسهما أو الاستمتاع بهما. وعندما أصغت إلى ذلك ضحكت ضحكة لولبية دهش لها سيادته مما دعاه إلى الإستدارة ليواجهها مستفسراً، قالت إن زوجها لا يطول منها شيئاً، لا من هنا ولا من هناك، عندئذ هز سيادته رأسه قائلاً بصوت خافت «حرام عليك»..

عندما بدأت عملية شراء اللوحات الفنية من مشاهير الفنانين، والمعارض الفنية التي تعقد بانتظام، بررت ذلك بتجميل المبنى الأصلي، وحفظ ثروة تتزايد قيمتها مع الزمن، اللوحة التي تحمل توقيعاً مجهولاً اليوم قد يصبح مشهوراً في المستقبل، تتضاعف قيمتها، كذلك التماثيل وقطع الخزف. الحق أنها أضفت على المقر بعداً جديداً حارّاً مصدراً لزهو العاملين، وأنشأت سجلاً للمقتنيات الفنية، موضحاً به المواصفات الدقيقة وتاريخ الإقتناء، وأعدت مذكرة لتحويل إحدى القاعات المهملة بالطابق الثاني كمتحف خاص يقصده الزائرون وخاصة أعضاء الوفود الأجنبية، الحقيقة إن مبادرتها جيدة، ولكنها لم تتم، ذلك أن الأزميرلي ـ ربما بإيعاز من النمرسي ـ نبه سيادته إلى شراء عشر لوحات كاملة من هذا الولد نزيل وكالة الغوري وبأسعار مبالغ فيها، وكان ذلك سبباً آخرَ لإقصاء صفية، ويقال إن سيادته طق شرراً عندما تأكد من ذلك، فأمر بإبطال ما تم، وتخزين اللوحات في غرفة مغلقة.

رغم خشية الكثيرين من تزايد طلوع الأزميرلي إلى الطابق الرئاسي إلا أن اتصالات سيادته بالنمرسي زادت عن كل حد، الآن.. لا يطلبه عن طريق وسيط، إنما مباشرة، وفي ساعات متعددة، مختلفة، بل أمر بضمه إلى حملة «البليب»، وأضاف اسمه

إلى قائمة حملة الهاتف المتنقل والمنتظر تعميم فوائده قريباً.

النمرسي تدركه خشية عندما يقترب أكثر مما يجب، القواد الشاطر يؤدي مهمته ويبتعد، استمرار حضوره غير مرغوب، إنه يفضل التواري، ألا ينطق كثيراً، لا يحب الجلسات والحفلات، يبدو ثقيل الحضور، سنه المخلوع من مقدمة فمه تضفي على إبتسامته غموضاً مقلقاً، رغم نفوره من المناسبات، إلا أنه صاحب أعلى معدل في تلقي الدعوات، سفارات، وفروع نوادي الروتاري والليونز وجميعات تحسين الصحة والرعاية المتقدمة والعروض الأولى للمسرحيات والأفلام، ومناسبات شتى يعرفها الأشموني أكثر منه لأنه لا يهتم ولا يلبي إلا نادراً. لا يعرف أحد أين يقضي أوقاته، خاصة في المساء، لكنه وثيق الصلة بأصحاب مطاعم ثابتة وعائمة، ومديري فنادق خمسة نجوم، يقيم فيها ولا يدفع، المؤكد أن حجرة محجوزة باسمه المدة كلها، يمارس من خلالها انتقالاته ومهامه.

إنه لا يقدم خدماته وخبراته إلى الرجال فقط، بل النساء الثريات القادمات من بلاد نفطية محافظة، يقمن في الفنادق الكبرى شهور الصيف أو في مساكن خاصة بمنطقة المهندسين والدقي، يسيطر تماماً على خلاصة من الشبان حسني الهيئة أقوياء البنية، أكفاء متقنين، درب بعضهم بنفسه وأطلعهم على أفلام يصعب مشاهدتها ليتعلموا، ويفهموا، سطوته عليهم لا تقل قدرة عن احتوائه الجميلات وتسييرهن كما يرغب وتقتضي المصلحة.

إنه يدبر الأمر، يرتب اللقاءات بين الأطراف المحتاجة، ذروة حيويته وإقباله بعد خلوة اثنين جمعهما معاً، مرة وحيدة ضاق بنفسه وشرع في إظهار المرض، عندما اتصل به شخص لم يلتق به في حياته، طلب منه المساعدة في مهمة خاصة جداً، جداً. في

لقائهما شرح له الأمر؛ ذلك أن شخصية خليجية كبرى، متنفذة، مهيمنة، دول كبرى تخطب ودها، سيقوم بزيارة تستغرق أسبوعاً، سيترتب عليها توقيع اتفاقيات هائلة الحجم ذات آثار بعيدة المدى على المنطقة وليس بالنسبة للبلاد وحدها. هذا الأمير يهوى الغلمان، يفضل ما بين الرابعة عشر والسادسة عشر، ومن كانت أمه أجنبية وبالتحديد إيطالية، في كل مرة يتعرض لغش بينٍّ من محترفين مكارين لا ضمير عندهم.

أبدى النمرسي اشمئزازاً، الغريب أنه في اللحظات الحرجة التي تسبق الإتفاق أو التصريح بالمطلوب لا يعرف اللف أو الدوران، الوضوح ضرورة، قال..

«لكنني لم أشتغل في العيال من قبل..»

دنا الرجل منه، أشار بأصبعه المستقيم، المصلحة تقتضي، لن يشرح أكثر من ذلك، في هذه اللحظة خشي النمرسي، يعرف تماماً ما يمكن أن يدبر له، ليسوا في حاجة إلى تلفيق أو توفيق، فليبدأ.. طلب إمهاله فترة ستنتهي قبل وصول سموه، بحيث يجد طلبه جاهزاً عند حلوله. بدأ على الفور عمله، وخلال أيام ثلاثة وصل إلى الهدف المنشود تماماً بواسطة امرأة ذات أصل يوناني تجاوزت الستين، تسكن شقة قديمة بشارع شمبليون، ولها معجبون كُثر، معظمهم من صغار السن، ورغم التهنئة الرسمية التي تلقاها، والوعد بالوصول، إلا أن اشمئزازاً يلم به كلما استعاد التفاصيل.

الآن.. يسرع الأشموني عند رؤية النمرسي، يصحبه حتى المصعد، يظل مبتسماً، موافقاً، شيئاً فشيئاً بدأ النمرسي يعدل من خطواته إلى الأبطأ، وكف عن استمرارية الإبتسامة وشد من قامته وعدل وضع رأسه، منذ إتجاهه إلى المدخل بعد مغادرة العربة الجديدة المخصصة له والتي فضل أن يقودها بنفسه متنازلاً عن

السائق الخاص حتى لا يعرف أحد الجهات التي يقصدها سواء في ساعات العمل الرسمية أو بعدها، وحتى صعوده إلى مكتبه، وبقائه ثم إنصرافه لا يكف الآخرون عن السعي إليه والحديث إليه وطلب قضاء الحوائج منه. معروف الآن أنه القنطرة المضمونة المؤدية إلى سيادته، مثل هذه الوضعية لا تخفى، وعندما تأكد الجميع قوبل الأمر بابتسامات خفية، وتعليقات إيحائية، ولكن خلت المشاعر من الخوف أو البغض كما جرى عند طلوع سعد الأزميرلي لفترة وجيزة، ربما لأن النمرسي لم يتسبب في إلحاق الأذى بأحد، وأمضى وقته بعيداً عن الصراعات العلنية والتحتية، كما أن موقفه ليلة المطعم من هانم الدمياطية قوبل بإمتنان خفي، ترسخ أكثر بعد التأكد من دوره في إقصاء صفية، الواقع أنها لم تختفي تماماً، صوتها الذي تردد عبر المكاتب والصالات خلال مدة إرتقائها بدأ يشيع على نطاق واسع لم يتصور أحد أنها ستبلغه يوماً، أصبح ملازماً للعديد من الإعلانات التي تبث على القنوات المحلية والفضائية ويُسمع في جميع طائرات الشركة الوطنية قبل الإقلاع وبعد الهبوط، تنصح بتعليمات السلامة أثناء الطيران، أو بضرورة ربط الأحزمة أو الامتناع عن التدخين، وكيفية استخدام سترة النجاة، قال مسافرون محترمون إنه متميز، مثير للدغدغة، لقد أنشأت شركة إعلانات تديرها بمصاحبة الرسام، أما رأس المال فمما تجمع من تحويلات زوجها الذي لم يكف عن تحويل كل درهم يحصل عليه، ولم يكن يرها إلا في المناسبات، على أي حال لم تكن الإعلانات إلا بداية، إذ شاهدها العاملون ومعهم جمهور المتفرجين الواسع تقدم برنامجاً يفسر الأحداث الدولية، وكتب أحدهم في عموده اليومي مشيداً بحوارها الذكي المعمول، وأكد آخر أنها إضافة إلى تراث التليفزيون الذي وُلِد عملاقاً..

بعد انتظام ظهورها في التليفزيون خفت رجلها من المؤسسة، وتردد أنها حصلت على إجازة بدون مرتب، وقال الجواهري معلقاً، إنها ستمضي إلى النسيان بسرعة بالنسبة للمؤسسة، ولكم عرف العاملون القدامى مثيلاتها، جئن، ولمعن، ثم ذهبن، وقليلات هن اللواتي بقي ذكرهن طيباً، منهن المكملة الفاضلة هانم التي لا يعرف أحد أخبارها الآن، وإن أكد الأشموني مشاهدتها في مطعم سياحي على الطريق المؤدي إلى سفارة، كانت تجلس إلى شخص لا يعرفه، صاحبه مفتش الصحة أصبح مسؤولاً الآن عن منطقة الأهرام كلها، ولم يسره ذلك رغم تعدد المطاعم وجودتها وذلك لبعد المسافة وعدم قدرته على مصاحبته إلا في أيام العطل والإجازات.

في ذلك الصباح لاحظ الأشموني ظهور علامات الطابق الثاني عشر على هيئة النمرسي، بانت عليه قبل طلوعه، فأيقن من ترسخه واستمراره حتى بعد الأحداث الغريبة التي وقعت.

تواتر الأحوال

كأن ما جرى تمهيد، مقدمة لصعود النمرسي النهائي غير المتوقع من كثيرين، أو للحوادث الغريبة التي جرت متوالية، وأولها ما أشيع حول ظهور منشورات مجهولة المصدر، وُزعت فوق المكاتب بعناية، وفي جميع الأماكن المطروقة وغير المعروفة، بما فيها الطابق الثاني عشر، رسائل كل منها صفحة واحدة، مكتوبة بعناية على الحاسب الأولى موجهة إلى العاملين المخلصين من أبناء المؤسسة تحذرهم من المصير القاتم الذي يتهدد أبناءهم، فهذه المؤسسة التي تسببت في فتح آلاف آلاف البيوت، وإثراء الاقتصاد القومي، مهددة الآن نتيجة القروض الضخمة والمشروعات المكلفة التي تم التعاقد عليها بدون الرجوع إلى أهل الخبرة، فمنذ مجيء سيادته ومجلس الإدارة بأعضائه المنتخبين والمعينين لا يجتمع واستحدث أمراً ليشتري صمتهم إذ قرر مكافأة ثابتة شهرية لكل منهم، بعكس الوضع الأول عندما كانت المكافأة مرتبطة بانعقاد المجلس وكانت تسمى بدل حضور.

تعرضت المنشورات لعلاقة سيادته بصفية ومنحها حق التوقيع

على الشيكات الخاصة والوديعة التاريخية بالبنك الأهلي، ونفى ما قيل عن خلاف بينهما، إنما خرجت من المؤسسة لتبدأ إستثمار أموال العمولات التي حصلت عليها والمبالغ الهائلة التي سحبتها عنوة وبدون مبررات قانونية، حقيقية.

لم يتوقف المخضرمون عن مضمون المنشورات، لكن ما أفزعهم ظهورها وتوزيعها، حتى في الطابق الرئاسي، لذلك دلائل خطيرة لا يعرفها إلاّ أمثالهم، المؤسسة التي كان نظام الأمن الداخلي يدرس بها الأكاديمية العليا.

طبعاً تم جمع المنشورات بسرعة، وقام الأشموني ورجاله بتفتيش دقيق للخارجين عند الظهيرة، ولكن بدا واضحاً أن ما يقوم به الأشموني تحصيل حاصل، وأن الأمر يخرج عن طاقتهم أجمعين، المنشورات ظهرت في دور صحف، ومؤسسات أخرى منافسة، واتخذ بعضها طريقه إلى رجال الإستخبارات المتسترين في السفارات الأجنبية.

في اليوم التالي مباشرة ترددت تفاصيل واقعة مثيرة، إذ تم ضبط نوء الساعي مع موظفة تحت التمرين في الواحدة والعشرين من عمرها، أن يضبط رجل مع امرأة فهذا جرى كثيراً، حتى في زمن المؤسس الذي عُرف بفحولته، وممارسته الجنس مع سيدات مرموقات وموظفات، وعاملات أثناء الاستراحات التي تتخلل الاجتماعات، ويحكى صديق النوبي عن وقائع مثيرة، وأسماء لا تخطر على بال، رآها بعينيه، ومن الأمور التي لا ينساها واقعة الشنتمري، كان موظفاً جاداً، منضبطاً، ممن لقنهم الجواهري الأصول مباشرة، انتدب لمدة ثلاثة أيام إلى الطابق الثاني عشر، مهمته فض البريد وترتيبه تمهيداً لعرضه على سيادته، لاحظ وجود خطاب عاجل يحمل الشارة السيادية، اتجه مباشرة إلى المكتب

الدائري القديم، الباب لم يغلق قط زمن المؤسس، هذا ما يردده العاملون المخلصون بحسرة بعده، دفعه غير أنه فوجىء بمؤخرة شاهقة التكوين والبياض، منغلقة بروعة، تضوي أمامه، وكان المؤسس يستند إلى المقعد التاريخي وصاحبته تعلوه، تلاقت عيناهما، لم يبد على المؤسس أي رد فعل، بل أشار إلى الشنتريني ليضع الرسالة الهامة فدق منضدة صغيرة مجاورة للباب، لكن الرجل المنضبط لم يلحظ أي شيء سوى المصيبة المتوقعة، انسحب على الفور إلى موقعه وبعد لحظات بدأ يرتجف مرتعداً لاعناً اليوم الذي جاء فيه إلى العالم، توقع حلول الكارثة، فصله التعسفي، نقله إلى موقع صحراوي، تدبير تهمة، غير أن ذلك لم يقع منه شيء، وزاده ذلك سوءاً على سوء، لو أن المؤسس نهره، لو وجه إليه اللوم.

يقول عم صديق ـ رحمه الله ـ إن الشنتريني راح يلف في المؤسسة متوقفاً أمام كل مؤخرة، منحنياً، مدققاً، محاولاً التعرف، ثم فوجىء الجميع بوقوفه مستنداً إلى الجدار الذي يحد الفتحة الدائرية، نصفه الأسفل عار تماماً، معلق عليه لافتة كتب عليها بخط جميل، عبارة واحدة فقط..

«بأم عيني»..

فور علم الجواهري أجرى اتصالاً واحداً فقط، ثم توجه إلى الشنتريني، كان يوماً شتوياً بارداً، راح يمصمص بشفتيه أسفاً، الشاب المتزن، العاقل، الذي يوقع يومياً في مواعيده تماماً، يا سلام.. أي الأمور يمكن أن تحل بالإنسان فجأة، وصلت عربة الإسعاف ونزل الممرضون الأشداء، والطبيب النفسي الذي تظهر صورته أحياناً في الصحف، أكد خطورة الاضطرابات النفسية التي يعانيها.

كل شيء يمكن قبوله داخل المقر، لكن خروج الوقائع وتداولها أخطر ما يهدد المؤسسة، تلك أسس قوية أكدها المؤسس واستمرت بعده، حتى وإن توارت تحت السطح.

المشكلة أيضاً تتعلق بالطابق الرئاسي، كيف جرؤ نور على إتيان ذلك فوق؟ أغرب ما قيل إن الطابق خال من العاملين منذ فترة، وأنه لا يمكث به إلا أعضاء السكرتارية النهارية والليلية والسعاة، ولأن المكان كله معزول تقريباً عن بقية الطوابق، ويتم الصعود إليه بإذن خاص بدأ بعض العاملين فيه يتصرفون على راحتهم خاصة وأن معظمهم مطالبون بالبقاء ساعات طويلة بدون عمل حقيقي أو بذل جهود تشغلهم، لكن.. هذا طبعاً لا يبرر ما جرى، ولا يعطي أمثال نور العذر، سيقول الآخرون ومن بنفوسهم حقد على المؤسسة: انظروا.. إذا كان ذلك ما يجري في الطابق الرئاسي، فماذا يحدث إذن في الأدوار التحتية؟

إنما ظهر إنشغال الجميع بأخبار المنشورات السرية، من يقف خلفها؟ من الداخل أو الخارج؟ كيف تمكنوا من النفاذ إلى الطابق الثاني عشر؟ هل ثمة اتصالات بالجماعات الأصولية النشطة؟

أسئلة عجيبة وعديدة تصاعدت وتكاثرت إلا أن ما تردد عن واقعة نور مع الموظفة الشابة حد منها وشغل تفكير الكثيرين، ولاح خوف غامض على استقرار المؤسسة ومصيرها، خاصة عند القدامى، كان ممكناً أن تمر الواقعة بدون ضجيج مبالغ فيه، لولا ما أحاط الطابق الرئاسي من غموض وعزلة وتشدد في طلوع المسؤولين ورؤساء القطاعات إليه، يقسم الأشموني صادقاً أنه لا يعرف المكان الذي يدخل منه سيادته أو ضيوفه، بل.. ما من علامة تدل على حضوره أو غيابه، العربات الخاصة به تقف في الساحة الخلفية، يظهر بعضها أحياناً أمام المدخل الرئيسي، لكن لا يعرف

أحد ما بداخلها، الزجاج قاتم، والسائقون ملامحهم غير معروفة، لا يختلطون بالقدامى، لا ينطقون إلا نادراً، معظمهم ذو شوارب كثة، يرتدون زياً موحداً، جاكتات يا قوتية، وبنطلونات رمادية وأحذية حمراء غامقة، يجد الأشموني صعوبة في تمييز أحدهم عن الآخر، المثير أن البروفيسور قلقاسة، رغم مكانته، إذا لمح أحدهم عند خروجه أو دخوله يسارع بمصافحته، بل.. وينحني.

ما من علامة مصاحبة لمجيء سيادته أو انصرافه من الطابق، لا تسبقه حقيبة كما كان الأمر مع المؤسس، إذ اشتهرت الحقيبة المصنوعة من جلد التمساح النيلي، ظهورها في يد عم صديق النوبي يعني أنه على وشك الخروج أو.. الوصول، يسري الخبر بصيغ مختلفة.

«الحقيبة خرجت»..

الحقيبة وصلت»..

اللفظ يدل ويوحي، كان لسيادته ـ رحمه الله ـ مهابة، توضع في الاعتبار مهما بعد حضوره أو غاب، أغرب ما تردد أخيراً، خروج سيادته من مكتبه الدائري، مشيه متمهلاً، إظهاره البشاشة والسرور، يجلس في الصالة الرئيسية أو يفتح أحد الحجرات ويفاجىء المقيم بها، عندئذ تتغير الملامح، وتتبدل الأوضاع، حتى درجة الضوء، يدرك المقربون أن الحالة المزاجية معتدلة لسيادته، يفارق آخرون أماكنهم لمصافحته أو لرؤيته مع إظهار الود، وتلقى أي إشارة استحسان منه يتباهون بها، وأيضاً.. للتذكير بوجودهم. لكن.. ملامحه التي لا تعكس أبداً ما يدور داخله لا تدلهم ولا توحي لهم. عندئذ يبدأ القلق الذي يتحول عند البعض إلى حالة خوف، بل.. وذعر، يخيل إلى بعضهم أنه أتى تصرفاً أغضب

سيادته، أو أثار ضيقه، مثل هذه المشاعر أودت بالبعض إلى مصائر شتى، وأذت كثيرين، وهناك من دخلوا صلات معه بدون أن يقابلوه أو يلتقوا به. فتارة يتعاملون مع أنفسهم على أنه راضٍ عنهم، ومرة يظهرون الحزن، وبعيداً عن المؤسسة يختلقون حوارات لم تحدث أصلاً يقصّون تفاصيلها على معارفهم الذين لا تربطهم بالمؤسسة أي صلات، لا من قريب أو من بعيد، والوقائع عديدة، كثير منها معروف.

بالتأكيد أحدث تصعيد النمرسي رجّة، كالعادة في المرحلة الأخيرة فوجيء العاملون بالقرار معلقاً في اللوحات الرئيسية، وتمنى الكثيرون ظهور منشور سري يندد، لكن.. لم يحدث شيء.

الأشموني قال لصاحبه موظف الصحة إن ترقية النمرسي جرت بعد ضبط نور الساعي الأسمر مع الموظفة في المكتب لتنظيم مثل هذه الحوادث، ولإشرافه على تأجير القاعات والحجرات لطلاب المتعة، غير أن صاحبه فاجأه بما لم يتوقعه، تطلع إليه محتداً، قال إن النمرسي أفاد المؤسسة، ولا لوم عليه لأن طبيعة عمله تقتضي ما قام به.

ابتلع الأشموني ريقه ولزم الصمت، ماذا جرى لصاحبه؟ لم يستطع أن يأكل رغم أنهما في ضيافة مطعم لفواكه البحر إفتتح حديثاً، يقدم أطباقاً بحرية مطهية على الطريقة السويسية، ومشوية أيضاً.

ماذا يعني انفعال صديق عمره؟

هل انتابته حالة مزاجية عارضة، أم أنه يقوم بمهمة منذ عدة سنوات؟ هل تربطه صلة بالنمرسي؟ هل كان ضحية خديعة كبرى؟

ما من إجابة شافية، لو أقدم على إبداء الجفوة سيصير إلى وحدة صعبة، كيف يقطع صداقة استمرت طوال هذه السنوات، إن سعيهما معاً ودخولهما المطاعم وإصغاء كل منهما إلى الآخر مما لا يمكنه الاستغناء عنه.

هل أخطأ عندما تعامل مع صاحبه كأنه آلة تسجيل، كان يتكلم أكثر مما يستمع إليه، ولا يهتم بردود أفعاله أو آرائه فيما يصغي إليه، لا يمكنه أن يحتجب عنه الآن، إنه في حاجة إليه، لكن.. ليلزم الحذر بعض الوقت، ليرصد أي علامة تبدو، في الليل لام نفسه وتساءل: ماذا تبقّى لكي أخشى منه إذا شككت في الإنسان الوحيد القريب؟

نام متوتراً، استيقظ عدة مرات، عندما غادر الفندق صباح اليوم التالي بدا متثاقل الخطى، حزيناً، متهدل الكتفين، لماذا لا يبدي اهتماماً خاصاً بالنمرسي، خاصة أن صلاحياته الجديدة تعطيه الحق في استخدام المصعد الرئاسي، لكن.. عند وصوله همس إليه مساعده بما يردد عن عرض قطاعات هامة تابعة للبيع، وأن تصعيد النمرسي وثيق الصلة بما سيتم لصلاته الواسعة بأثرياء عرب يمتلكون الأموال اللازمة.

سرى همس بتربص احتكارات دولية ذات أذرع طولي، وثيقة الصلة بمؤسسات صهيونية متنفذة في أسواق المال العالمية.

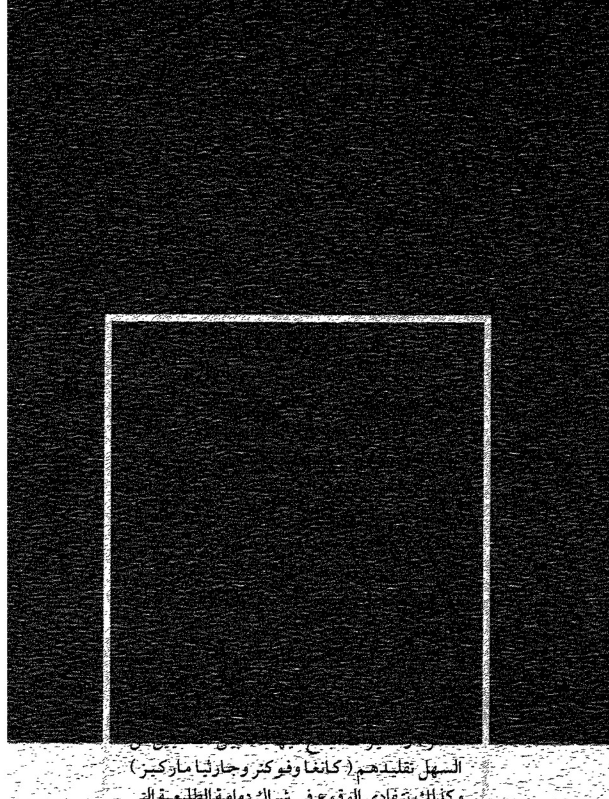
قال حسن الأقصري: إن هذا المناخ لم تعرفه المؤسسة من قبل، وإن سيادته أهمل عقد مجلس الإدارة متعمداً، ولم يلتق باللجنة النقابية منذ شهور، إنه يتصرف وكأن المؤسسة ملك خالص له، أين الرجال.. أين أمثال الجواهري وعطية بك، أين؟

البلبلة تسود العاملين، المؤسف أن اللقاء به أصبح مستحيلاً،

الجميع يسمعون عنه ولا يرونه، يفاجأون بقرارات معلقة، وأوامر تُقرأ في الإذاعة الداخلية، لا شروح، لا تفسيرات، لا أحد يشرح، حتى مقابلة النمرسي الآن وعرة، كثيرون لا يصدقون حتى الآن استقراره في الطابق الثاني عشر، وردد بعض القدامى أن نذر السوء تجتمع، وأن المؤسسة تمضي في طريق مجهول، وأن دمدمة تُسمع فجراً في الحفرة الدائرية، وثمة رجفة تقع يومياً في الثالثة والربع عصراً، تتزايد قوتها باضطراد وما من تفسير يهدى الخواطر ويريح الأفئدة القلقة على مصير المؤسسة.

جمال الغيطاني

١٩٩٠ ـ ١٩٩٦



السهل تقليدهم (كافكا وفوكنر وجارثيا ماركيز)
وكذلك تفادى الوقوع في شراك دوامة الطليعية التي
تستهلك نفسها دون فائدة ترجى منها . الغيطاني يجذر
شجرة أدبه في التراث العربي الثري . ويمتلك امكانية
مواجهة الحاضر بطريقة متوافقة مع الزمن دائما .

من دراسة عن أعمال الغيطاني للكاتب الاسباني
خوان غويتيرسيلو ترجمة د . طلعت شاهين